

رحلة

من ساحل مالابار إلى القسطنطينية

عبر الخليج الفارسي، بلاد العرب، بلاد ما بين النهرين،
كردستان، تركيا وبلاد فارس

قام بها عام ١٨١٧

السيد وليم هويد William Heude

الملازم في الجيش البريطاني

ترجمة

د. سعاد محمد خضر

(أستاذ مساعد بجامعة بغداد، موسكو، صنعاء سابقًا)



السليمانية ٢٠١١

٩١٠،٤ هويدي، وليم
٢٤٨ هـ رحلة من ساحل مالابار الى القسطنطينية/تأليف وليم هويدي.
السليمانية: مؤسسة زين، ٢٠١١.
٢٢١ ص: ٢١×١٤،٨٥ سم. التسلسل؛ ١٣٣.
١- رحلة- العراق- كُردستان- ايران- تركيا
٢- العنوان: د. سعاد محمد خضر (مترجمة)

مشرف المطبوعات: صديق صالح

التسلسل: ١٣٣

الكتاب: رحلة من ساحل مالابار الى الشسطنطينية

تأليف: وليم هويدي

ترجمة: د. سعاد محمد خضر

تخصيص: سهند

تصميم: لاس

خط وتصميم الغلاف: أحمد سعيد

عدد المطبوع: ٨٠٠

السعر: ٤٥٠٠ دينار

رقم الإيداع: ١٩٥٣ لسنة ٢٠١١ من المديرية العامة للمكتبات العامة

مكان الطبع: السليمانية، مطبعة شفان

جميع الحقوق محفوظة.

الكتاب الأصلي:

Voyage de la Co'te de Malabar a Constantinople, fait en 1817, by William Heude, Paris, Librairie de Gide Fils, Rue Saint-Marc-Feydeau, No. 20, 1820.

مؤسسة زين

لإحياء التراث الوثائقي والصحفي الكردي

العراق: إقليم كُردستان، السليمانية؛ الشارع ١١ بيره مکرون، محلة ١٠٧ بِرَانان،

٣١٩٤٧٣٢-١ عماره زين) بجانب (مسجد الشيخ فريد) الأرضي:

آسياسيل: ٠٧٧٠١٤٨٤٦٣٣، أو ٠٧٧٠١٥٦٥٨٦٤، كورك ٠٧٥٠١١٢٨٣٠٩

العنوان: www.binkeyjin.com info@binkeyjin.com

كتب

الرحلات التي اخذت مكانها على رفوف المكتبة

- رحلات في بلوجستان، وبيلاد السندي، تقدم الوصف الجغرافي والتاريخي لهذين البلدين، بقلم السيد "هنري بوتنجر Henry Pottinger"، وترجمها عن الانجليزية "ج. ب. بيجرس J. B. Bgries" في مجلدين، بصور وخرائط، طبع عام ١٨٠٨ م، والسعر (١٥) فرنكاً.
- رحلة في آسيا الصغرى، ارمينيا وكردستان، خلال السنوات (١٨١٤-١٨١٣)، مع ملاحظات حول سيرة الاسكندر الاقبر، والعشرة الاف، بقلم "جون ماكدونالد كينار John Macdonald Kinnar" اليوزباشي العامل في مطار شركة الهند، والتتابع لجلالة النباب دوكارنات في دربار؛ ترجمها عن الانجليزية السيد "پيران Perrin" في مجلدين وتحوي خارطة جميلة قدمها "أروسميث Arrowsmith" والسعر (١٥) فرنكاً.
- رحلة في ريوح الهند البريطانية، تتحدث عن الاوضاع الحالية في البلد، تاريخ الحرب الانجليزية ضد "هولكار Holkar" و"سندياج Scindiah"، تاريخ الشاه "اولتون Aulum" امبراطور المغول، مع وصف لعادات ذلك البلد، مع آراء حول امكانية اجتياح للبلاد من قبل دولة اوروبية، ترجمها عن الانجليزية السيد "ويليم ثورا William thora" و"چون ماكدونالد كينناir J. Mocdonald Kinneir" صدر الكتاب في مجلد واحد عام ١٨١٨، السعر خمس فرنكات.
- الرحلة (الثانية) التي قام بها السيد "جاك مورييه Jacques Morier" في بلاد فارس وارمينيا، وفي آسيا الصغرى، عبر البرازيل، بومبای، الخليج الفارسي، وكان ذلك ما بين الاعوام (١٨١٠-١٨١٦)، مع تفاصيل بعثة السفير "جور اوسلி Gore Ouseley"، سفير صاحب الجلالة ملك بريطانيا لدى الشاه، وترجمت عن الانجليزية في مجلدين مع بعض الصور الملونة المطبوعة، صدرت عام ١٨١٨، السعر خمسة عشر فرنكاً.
- رحلة من الهند الى انجلترا براً عبر بلاد فارس، چورچيا، روسيا، بولندا و بروسيا، قام بها المقدم جونسون في العام (١٩١٧)، ترجمها عن الانجليزية السيد الذي قام بترجمة رحلة "ماكسويل Maxweel" ، عام ١٩٨١. وصدرت في مجلدين مع عشرين صورة معظمها ملونة والسعر (٢٤) فرنكاً.

(من مطبع "جون سميث J. Smith")



الفهرست

الفصل الاول:

- مقدمة، ملاحظات حول الوضاع الحالية في مالابار والتغيرات
الحاصلة في ظروف البلاد الطبيعية،منذ ان خضع للحكم البريطاني،
نتائج تلك التغيرات، الحكومة المدنية والعسكرية ٧

الفصل الثاني:

- الرحلة من كانانور، المراكب الهندية، تجارة مانجالور، مغارات
مثيرة في (كارادي)، هندوس متطرفون، الوضع الحالي في (جوا)-
بومباي-، وضع القوات الانجليزية في الهند..... ١٧

الفصل الثالث:

- الرحلة من بومباي، سواحل اليمن السعيد، مسقط، سكانها، بيع
العييد، ظروفهم، رحلة في الداخل، خطري يفاجئ السفينة، مناخ
وتاريخ مسقط..... ٢٦

الفصل الرابع:

- تمرد في السفينة، هرمن، جزيرة قabil، القرصنة القواسم،
قسواتهم، الوصول الى بوشهر، تاريخ وتجارة تلك المدينة، جزيرة
كارك، صيد اللؤلؤ في جزيرة البحرين، الوصول الى البصرة ٤١

الفصل الخامس:

رحلة في شط العرب، حدائق عدن، رحلة عبر الصحراء وبين البدو

استغرقت ثلاثة اسابيع، قبيلة المنتفك، بلاط الشيخ محمد، نزاع

58 لدى الشيخ ابراهيم

الفصل السادس:

الوصول الى الشطرة، احترام كبير للسيدين، قبيلة بدوية ملحة،

واسط، ملاقة الجيش العربي، الامر اليه بالتحرك، الوصول الى بابل 77

الفصل السابع:

اطلال بابل، اللقاء مع احدى القوافل، سرقة احد الادلاء، قنوات

93 قديمة، اطلاق، سلوقيا وطيسفون، رعب بلا داع، الوصول الى بغداد

الفصل الثامن:

وصف بلاد العرب، اخطار وسراب الصحراء، صفات البدو، عاداتهم

ونبلهم وكرمهم، المرأة العربية، آراء حول الابل والمحسان العربي .. 109

الفصل التاسع:

ملخص تاريخ بغداد منذ (١٦٣٨) وحتى الوقت الحاضر 128

الفصل العاشر:

ثورة في بغداد في الفترة التي كان فيها الكاتب في بغداد، عزل البasha

سعيد ووفاته، 147

الفصل الحادي عشر:

الرحيل من بغداد، رحلة في جبال كردستان، قوة وسطوة السوط،

اخطار الطريق، المخاوف من الروس، نزاع مع قبيلة كردية، مقابر

تشير الاهتمام، كويسنجر، تفاصيل حول الكرد، الوصول الى اربيل،

الموصل 165

الفصل الثاني عشر:

اطلال نينوى القديمة، قبر يوحنا، وصل الموصل، رحلة في قلب
صحراء نصبيين الصغيرة، الوصول الى ماردين، وصف تلك
المدينة، بعض التفاصيل عن اليزيديين او عبادة الشيطان ١٨٨

الفصل الثالث عشر:

الرحيل من ماردين، تزيان، وصف دياربكر، جبل طوروس،
ملاطيا، وادي سيواس، وضع الفلاحين في تركيا، آماسية، بولي،
هندك، الوصول الى سكوتاري ٢٠٠





الفصل الاول

مقدمة، ملاحظات حول الوضع الحالي لإقليم مالابار، وحول التغييرات التي حدثت في ظروف ذلك البلد منذ ان كان خاضعاً للسلطة البريطانية، نتائج تلك التغييرات، حكومة مدنية وعسكرية

يندفع الرحالة بوجه عام الى الحديث عن نفسه. ولحسن الحظ، ليس لدى الكثير عن نفسي لاقديمه الى القراء. فقد كنت جندياً في الجيش منذ سن الخامسة عشرة، وعشت تجربة الحرب المريدة الى ان اصبحت في الثلاثين من عمري. واعتقد اذن انني استطع تحمل متاعب سفرة طويلة برّاً. وسوف تتضاعف تلك الصعوبات بسبب الطريق الذي اخترته وسلكته. والحق اقول ان التوقيت كان ملائماً للقيام بتلك الرحلة؛ كما وان حديث الملوك كانت نتائجه حيوية هذه المرة؛ وبذلت رحلتي في ظروف ساد فيها سلم عام وهدوء يكاد يكون عالمياً. ولسوف اصف كل ما ارى، واتحدث عن السكان وعن عادات البلدان التي سوف اجتازها. وفوق ذلك، ومهما كان من امر الاهتمامات اللاحقة، فسوف تكون على الاقل دقيقة وصادقة.

وكانت فرقتي عندما اخذت اجازتي في الحامية في (كانانور Cananor). ولسوف ابدأ اذن مذكراتي ببعض الملاحظات العامة حول وضع اقليم مالابار الحالي وحول مصير سكانه في ظل حكومتنا. وآمل ان يهتم القارئ بتلك الملاحظات طالما انها سوف تركز فقط على الاشياء التي أثارت اهتمامي بوجه خاص.

ويطلق اسم مالابار على ساحل شبه الجزيرة الغربي بوجه عام. ورغم ان الاجزاء الاخرى تتميز عنه بشكل خاص، الا انه بلد غالباً ما يصفه الناس لدرجة اثنى ارى من الضروري تقديم نبذة صغيرة عنه. ففي الحقيقة، يقدم جماله الرومنطيقي وثراؤه، خصوصية ارضه واهميته، جباله الشاهقة ووديانه الملائمة باشجار الفاكهة، ومدنه المأهولة، يقدمون للقلم وللفرشاة مواضيع لا تنضب. فقد وهبته الطبيعة روعة يعجز القلم عن وصف جمالها وكمالها؛ بل ويبقى دائماً شئ من جلالها. ويعلو الجبل كما البرج فوق السحاب، وتخترق الهاوية احشاء الارض بحيث لا تستطيع النظرة المندھشة ان تقيس ابعاد اعماقها. وتختفي الغابات الفسيحة صخورها المميتة، وحيث تضرب مياه الشلال المندفع نحو الوادي الضاحك الجميل وتتفتح احضانه لاستيعاب تلك المياه الدافئة الضرورية لحيويته والخصوصيته.

وتعرض الضاحية، او تلك المنطقة والتي تطل من ذلك الارتفاع على مقدامات السفن في الاسفل، وذات المناظر المتنوعة الرائعة التي ترويها عيون الجبال تعرض بدورها منظراً ساحراً اروع من سابقه. هذا، بالإضافة الى مناخ معتدل يضيف على كل ذلك السحر قيمة جديدة. وحتى اذا ما كانت الامطار غزيرة فانتا نجد مع ذلك ان اقصى درجات البرودة او الحرارة اكثراً اعتدلاً بشكل عام من المرتفعات المشابهة او الاكثر ارتفاعاً.

وبفضل تلك الامتيازات، ووفرة وتنوع منتجات البلاد، فهناك تجارة جيدة ترفع وتطور الصناعة بوجه عام. وتعتبر عوائد مالابار اكثراً من كافية لتغطية مصاريف مؤسساتها المدنية والعسكرية على السواء. ودون ان ادخل في مناقشات غير مجدية حول ذلك الموضوع، نتيجة للحسابات المعمقة والحقيقة التي عالجته بها، فاني افضل ان القى نظرة

سريعة على التغيرات التي حدثت منذ ان خضعت تلك المنطقة الى النفوذ الانجليزي، والتي كانت النتيجة المباشرة لتلك الثورة الهامة.

و ساحل مالابار، الذي كان قد اياً مسرحاً لانتصارات البرتغاليين، مازال يسكنها جنس مختلط لا يحمل شرف امتلاك ذلك الاسم الذي كان قد اياً شهيراً. ويمكن ان نقول ان سكان تلك المنطقة وكذلك السكان المسيحيين الاصليين في مالابار، انهم وبشكل عام ليسوا محترفين او فاسدين كما هو حال اشقائهم سكان الساحل الاخر. وهناك لديهم رغبة عامة للتطور تتحول حولها صفاتهم. و اذا ما بذلنا اهتماماً لتلك الملاحظات التي عانوا منها قدماً، فقد تحول ذلك الى نشاط اليوم كما نتيجة طبيعية للتغير السلطة التي نشرت اجواء الامن في البلاد. ومع ذلك، فان تلك المتابعة للاهتمام بتلك المنطقة، ليس بسبب العدد فقط، بل ان ذلك الجنس الغامض قد حصل على حقوق اثارت اهتماماً بالدرجة الاولى. وهو يتمتع بذلك التمييز بسبب تلك التأثيرات الحساسة للتغيرات التي تبعتها نتائج وتطورات هامة جداً. ووضع سكان تلك المنطقة يتضاعف كل يوم، ويستحق تماماً اهتمام المشرع. ويمكن ان يكون ذلك سبب تمكيننا او خسارتنا. وبما ان تلك الاهتمامات تبعدني كثيراً عن موضوعي، فسأتوقف عند تأشير ماهية ذلك التغيير.

وفي الهند، حيث تم استخدام الدين لصنع سياسة مصطنعة، وحيث ترى ان الكتاب الذي يحوي نظريات خاصة تجاه سلوك وتصرفات الانسان وتعمل على تنسيقها من اجل واجباته تجاه المجتمع الذي يعيش فيه. فاننا نرى اذن، ان القرآن وقيدام^{*}، والتعليقات على تلك الكتب تمثل كلها القانون الوحيد للايمان، القانون الوحيد لجميع الموروثات وجميع التشريعات المدنية والجنائية، وحيث يتحد الدين والاحكام المسبقة

* كتاب الهندوس. [المترجمة]

للتأكيد على استقرار وثبات تلك العادات. اذن فإننا لم نستطيع بالطبع ان نقرر ان اتباع سياسة اجنبية الى جانب تغير رئيسي اساسي يمكن ان يؤدي الى تحقيق تلك التغييرات والتي لايمكنا آنذاك اغفالها على ما اظن. وحقيقة الامر، انه عندما تخضع امة مجاورة لمن يغزونها، فسوف يتبع الغازي بالتدريج على عادات واعراف واخلاقيات تابعيه. ولانه يتبع لسياسة عليا فسوف ينتهي به الامر الى ان يكون واحداً مثل هؤلاء المهزومين. مع انه يجب التذكير بان الصينيين كانوا دائماً امة متحضرة. بل واكثر تحضراً من غزاتهم التتار. اما بالنسبة لنا فقد كان الامر على ما اكد لنا تفوقنا في مجالات الفن والعادات وفي مجال التسلح. كما وان التأثير الطبيعي لاى تغير حكومي على عادات وطبائع السكان كان يجب ان يكون اكثراً تطوراً في الهند، لانه تأثير امة ارفع شأناً واكثر تطوراً في الهند. ولكن مثل ذلك التأثير كان فقط واضحاً في مالabar دون ادنى شك.

وفي جميع انداء ذلك الامتداد للسلطة البريطانية في مالabar، لم يعد ذلك الحاكم المستبد "نامبوري Namboury" يحكم تلك المنطقة قدرًا وحيداً للسكان. ولم يعد ذلك الفقير الذليل (تيار) يرتعد عندما يراه او التقاه او لمسته يداه او يخشى الموت من تلك الشخصية المقدسة. ولم يعد المسلم الفخور كذلك ويُحيش الجيش وسيفه بيده كما لم تعد تلك الطبقة المسالمة الفقيرة البسيطة تخشى شيئاً في ظل قانون عادل لا تبيّن فيه بل اخذت تتمتع بثمار عملها وكدها وتحصل على نصيبها دون ان تشعر، بالاهتمام والاحترام والثراء الذي تستحقه. في حين نرى المستغل الذي اراد ان يصطاد في الماء العكر، لانه على علاقة حميمية بالاوربيين، نراه ينسحب رويداً رويداً بعيداً عن مؤسساتنا ليقوم باعمال الفلاحه المضنيه في القرية، في الوقت الذي انغلق فيه المسلم داخل اسوار كبرياته. واندفعت كذلك الطبقات الدنيا تعمل وتكد بعد ان عممت الثقة

واخذت تتحسن مصائرهم باستمرار ولم يعودوا يحسون بتلك المذلة التي كانوا يشعرون بها قبل امام التمييز الذي كان ينزله بهم اولئك الذين كانوا دوماً يذكرونهم بموقعهم ودونيتهم.

اما السيد فلم يمهله الوقت طويلاً وسرعان ما تحددت ممارساته العنيفة الدموية لامتيازاته، بل انه شعر بكبريائه وقد جرح، وشعوره بالمذلة والضيق حين يرى نفسه مجبراً على ان يتقاسم مع غيره تلك الامتيازات الفخرية التي كانت له حصراً.

ومن قبل، عندما كان يشعر بنفسه فوق المألوف، واثقاً من نفسه ورفعته وتعاليه بسبب تلك التدابير، ولم يصطف بفضلها مع الادنى منه، فقد كان يتمتع بشخصية معنوية يمكن ان ترفعه اذا ما كان طموحاً الى اعلى درجات الرفعة والمقام بل والثروة... وبالمثل، فان الطبقات الادنى من المسلمين والمتوسطة لم يعودوا يخشون من تكديس واظهار ثرواتهم حيث كانوا يخشون من قبل ان يثيروا الحسد ومن ثم يستولى الغير عليها. وبفضل ذلك الشعور العام بالامان الذي يساعد على احياء الصناعة وتم بذلك نشر هامش جيد من الحرية السياسية، في مقابل الضغط والتضييق على الطبقات العليا التي تحملت بذلك عبئاً شخصياً ثقيلاً. ومن الصعب جداً وصف تأثير ذلك التغير، واتساع رقة الحرية المدنية على حساب الحرية الشخصية، طالما ان ذلك كان يؤثر على الرأي العام والمشاعر الفردية. وسوف تظهر تلك التأثيرات في اوقات الخصومات. ولكن وحتى ذلك الحين، يمكننا ان نقول وبثقة تامة، بأنه طالما يشعر الانسان الثرى والطبقات الدنيا بالامن والامان لانه لا يوجد ما يخشوونه فان الغاضبين فقط، هم اولئك الذين يرون تضاؤل الاهتمام بمكانتهم الاجتماعية دون ان يحصلوا على ما يؤهلهم للبلوغ الثروة غالباً. فهم يشعرون بشكل ما ان مكانتهم قد تراجعت بسبب ذلك

القانون الذي لا يميز بين الناس، ولا يقدم امتيازات خاصة ويحمي الجميع، ويصفونه دوماً بـان القدرة والقوّة تنقصه.

ولتكن مؤسساتنا في تلك البلاد بعيدة عن الكمال الذي يتمتع به نظامنا العسكري، فذلك ما استطيع قوله دون محاباة. ولا ادعى القول مع ذلك انه يجب ان نجد اخطاء مؤسساتنا والشكاوى ضدها، تعود لنقص في النشاط او المهارة التي يتمتع بها موظفو ذلك القسم. فهم ذوو ثقافة عاليه يُضاف اليها نشاط مميز، ومُثابرة دؤوبية وحرفية واضحة. ولكن هناك بعض الاستثناء دون شك. فهناك اناس يشغلون مناصب تدر لهم الربح والمكافآت، ولم يستطع واجبهم المنوط بهم القيام به ان ينقدتهم من ذلك التراخي المؤسف. ولأن ذلك ليس الطابع العام لذلك الجهاز المحترم، فيجب علينا ان نبحث في مكان آخر عن هذه المشكلة التي تشغelnَا. واعتقد اننا سنجد حل لها في رصد عدم الكمال عند المقارنة وعدم فعالية النظام الذي تم اختياره. وكيف لنا اذن ان نشرح لماذا نجد ان كل ما يخص السلطة العسكرية يتحقق في لحظة وبكل سهولة، رغم وجود الكثير الذي يجب انجازه من التطوير اللازم لتحسين كفاءة مؤسساتنا المدنية؟ وكيف ندرك ان المفاهيم غالباً ما تخلق الواقع؟ ولم يترك الفلاح حقله ويرفض زراعته؟ ومن اين وكيف تتآتى الحاجة الى طلب النجدة من فصيل عسكري ان يقوم بتتأمين الضرائب وجمع العوائد المطلوبة من اصحاب العمل؟ وبعد ان قمنا بزيارة مؤسساتنا المدنية وبعد رؤية ذلك الجمع الغفير من البوسائِ متكدين في زنازين ضيقة مظلمة مكبلين بالاغلال، يتenschرون الهواء الفاسد، فهل يمكننا آنذاك ولو للحظة ان نصدق ان مانراه كان موضوعاً لشكوى ما وانه شئ عادل وعام، وانه لا يوجد شرطة؟ وان ايّاً من يكون قد رأى ذلك المشهد الرهيب المحزن واحصى الالاف من هؤلاء المساكين الذين حكم عليهم بالسجن، هل

سيظن ان الجريمة قد انتهت بذلك من على وجه الارض او ان يبرر بأنه كان في صالح الانسانية في تلك الديار التعسة؟ ولا توجد اية مبالغة في تلك اللوحة التي وصفتها، انها صورة صادقة لتلك الاوضاع. وكذلك، وعلى الرغم من قيامنا بانزال العقوبات، فاننا نقترف دائمًا نفس الاخطاء، وحينذاك اذا رأينا ان الخطأ لم يقرفه العميل، سنستطيع ان ننسبه الى عدم كفاءة التشريع، بل ونتيجة ذلك الى الحكومة نفسها. اما الامتيازات الكبيرة التي تتمتع بها ممتلكات السادة، فهو التمتع بالسلم والعيش بِمَأْمَنٍ من الاجتياحات الاجنبية. واننا ننسب ذلك الى قدرة شرطتنا العسكرية الى الاساس المتين المحترم الذي قامت عليه مؤسساتنا الحربية، واخيراً الى نجاح وافضليّة سلاحنا.

ويرجع سبب كمال نظامنا العسكري في الهند الى بساطته ووحدته والسرعة التامة التي تتسم بها جميع التطبيقات. في حين نرى ان نظام شرطتنا المدنية معيب في كل شؤونه، ومن السهل تقديم شرح لذلك الاختلاف. فنظامنا العسكري اصيل في مبادئه، ولم يكن فاسداً في التطبيقات؛ وذلك لعدم اتباع اية نظرية او توجّه شرقي. كما انه لا يهتز عند العمل بسبب التسامح والصبر مع اية مزاعم محلية. واقيمت شرطتنا المحلية انطلاقاً من مبدأ اقل صلابة؛ ولأنه من السهل جداً القيام به في مختلف اقسام الادارة المحلية المدنية. وبالمثل وفي الهند، كان من الضروري التصرف ودمج السياسة بتلك الاراء والمشاعر العامة حيث يتحد العرف، الدين والاحكام المسقبة لتطيل البقاء.

ويوجد غالباً بعض الاضطراب في نظامنا المدنية، نتيجة لترافق غير متجانس لمواد لم تدار جيداً. ولا توجد فيها اية بساطة، او وحدة او قدرة او فعالية. وتعتمد قيمة الضريبة في بعض المناطق على الناتج الزراعي،

ولذلك تكون مختلفة النتيجة، في حين نراها ثابتة في مناطق أخرى، ونراها تدفع مباشرة لجافي الضريبة في العديد من المحافظات، بينما نراها في بعض المحافظات بواسطة الحكمدار. أما النظام القضائي المتبع في المحاكم المدنية ليس أكثر ثباتاً أو كمالاً. فتتنوع اشكالها وتتباين تأثيراتها. ويسترشد القضاة بهما؛ وقد تم التغيير فيها من جديد بواسطة اجراءات خاصة وأفضلية قانوننا الرفيع، في علاج القضايا الاجرامية. وما هي النتيجة؟ عندما تكون البساطة ووحدة العمل ضروريتين تفتقر الشرطة في ذات الوقت الى القدرة والفعالية في حين تتباين العدالة على طول البلاد. نجدها هنا بطيئة كذلك الى حد ما حيث نرى تماماً ان المكتسبات التي كان يمكن الحصول عليها منها قد اصابها الشلل التام. وعندما نحاول البحث في اظهار التغييرات التي نتجت عن اقامة حكومة أجنبية فانني لا اتحدث الا عن اقليم مالابار وعن الساحل الغربي، وذلك لكي في ميدان عرض ما يوازيه لفهم التأثير المعنوي الذي حدث فقد تحدثت عن الهند البريطانية بوجه عام، لكن اتفادى قدر الامكان امكانية اقامة تطبيقات خاصة اعتماداً على الملاحظات السابقة وهو شئ لا اقبل به. كما ان اللوحة التي قدمتها ليست مزدحمة واعتقدت انها اكثر اثارة للاهتمام بل وتحتاج باهمية كبيرة افضل من تقديم تفاصيل جافة لما حدث او مجرد يوميات للاحاديث.

بنكھی زین

www.zheen.org

الفصل الثاني

الرحيل من "كانانور"، مراكب البريد الهندية، تجارة مانجالور، مغارات
مثيرة في (كادري)، هندوس متطررون، الوضع الحالي في (جوا)، بومباي،
وضع القوات الانجليزية في الهند

عادة ما تحف شدة رياح "موسون" في مالابار مع نهاية شهر آب
(اغسطس) وواسط ايلول (سبتمبر) وفي شهر سبتمبر قررت ان ارحل على
متن احدى السفن الى "مانجالور"، وكان ذلك المركب، من بين جميع
المراكب التي تقطع البحار، اكثرها بؤساً وقدارة، ولا يوجد على ماقبلن
اسوا منه، بل اكثر قدراة من الباتامار الهندي. اذ يوجد دائمآ على سطح
المركب كمية كبيرة من الزيت العفن، والكثير من الاسماك المملحة التي
تکاد تكون فاسدة. ولا يوجد ملجاً على سطحه سوى بضع اماكن رتبت
بطريقة يمكنها ان تصنع سقفاً ما. وان اي مسافر يريد الذهاب الى
(مانجالور) سالكاً نفس الطريق سيجد مراكب اخرى ولكنه يجب ان
يتخلص بالصبر ليتظرها. وانا لم يكن عندي صبر لذلك. ولكنني عوقيت
لعدم صبري. فقد ظللت اربع عشرة ساعة تحت المطر دون توقف للحظة
واحدة. وبعد ان واجهنا عاصفة كسرت صارية المركب والدفة وصلنا
اخيراً الى مانجالور. وتعتبر تلك المدينة مستودعاً كمرياً تجارياً بين
الخليج الفارسي ومؤسسات مدراس. ويتم تزويد عدد كبير من الخيول
العربية والفارسية من البصرة وبوشهر الى مدراس وشبه الجزيرة بوجه
عام. ومن ثم بواسطة "مانجالور". يتم تزويد ديكان وجميع محافظاتها
الشمالية بالمؤن. يجلبون كذلك بعض اكياس التمور والجلود من دياربكر

واللؤلؤ والفيروز كذلك. ولأن تلك المدينة تتمتع بعلاقات مباشرة مع بومباي و مختلف الموانئ الشمالية، فإنها دائمًا يعتبرونها نقطة انطلاق بسبب مختلف المكاسب التي تقدمها للمسافر.

وتعتبر صخور (كاديري) و مغاراتها الأشياء الوحيدة التي تستحق الاهتمام. ويدلل المعبد القائم هناك على قدسيّة المكان. ويقع أسفل الهضبة ويحيوي الكثير من الأحواض لكي يستطيع المؤمن إكمال اغتساله. ونرى على المرتفع ويسار الطريق عين تنبع من الصخرة لتنشر الماء الصافي بل الأكثر صفاءً. وإلى اليمين على بعد قليل، يوجد عدد من المغارات أو الصوامع، تعود كل منها إلى قديس وما زالت تحتفظ باسمائهم. وهناك بئر ضيق تقع تقريباً على قمة الهضبة وكانت تلك من أكثر الأماكن التي زرتناها أثارة للاهتمام؟ ليس فقط للبئر بالذات وإنما لتلك القصة الغريبة التي تصور أحد النساء بأنه ظل معلقاً فوقه مدة ثلاثين عاماً. وكانت راحته الوحيدة أن يترك قدمه ترتح قليلاً على الصخرة ليستريح. وما زال الاثر الذي تركته قدمه لتبرهن وبشكل كاف على ثبات مصير ذلك الناسك المتهمس وتطرفه، وذلك الاثر الباقي هو دون شك ثمرة عمل سنين طويلة وتوجد فوق القمة عدة معابد صغيرة تبلغ مساحة كل منها من شمانية إلى عشرة أقدام مربعة.

ويجب "البراهمة"^{*} كثيراً الرموز والكتابة الغامضة التي تتحمل مختلف التأويلات التي تشير الدهشة ولا تتحقق الضرر بالحقيقة. ومن المستحيل عليهم غالباً شرح الاستعارة بل ويقبلونها بشكل حرفى. وهذا أخذونا لرؤية ممر يخترق هذه الصخور ويقودنا - كما كانوا يقولون - إلى (بينارييس)^{**} (Benare's) وكان البراهمني الذي محقق دون

* البراهمة هم درجة عليا من كهنة الهندوس. [المترجمة]

** منطقة في الهند. [المترجمة]

شك، مهما كانت المساحة لتحصل إلى عدة مئات من الاميال، فإن أي ممر آخر نصف بيضاوي ومفتوح من الطرفين سيعود إليها بالمثل. ان ذلك المكان الذي أقدم له وصفاً اليوم، يعيد بشكل ما لوحة للعادات والتقاليد لتلك المجموعة العجيبة من الناس التي عاشت في تلك الصوامع الضيقة. ولم يبقَ يعيش فيها سوى ناسك واحد يعيش وحيداً ويتمتع بشهرة كبيرة من القدسية. ويقول انه جاء من (بيمارس) في صباح حيث كان جندياً، وأنه قد عاصر فورة الحرب، ويحب كثيراً الحديث عن مآثره. أما طول العمر الذي أتى على قواه، قد ابقي بالكاد على وعيه نظراته الثاقبة. وكان طويل القامة نبيلاً في مظهره. كما ان مائة من السنين تقريباً، قد تركت شعراً أشيب وقوراً. أما مهمته فكانت مقدسة كما المكان الذي يعيش فيه. ولا يمكن للخيال ان يجنب بعيداً هنا عن ذلك الوسط، كما يمكن ان يفعل ان كان ينظر الى مشهد رومانطيقي ما.

والعقوبات التي كان يفرضها النساك الهندوس على أنفسهم من أجل التقديس او التكفير عن ذنوب صغيرة او خيالية، كانت موضوعاً يوصف دائماً. وقد سنت لي الفرصة عدة مرات لكي اقنع نفسي ان وصف تلك العذابات التي يتحملونها في صبر وعقلية دينية متطرفة، لم يكن فيه شيء من المبالغة.

وفي (كانانور)، حيث كنتُ في مقر الحراسة، رأيت فقيراً هندياً، يقف بثبات لا يتحرك، قبضته معقودة فوق رأسه، وهو امر معروف كان قد ادعا شيئاً معتاداً. ويقف على تلك الحالة وقتاً طويلاً، حيث لا تعود يداه الى وضعهما الطبيعي؛ بل يظل هكذا ثابتًا لا يتحرك وحيث تنمو اظافره لتعبر راحة يده وتصل تلك الاظافر الطويلة حتى المرفق. واما معبد "چاجارنو" الكبير، رأيت ناسكاً هندياً ممدداً على لوح خشبي كبير بطوله مغطى بالمسامير المدببة. وقد التقى في رحلتي بناسك اخر من هؤلاء المتخمسين

المتطرفين، كان يقيس الطريق بجسده، من (بيinars) الى (چاجرونوت) والبالغ ستمائة ميل، واستمر ثلاث سنوات منذ ان بدأ ذلك الامر. وعندما رايته كان قد انجز مائة ميل فقط من تلك المسافة. وكان لي صديق التقى به قبل ان اراه بشهور. وكان منشغلًا بذلك العمل المضني. يُقال ان الكثرين يلقون حتفهم اثناء قيامهم بمثل ما يقوم به ذلك الناسك. وسمعت عن احدهم انهم قد اجبروه على التخلی عن القيام بذلك عند قيام العقيد "هاركورت Harcourt" باحتلال (كوتک Cuttack); فقام بحبس نفسه في صومعة ارتفاعها اربعة اقدام وعرضها قدمان ، ولمدة عشرين سنة.

تلك هي العقلية السائدة للدين، عمل مُبشرُونا على تدميره بجهود ضئيلة متخلفة. ومن المستحيل ايجاد تلك التحاير التي تستطيع ان تصف هؤلاء المهووسين الذين يقومون بتلك الممارسات بحثاً عن الاستغفار والتکفير عن الذنوب عن طيب خاطر في صبر وثبات. ونستطيع ان نتألم او ان نتأمل من تلك المبادئ الخاطئة المنافية للطبيعة والتي هي منبع واساس تلك الرغبات؛ ولكننا في ذات الوقت نرى انه من المستحيل عدم اظهار اعجبانا بذلك التصميم والاصرار والثبات والصبر في سبيل تحقيقها. فليظهر هؤلاء المبشرون المدعون القادمون من ادنى طبقات المجتمع والذين يسيئون لمُهمتهم؛ فليظهروا اذن نفس تلك الشجاعة ويُکفروا، عن اخطائهم الخاصة. حينذاك، وحينذاك فقط، سوف تؤتى اعمالهم في رحاب الله شمارها: وحتى ذلك الحين، والى ان يأتي ذلك الوقت، فان ذلك الناسك الهنودسي المحمد فوق سرير المسامير هذا لسنوات دونما حراك سيحافظ ويؤكد على افضلية عقيدته، وسيطالبهم مستعيناً بشجاعته وقوته بممارسة نفس الاختبار. فماذا يفعلون اذن آنذاك؟ وهل هم على استعداد للالجابة رغم اعراضاتهم؟ وما هي المسؤولية التي سيتحملونها عندما يقطع التطرف خيوط صلاته بالعقل،

وعندما تضيع الهند؟ ومن اسباب قوة حكومتنا في الشرق هو التسامح الديني، لأنهم يقارنون ذلك السلوك بسلوك المسلمين. والبرتغاليين. فهل يمكننا ان نفقد امتيازات تلك المقارنة؟ وهل يمكننا زعزعة دعائم قوتنا؛ لينهار البناء كله بضوضاء كبيرة، ونذمر في يوم واحد انجازاً من انجازات مجدنا في قرنتنا هذا؟ ويفرض ديننا بالتأكيد التزامنا بالبحث عن طرق آمنة وسلمية، في استقامة وسداد راي. ولكن لكي تتغلب على ذلك العائق، يكفي ان نجيز بان تلك المحاولات في الهند تخلق آثاراً محورية مضادة لذلك المفهوم. ولهذا فان الهندي الفاسد لن يستوعب اسرار عقيدتنا الا لكي يستغلها بحرية لتحقيق مآربه وغاياته، اكثر مما تمنعه وبوضوح تام نظمها الصارمة عن القيام بذلك.

وفي الثالث من اكتوبر، اسعدني الحظ بلقاء احد اصدقائنا الذي كان متوجهاً بدوره الى بومباي. وقمنا باجراءات كبيرة لكي تكون على متن مركب كبير كان على وشك الاقلاع، وحددنا بدقة اللحظة التي سوف يُقلع فيها، والموانئ التي سيتوقف فيها والمدة التي تستغرقها زيارة المركب؛ وهي احتياطات اتخذناها لتفادي اخطاء لافائدة منها. وبفضل ترتيباتنا، اقلعنا في الرابع من اكتوبر من مانجالور ورسينا في الثامن من الشهر في (جونتاي Gontai)، وهي مدينة هامة كانت قد ايماءً مقراً لأحد القضاة. ورأينا فيها الرائد "جيلىبرت Gilbert" الذي استقبلنا بحفاوة وودة. ورغم ان ذلك شئ طبيعي بالنسبة له، فانها واقول بغير فضيلة اقاليمنا. وكان ذلك الضابط في جولة ليختار اخشاب البناء التي تحتاجها الشركة وتراه دائماً في قلب الورشة، يراقب بنفسه كل شئ؛ ولم يتمتع مطلقاً لا بالشركة ولا بمواطنيه، وانني ارى ذلك الضابط واحداً من كثيرين يضخون بصحتهم وبجزء من حياتهم لكي ينجزوا بصرامة الواجبات التي ثناط بهم.

في الحادي عشر، مرتنا امام (سيدا سيرغور Sidassirghur) حيث نجد احدى حامياتنا؛ وهي قلعة صغيرة. كما انها تشكل خطنا الامامي في الهند على ذلك الشاطئ^١. في حين ان الاراضي بينها وبين بومباي تحتلها دول اخرى. في الثاني عشر وصلنا (جوا Goa)، وكانت قد ياماً عاصمة لامبراطورية قوية. في حين عمل الفساد والترف وكسل الفراغ على تدميرها تحت تأثير الخراقة. واليوم تحوي جوا، فحسباً اكثر من الجنود، وكنائس اكثر من القلاع. لا توجد تجارة ولا تجارة، ولا توجد معامل يقوم فيها العمال بالعمل اليدوي. وفي المقابل، تُصادف عجرفة وتطرفاً تستطيع ان ترسل الكثير منها الى نصف العالم. ولا ننسى مطلقاً تلك الصفات التي ترتفعنا عن الاقتداء بها وتجاهلناها، فهي مثل يتسبّب الاقتداء به الى خرابنا؛ ولكي تكون مثارة لنا تدفعنا دوماً بعيداً عنها وتفاديها، فهي حجر عثرة تؤدي الى الهلاك. لقد انهارت امجاد البرتغال في ذلك الوقت الذي تم فيه احتقار ابسط فضائل الحياة العسكرية؛ وحيث انتشر الفساد بتأثير التدميرية في كل مكان، وحيث تم رفض منح التكريم والمكافأة لمن يستحقها؛ لكي تُغدق بعد ذلك على المدعين وذوي الطموح. واذا ما اتبعنا نفس المسيرة ربما انتظرنا نفس المصير، حتى وان لم تساهم في ذلك تلك العجرفة والخراقة، او حتى وان رفضهما العقل عبر دين يعتمد فقط على الايمان.

وبومباي التي وصلناها في السادس عشر من الشهر، واحدة من تلك المناطق، حيث الموقع، الحدود، الاثار، والمناخ المعروف جيداً والتي لا يمكن لاى وصف ان يعطيها حقها، ولكننا ننظر لذلك الامر بطريقة اخرى، لانيقصها الاهتمام، انها المقارنة بين ما كانت عليه بومباي منذ بضع سنوات وما هي عليه اليوم. ولن نذهب بعيداً اكثر من عام

^١ كانت تلك القلعة الخط الامامي عندما ترك الهند... وما ان انقضت بضعة اشهر على رحيله، حتى خضعت لنا معظم اراضي "جوكان Gocan" تقريباً.

١٧٦٤، حيث قدمها احد علماء الغرب، مكاناً يتطور باضطراد خلال العشرين سنة الماضية، ويقول انه خلال تلك الفسحة من الزمن ازداد عدد سكانها بشكل ملحوظ من (١٤٠) الف نسمة وهي اليوم اصبح سكانها ضعف هذا الرقم على اقل تقدير منذ ذلك التعداد الاخير. كما ان بومبای، مدراس وكلكتا تدخلان بنفس تلك الحسابات بتقدير ٣، ٤، ٦ بالمائة احدهما تجاه الاخرى. وفي تلك الفترة واستناداً على نفس المصدر، كانت الشركة تشرف على سبع عشرة شركة للمشاة، ثلاثة للمدفعية، وخمسة الاف على الجزيرة نفسها؛ وذلك من اجل حماية بومبای والدفاع عنها، وعن جميع متعلقاتها من مدن ومؤسسات على طول ذلك الساحل، وتعمل جميع تلك القوات تحت امرة رائد واحد، ورأيه هو الرأي الثالث في المجلس اذا لم يتعلق الامر بالشؤون العسكرية.

والليوم، وتحت قيادة ضابط عام ، يعمل تحت امرته العديد من حاملي لقب لواء، يتكون جيش بومبای من ثانية عشر فوجاً نظامياً اذا لم تؤد احتساب الزيادة الحديثة، ولا عن الكتائب الملكية الملحقة كذلك بادارة الشركة. وفي عام (١٧٦٤)، التحقت عشر طرادات بادارة الشركة تعمل في الخدمة على الساحل. ونمتلك اليوم ثاني عشر طرadaً، رغم بعض التخفيضات التي جرت مؤخراً في ذلك القسم. ويمكننا مضاعفة ذلك العدد الى ما لانهاية سواء عن طريق التجارة التي توفر لنا الوسائل بسهولة للقيام بالتجهيزات الالزمة، او بفضل مانمتلك من ورش انجذت منذ فترة بناء سفن قوية جداً، والقادرة على حمل من سبعين الى ثمانين مدعاً. تلك هي الاضافات المتلاحقة السريعة لادارة منطقة واحدة من بين ثلاثة. وهي الاصغر بل الاقل اهمية بينها. والاثنتان الاخريان، ليستا بعد رهن الانهيار، فهناك خمسة ملايين من الرعية المسلمين وجيش منضبط

شجاع قوامه مائتي الف جندي، واسطول كبير يمتلك (٣٧٣٥) مدفعاً، وكل ذلك يكفي لكي نعتقد ان كل ذلك في خدمة الشركة والدفاع عنها.

تلك هي التحسينات التي انجزناها منذ خمسين عاماً. وذلك هو البريق الحالي لقواتنا مقارنة لما كانت عليه قديماً. ولربما تحمل تلك الصورة التي قدمتها طابع شعور عبشي بالغرور. ولكن ممتلكاتنا في الهند قوية في الوقت الحاضر. وعندما نستعرض قوتنا امام الجميع، يمكننا آنذاك اعاقبة اية موجة عدوانية ضدنا. وتتفق بذلك تلك الامال الخادعة لاعدائنا الذين لن يجرؤوا على مهاجمتنا خاصة اذا ما شاهدوا استعدادتنا للدفاع عن انفسنا. فقد كان اجيال الهند دائماً املاً واهياً لطموح مجنون. ولكن لكي نجعل نجاح طموح كهذا من ضروب المستحيل؛ لايكفي ان نحيط انفسنا فقط بتلك الاستحكامات والاسوار العصبية على الاعداء وضد الهجمات الخارجية، بل يجب ان نحذر كذلك من تلك ((الشرور التي تولد الفساد)). وان كنا لم نبدأ التحرك بعد، يعتقد البعض في القارة كلها اننا تحملنا الهوادج وتصاحبنا فرق الممثلين والراقصات. فلايمكن لنا ان ننكر اننا سمحنا سابقاً بوجود تأثير كبير لبعض اقسام الادارة التي صنفتها طبيعة ممتلكاتنا نفسها انها في المرتبة الثانية. وعندما تكون الوظائف المدنية من مصادر اشاعة الهدوء والطمأنينة، يمكنها ان تتحكم في استخدام القوة وفي غمرة اعتداتها نستطيع ان نحتقر الاستحقاق العسكري. ولكن اذا كان الحال غير الحال، يمكن ان يثير مثل تلك الادعاءات غير المسيبة استياءً خطيراً، او تعمل اول الامر على اشاعة الضعف وتنتهي بخنق الروح العسكرية التي احياناً ما تنطلق لتجاوز تأثيرات الترف او الفساد. لقد كان البرتغاليون يقاتلون بشجاعة فائقة لاتقاوم، حتى في ذلك الوقت عندما كانوا يقاتلون محمولين على محفات، وبقي لهم الشرف والفخر النبيل ومازال؛ كما انهم ما زالوا

يحتفظون بمكانتهم وكرامتهم، والحرس البريتوري^{*} العريق رغم مظاهر الضعف الذي انتابته؛ فانهم يعرفون مع ذلك كيف يتربكون فراشهم الحريري الاحمر الوثير، ومتعب الحمامات لكي يقاتلوا محاربي الدانوب والراين؛ فهم دائمًا فرق البريتوريين العتيدين العمالقة؛ هرقليلي^{**}اليوم. لم تطل اقامتي في بومباي حتى اتمكن من معرفة الكثير عنها. ومع ذلك ستحت لي الفرصة ان الاحظ انه حتى لو عاش المرء فيها منعزلًا اكثر مما يفعل في اي مدينة اخرى نمتلك فيها حامية، فان الحفاوة وكرم الاستقبال لا توجدان فيها دون فائدة. ولا يقيم السكان حفلات كبيرة فاخرة، الا ان استقبالهم لنا، لا يقل صراحة او اخلاصاً. وان مجرد توصية بسيطة تكفي غالباً العون والمساعدة التي يعودوننا بها عندما تكون في مزاج معتدل، والتي غالباً ما ينسون تقديمها..



^{*} صفة استعارها الكاتب عن الحرس البريتوري الامبراطوري وهم نخبة ذوى الشجاعة الفائقة وكانوا يسمون البريتوريون. وعندما يقول الحرس البريتوري فهو يقصد البرتغاليين هنا. [المترجمة]

^{**} صفة مشتقة من هرقل البطل اليوناني القوي المعروف. [المترجمة]

الفصل الثالث

الرحيل من بومباي، سواحل اليمن السعيد، مسقط، سكانها، بيع العبيد،
ظروفهم، رحلة في الداخل، خطر يفاجئ السفينة، السكان،
مناخ وتاريخ مسقط

في يوم السبت الثاني والعشرين من اكتوبر، تركت بومباي
وابعدت عن منطقة مازلت افكر غالباً فيها ويفترني شعور بالرضا
والاسف معاً. انها ارض غريبة تركتها لا عود الى موطنني، والى اهلي، الا ان
التعلق تجاه بلد اقمنا فيه خمسة عشر عاماً، الى جانب عذاب الفراق عن
اصدقاء جيدين عزيزين قد مارسا تأثيرهما على قلب تتنافز عليه مارة
الاسف وحلاوة الامل.

وجاء رحيلي فجائياً وغير متوقع، وكنت حريصاً على الا احمل سوى
الملابس الضرورية للرحلة، وسلاماً للدفاع عن النفس وحقائب لاتشير
الاهتمام وطعم احد، آملاً الا اواجه اي ازعاج في الطريق. وكنت قد اعددت
نفسى للمغادرة الاثنين القادم. ولكن كم كانت دهشتي كبيرة عندما اخبروني
يوم السبت الساعة العاشرة، بأن السفينة قد اقلعت، وخرجت من خيمتي
ورايتها تبتعد في الواقع عن الشاطئ، وقد افردت جمع قلوعها. ان الاضطراب
الذى شعرت به آنذاك يمكن ان يكون درساً ل المسافرين. واذا لم اكن مستعداً
من قبل لاي طارئ، فربما كنت الان اغض اصابع الندم على اختياري. ولم
تكن لدى لحظة لاضياعها، فجمعت اوراقي وشهاداتي التي اعدتها سلفاً
ورسائل التوصية، اخيراً كل ماكنت في حاجة اليه واحذت قارباً (بوندر)
لالحق بالسفينة التي مازالت تبتعد.

وتعود قوارب (بوندر) وملاحوها الى شركة نظامية يترأسها القبطان "Keys" ، كما ان سرعتها وهي تمخز عباب الماء، ومتانة بنائها، ومهارة وشجاعة بحارتها، تجعلها على الاقل مثل جميع المراكب المكشوفة التي رأيتها. وكان لدى الوقت لتأملها فأمامنا اربع ساعات على الاقل للحاق بالسفينة؟ وعندما وصلنا اليها غابت الارض تقرباً عن اعيننا، كما ان قائد السفينة كان كما يبدو قد كون فكرة خاطئة عن اهداف القارب الذي يطارد سفينته. وكان المسكين قد نسى كل شئ عن احد ركابه وعن التراماته تجاهه، وظن على ما يبدو اننا نحمل له برقية لم يكن راغباً في استلامها. ويبعد انه كان خائفاً من القانون ولم ير الاشارات التي ارسلناها له. وما ان اصبحت على ظهر السفينة قد دمّنني لرئيسه الثاني وهو يتمتم ببعض الاعذار على ذاكرته الضعيفة وارد مني ان ابرهن بأي شكل على ابني قد تصالحت ونسيت الامر.

وفي صبيحة السابع والعشرين، كان لدى كل الوقت لاتفحص السفينة، وتأمل ذلك الجمع الغريب المتنافر على متنه. لقد كان مركباً عربياً بحمولة (٣٥٠) طناً، يديره طاقم يتكون من خمسين بحراً، ويسافر على متنه تسعون راكباً. ومن بينهم ثلاثون ايرانياً اقوياء مفتولو العضلات ومشاكson. اما الباقون فكانوا عرباً، اتراك ويهود، وغربياء من جميع الرتب ومن كل الطبقات وجميع المهن التي يمكن تصورها. تجار، حاج ذاهبون لزيارة القبر المقدس في كريلاء، تجار خيول، جنود، شخصيات بارزة وعبيد. كانوا قد جاءوا من جميع الجهات الى بومباي وسوف ينشرون في ارجاء العالم مذاهبهم الخاطئة واحكامهم المسبقة، جنونهم وآمالهم الادعائية.

ويبدو "الفالنadar" او الكاتب وشخصان آخران تركيان متثقفين جيداً. ويبعد ان تلك الرحلة كانت لصالحهم لدرجة ان حوارهم اثارني

بشدة. هذا الى جانب تلك السهولة التي يتحدث بها احدهم الفرنسية. وحسب علمي حتى فان مظهره الخارجي وتصرفاته لا يوحيان كونه فرنسياً اصيلاً كما يدعى. ولم يكن هو الوحيد الذي اراه هكذا، فقد رأيت امثاله في رحلاتي، بل انه يدفع الى الظن بأنه اوربي متخفى. وينزل امثاله على سواحل بلادنا دون مقاومة، ويعبرون بلادنا بكل هدوء وطمأنينة كما المسافرون المسالمون.

لن اثير استياء قرائي وانا اصحابهم في تلك المنعطفات التي تحملناها بسبب جهل قبطاننا، لكنني ساقوهم مباشرة الى منفذ الشيطان حيث لم نصل الا في السابع من نوفمبر. وكما يقول البحارة، فان تلك التسمية قد اطلقت عليه بسبب تلك الرياح العاتية والزوایع التي توجد دائماً في تلك المناطق. ووفقاً للكاتب والتركيين فان تلك الرياح العاتية والزوایع، وما يصاحبها بعد ذلك من هدوء تام عادة، تحدث بسبب فجور وفساد السكان الذين يعيشون على سواحل تلك المناطق. ومن المؤكد ولستة ايام متواصلة، وبفضل ذلك الهدوء السائد، نجد انفسنا مع كل طلعة شمس واقفين في مدخل الخليج. وبدأت اخشى، كما فعل "السندباد" من قبل، ان نكون في ضواحي جزيرة مسحورة ولن يخرجنا منها الا تدخل "الجنية" الطيبة في حين كان التركيان يفكران بطريقة اخرى فهو منهم وكذلك صديقي الكاتب؛ يقولون ان سبب احتجازنا يعود الى خطايا وجرائم شخص ما بين المسافرين او من الطاقم نفسه. وتشير اليه يد النبي، وطالما انه لم يتظهر من ذنبه فلا امل مطلقاً باي خير قادم. واقتربوا وضوءاً عاماً شاملـاً. ويبدو ان تلك المحاولة قد نجحت، لأن هناك عربياً ويهودياً اختفي من على سطح الباخرة، في نفس اللحظة

* ابطال قصص عربية وعالمية. [المترجمة]

** شكل اسطوري لملك صغير يساعد المظلومين ويقدم دائماً الخير. [المترجمة]

التي هبت فيها النسائم العليلة. وتتحدث تلك الحادثة عن نفسها. يقول احد الاتراك بكل جدية وهو يداعب لحيته، ((انها مشيئة الله، وبأذن الله فقد هبت ريح طيبة. ربما كان الرجلان فعلاً سينات)).

تلك كانت الملاحظة الوحيدة التي اوحى اليه بها تلك الحادثة، التي نسيها الجميع في نفس اليوم، حتى انه قد نسيها اولئك الذين عملوا جاهدين على انقاذ الرجلين سيئي الحظ. ذلك هو الرجل!

وصلنا مسقط في الثاني عشر ظهراً، حيث رأينا هناك خمساً وعشرين سفينه صغيرة تحيط بالفرقاطة العربية "كارولين" التي تحمل اربعين مدفعاً. ورأينا في الخليج سفينتين انجليزيتين راسياتين، الى جانب وجود ثلاثين او اربعين سفينه تجارية تقوم بتحميل او بانزال حمولات التمر والملح والارز ومختلف انواع البضائع. ولأن سفينتنا كانت تهدف الى القيام ببعض العمليات التجارية، فقد تقرر ان نبقى في مسقط لبضعة ايام. وقد القى القبطان المرساة بالقرب من الشاطئ عكس ما اراده ملاحه، وقد اخطأ بذلك ليتلقى العواقب.

وتقع مسقط على الساحل الشرقي لليمن السعيد على خط العرض ٢٣°٣٨' شمالاً، وخط الطول ٥٧°٢٧' شرقاً في تلك المنطقة الصغيرة الخصبة جداً في عمان. ورغم انها كانت معروفة لليونانيين وللقارئ اريان، فقد ظلت تلك المدينة لا تتمتع باية اهمية حتى وضع الفرس ايديهم على هرمز عام ١٦٢٢، في فترة لجأ فيها اكثر السكان الى مسقط. ومنذ ذلك العهد، وبفضل موقعها على خليج آمن، اصبحت مسقط ميناءً مريحاً يمنح ارساءً جيداً، وكانت لها تجارة واسعة . ويكتفي للاقتناع بذلك، وجود ذلك العدد الكبير من السفن التجارية التي رأيناها عند مجيئنا. وها هي ارض العلم والادب امامي، والكثير من الاشياء التي تثير الاندهاش او

الاهتمام في متناول يدي كما يقال. لم ارد ان اضيع لحظة، اخذت قارباً وبعد بضع دقائق وجدتني على الساحل.

ها هي دائرة الجمارك، القصر وما يحيط به، الاسواق والشوارع الرئيسية المزدحمة بالعرب من جميع القبائل والواساط، باليهود والهندوس والبلوش والاتراك والافارقة. وجدتني آنذاك وسط جنس من الناس كتب عنهم: "يرفون يدهم ضد كل رجل، وترفع يدك ضدهم". الجميع مسلحون، العرب كل على نهج قبيلته فتراه يحمل بندقية قديمة او رمحاً. والبلوش، عرابة الاجساد حتى الخصر يحملون سكيناً او سيفاً مزدوج المقبض وضيق النصل. وها هو البدوي المتتوحش يتميز بمنديله على الرأس يحيط به وتنبته حبال السوط؛ وبردائه الحشن. انه قاطع الطريق الصحراوي تتعرف عليه في نظراته التاربة، وهيئته القلقة (اللوحة رقم ١). ويتعرف الاخرون على اولئك ذوي الرأس العاري والشعر الاسود الطويل يتطاير مع الريح، ربما لكي يُضفي ذلك عليهم مظهراً مخيفاً؛ انهم تلك الادوات المتتوحشة الذليلة التابعة لذلك المستبد وفي خدمة استبداده وظلمه.

هؤلاء هم من التجول بينهم. جميهم مسلحون، ولا يوجد من بينهم من لم يقم بعدة تصرفات عنيفة واعمال عنف وظلم آخر. ومع ذلك لم اواجه اقل اهانة. ولكنني التقيت ببعض العبيد الافارقة من يعملون خلف المدينة، وظنوا انني وحيد بلا حماية، فبدأوا بالتهجم المهين لاجباري على التخفيف من ذلك التصور. واظهرت فجأة المسدسات التي احملها في حزامي وكان ذلك كافياً لکبح جماح وقاحتهم. وكثيراً ما يقوم هؤلاء في ضواحي المدينة بسرقة الاجانب الذين يسيرون بلا دفاع. ولكنهم عندما راوني مسلحاً ومعروفاً لدى بعض المارة حينذاك، تركوني وعادوا الى عملهم. وما ان عدت الى المدينة طالبت أحد موظفي الشركة تزويدي بدليل وبمترجم لمراقبتي.



وقد زودني "غلام امونداس" Gulam Amundas بمترجم ودليل وواصلت معهما رحلاتي داخل البلاد نحو الظهر. وقمت بزيارة الاسواق، وكذلك قريتين في الضواحي، ومسجدًا سمحوا لي بكل سهولة ان ادخله على العكس من غيرهم من المسلمين. ولكن سكان مسقط من طائفة الاباضية (ويطلق عليهم السنة والشيعة "الخوارج")، كانوا من التأنيب واللوم). وأولئك السكان رحماء جداً، وكذلك فهم بسطاء جداً في عاداتهم ولا ينكر نميز وجود

فروق ولو قليلة بينهم وبين من يعتنقون ديناً آخر في السلوك او العادات. كما انهم لا يفضلون احفاد علي او "محمد علي" احفاد اية اسرة اخرى قديمة وعريقة. وعندما عدت في المساء، عبرت السوق حيث يقام مزاد لبيع العبيد ثلاثة مرات في الاسبوع. وكانت اجراءات البيع قد بدأت، وتوقفت لارى مشهداً كان جديداً بالنسبة لي على الاقل. وكان هناك عشرون او ثلاثون عبداً جاءوا بهم عبر الصحراء من سواحل زنجبار وتم رصهم في صفوف على جانب السوق حسب الجنس. ولم يكونوا يرتدون جيداً سوى حزام يغطي وسط الاجساد، والنظيفة والملساء كما يريد ذلك اسيادهم. اما المشترون فكانوا يتجلبون بين صفوفهم يفحصون ويلمسون اجسادهم وجلودهم خاصة من يريدون شراءهم. لقد كانوا يفحصون ادق التفاصيل في سوق النخاسة هذا لدرجة اني ظللت مشدودها فلم يكن لي علم بذلك، فالعملية تكاد تشبه فحصي لحسان او جمل اود شراءه. ثم ظهر عربي ضخم قوي من بين صفوف عبيده الذين يعرضهم للبيع، واخذ يتتجول مع صبي عمره من عشرة الى اثنى عشر عاماً وهو يصبح في صفاقة ووقاحة وصلاحه مهنته، معلناً عن سعره وعمره وطوله وسلامته وصفاته ((اربعين دولاراً)).

((اربعين دولاراً)), قالها لي بالهنديه عندما رأني اقترب. اربعين دولاراً وهو لك. لتطعمه او ليموت جوعاً، لكي يعمل او تقوم بتزييه كما لو كان ابنك. ((ارفع رأسك ايها الوغد)), صرخ قائلاً له. هل تحب ان ابيعك لهذا "الفرنجي"؟ انه ثري، وصاحب ثروة". نظر الطفل الي واخذ يضحك. وامسك بيده، ليعرضه بنفس الطريقة على مختلف الهوا. وقد اشتراه على ما اعتقد ، عربي مسن ذو فراسة وبصيرة يعرف كيف يختار الصغار الافارقة ويشرفهم. كدت ابتسم وانا اشاهد ذلك الفحص المعمق الشامل الذي اجراه، ولولا سنه لكان يمكن ان يكون موضع شك. وبعد ان جعلهم يفتحون افواهم، كانت طريقة في فحص اسنانهم تدل على معارفه الواسعة

بذلك الموضوع، والتي تفوق في شموليتها وعمقها معارف خبراء الخيول في منطقة (كونت يورك). وقد اخبروني بان اسنان النسوة قد تم بردتها لظهور مدبة وهو مظهر جمالي، زينة كما تعتبره النساء، ولكن ليس بالنسبة للعرب الذين يربطون شكل اسنانهم هذا ببعض الافكار التي يستقونها من القصص، وانه قد تم تشویهها لأنهم من أكلة لحوم البشر. وهذا حافز قوي لعدم شراء هؤلاء النسوة المسكيّنات. ويمكن بالطبع لموضوع كهذا ان يستثير بالطبع بعض الملاحظات حول وضع العبودية الحالي ونتائجها في البلاد الاسلامية التي قمت بزيارتها. ولكن، وقد سُنحت لي بعد ذلك فرصةً متقاربةً ومؤاتيةً للحكم على مصير العبيد الذين يعملون خدماً في المنازل، وسلوك اسيادهم تجاههم في مختلف الظروف. ولن استغل كوني كاتباً، واتشارك في موضوع يتطلب جميع معارف الخبرة. ومن المؤكد ان العبيد في مسقط يعاملون بانسانية تُشرف عوالمنا. اما العمل الاكثر ايلاماً الذي يقومون به هو ادارة القوارب الصغيرة. وهم يعيشون في منازل اسيادهم. يتناولون نفس الطعام ويشاركونهم شرابهم، ولن يتعرضوا بعد ذلك مطلقاً للعرض في سوق النخاسة لبيتهم، وسوف يحدث ذلك فقط في حال قيامهم بتصرفات سيئة. واذكر حالة ثدلاً على مايقوم به السيد تجاه عبده المخلص الطيب، فعندما افلس سيده واضطر لبيعه، اراد قد تنازل عنه لصديق مُقرب، الذي اظهر له احتراماً اكبر مما ابداه له صديقه، وذلك بسبب وفائه وتفانيه.

ولاني لم اكن اعرف ان اقامتنا يمكن ان تتد، قررت استغلال كل لحظة ولا اهدى وقتني. وبعد ان قمت بزيارة الامام، تجرأت وتولدت داخل البلد مصحوباً برفقة كان في وسعي الحصول عليها بسهولة، وذلك لكي استطيع رؤية الحدائق الكثيرة وعيون المياه الساخنة الطيبة التي سمعت عنها كثيراً. قمت بالاجراءات التمهيدية لذلك. واحبني الهندي البراهمني ان الدليل والحسان والذى ستكون افضل حماية يمكنني ان احظى بها.

وفي صبيحة الرابع عشر، صعدت على متن سفينة، مرتديةً ذلك الذي جلب لي احتراماً واهتمامًا كبيرين، لم يكن الناس معتادين ابداً عهتموا تجاه تلك الفئة من قبطانين السفن التي تتواجد كثيراً عادة في تلك السواحل المقفرة، ولم يكن صعباً علي ان اصل الى الامام، وافسح لي رجال معيته مكاناً، واصطحبوني الى حيث يجلس الامام مُحاطاً بمساعديه وعبيده. وكان "سيد سيد" (وذلك اسم الامام) رجلاً في متوسط العمر، وذا مظهر محترم وسلوك بسيط دون ادعاء. وكان واضحـاً انه يعلم انني ضابط انجليزي، وكذلك دوافع رحلتي، لانه بعد ان شرفني بالقيام لاستقبالـي، وجه الي بعض التكريمات المعتادة في مثل تلك الظروف، ثم قال انني لست اول ضابط انجليزي يستقبلـه في مسقط، وردد على اسماعيـلي حينذاك جميع من رأهم سواء لدى حضورهم لبلادـه او مغادرتها الى انجلترا. بل طلب مني في حماس ان احدثـه عن اخبارـهم مما يُدلـل على اهتمـامـ حقيقيـ. وعرضـ عليـ بعدـ ذلك خدماتـه ورددـ الكثيرـ من المديح لبلادـي ظنـاً منهـ انـ ذلكـ يـدـغـدـغـ كـبـرـائـيـ. ولكـيـ يـسـتـعـرـضـ كذلكـ سـعـةـ مـعـلـومـاتـهـ حولـ طـبـيـعـةـ وـسـيـادـةـ قـوـتـناـ الـبـحـرـيـةـ، بلـ وـلـكـيـ يـظـهـرـ منـ جـهـةـ اـخـرىـ صـورـةـ كـبـيرـةـ عـلـىـ اـهـمـيـتـهـ؛ لـانـ الرـجـلـ وـجـبـ عليهـ انـ يـكـونـ مـمـيـزاـ اـلـىـ جـانـبـ اـدـبـهـ وـ مـدـنـيـتـهـ. وـعـنـدـماـ لـاحـظـ اـنـيـ اوـدـ الانـصـارـ لـكـيـ اـحـقـ تـلـكـ الرـحـلـةـ التـيـ اـفـكـرـ بـهـ دـوـمـاـ، جـدـدـ لـيـ عـرـوـضـهـ لـتـقـدـيمـ الخـدـمـاتـ دـاعـيـاـ لـيـ بـالـصـحـةـ وـالـحـمـاـيـةـ الـاـلـهـيـةـ وـالـتـوـفـيقـ خـلـالـ رـحـلـتـيـ. وـطـلـبـ منـيـ انـ اـخـيرـ الشـرـكـةـ بـاـنـيـ التـقـيـتـ بـهـ وـاـنـهـ يـبـعـثـ بـاـحـتـرـامـهـ وـتـقـدـيرـهـ للـسـيـدـ جـورـجـ شـاهـ زـادـهـ.

وعندما ذهبت لرؤية البرهاني، وجدهـهـ يـتـحـثـ معـ اـثـنـيـنـ اوـ ثـلـاثـةـ منـ العربـ. وقدـمنـيـ لـاحـدـهـ وـهـ يـقـولـ لـيـ بـاـنـهـ يـمـكـنـ انـ يـكـونـ دـلـيـلـاـ لـيـ، وـقـالـ اـنـيـ اـسـتـطـعـ اـعـتـمـدـ عـلـيـ كـلـيـةـ كـمـاـ وـقـالـ اـنـيـ اـسـتـطـعـ اـعـتـمـدـ عـلـىـ اـخـلـاصـهـ، وـطـلـبـتـ مـنـهـ اـحـضـارـ ثـلـاثـةـ خـيـولـ لـمـدـةـ ثـلـاثـةـ اـيـامـ، مـقـابـلـ عـشـرـينـ

قرشاً. وذهبت لتبديل ملابسي في الوقت الذي ذهب فيه لانجاز ذلك. وحين عاد، رحلنا وبدأنا احدى الرحلات الريتية المملة والمعيبة، التي يمكن ان يقوم بها اي رحلة. توغلنا في ضواحي مسقط، حيث لازع، ولا ضرع، ولا شجر ولا احراش فيما عدا بعض اشجار التخيل بالقرب من آبار المياه الباردة جنوب وغرب المدينة. ولكنما توغلنا داخل البلاد، كلما رأينا ان الاراضي جرداء وغير خصبة قاحلة، ولم اجد احداً استطاع حتى ان اتكلم معه. ودليلي رجل عربي آخر يتحدث معه يبدون مندهشين جداً لدرجة اتنى لم افقه شيئاً مما يقولون.

وعلى بعد عشرة اميال، وجدنا انفسنا فوق ارض عالية مرتفعة جداً. ولم يكن يجب علينا نسلق تلك التلال الجرفية الصخرية الوعرة، مما اخر مسیرتنا كثيراً حينذاك. ورأينا من بعيد بعض الاکواخ البائسة والخيام المبعثرة هنا وهناك على الجانبين. ووصلنا قرية صغيرة حيث رأينا بعض النساء يعملن في الهواء الطلق، مكشوفة الوجوه. وما ان رأينا هربين بسرعة وهن يصرخن بكل قواهن: اللصوص! اللصوص!. يبدو اننا لم نقدم لهن مظهراً مريحاً مطمئناً؛ فرفيقاً على اقل تقدير، يقدمها مظهرهما الخارجي وبامتياز عضوين في عصابة من قطاع الطرق. وانني لا عترف مع ذلك، بان تلك المبالغة في التشكيك بنا، لم توح لي بفكرة مناسبة تماماً عن حسن ضيافة تلك القبيلة. وفي الواقع، فرغم ان زيارتنا غير مخطط لها، فان تصرفاتنا لا تعلن اية نوايا عدائية. كما ان عدتنا صغير جداً لكن يوحى بوجود اسباب عادلة للخوف منها. ومهما كان الامر، فقد دفع ذلك النساء للاحساس بالخطر. ولكي نقتنع ان الخجل احد صفاتهن حتى وسط تلك الصحاري الموحشة. وبدلنا جهداً كبيراً لابتلاع تلك الاهانة. وانتظرنا ان يستجيب البعض لصراخهن. وسرعان ما حضر بعض الرجال، وبعد محادثة قصيرة حصلنا على الاذن بالترجل لكي نستريح.

لقد قضينا اربع ساعات في الطريق، رغم قصره، ولان النهار قد ازف على الانتهاء، توقعت بالطبع اننا سنقضي الليلة في تلك النواحي، ولربما يقدمون لنا بعض الطعام لاستعادة قوانا، ولكنني اخطأت في امنياتي. فلم يقدموا لنا شيئاً ولا حتى كوبأ من الماء لارواء عطشى. ويبدو ان حاجة كذلك لم تكن لتهم اصحابي او ان يحسوا بها. وطالما اراهما يعاملانني كأنني اصم اخرسا، ويعبران بالاشارات معى. ربما لخاد من يستضيفوننا او لعدم معرفتهم التعبير ربما، فتوجب علي اذن التزام الصمت ومجاراة الوضع حتى لا يكتشفوا كوني اوربياً.

وبعد توقف لساعة قضيناها في العراء، قام رجل كبير السن بمرافقتنا سيراً على الاقدام وكان الليل قد تقدم كثيراً. وكون لغتي تتكون فقط من بعض الكلمات الانفرادية، لا استطيع ان اعبر عما اريده سوى بمقطع واحد او كلمة واحدة. والنتيجة لا يمكنني ان اسأل عن الوقت الذي تستغرقه تلك المغامرة غير المريةحة. ولم اكن اشك ابداً في اخلاص دليلي، ولكنني اعترف انه مع تقدم الليل، بدأت اندم بشدة على القيام برحالة واجهت فيها مثل تلك المضائقات دون ان اتمتع برؤية اي شيء يمكنه ان يُعرض علي ذلك التعب الذي سببته لنفسي باختياري. وتبعنا طريقنا خلال ست ساعات اخريات. وها انذا، اكاد اموت جوعاً وعطشاً، بل اكاد افقد شجاعتي حتى وصلنا الى قرية افضل قليلاً وحيث سنقضي الليلة كما اخبرني دليلي بالإشارة. لقد تفاضلت عن الغذاء، وعن العشاء وافترشت الارض القاسية الجرداء امام مبني كبير مربع الشكل، يقال انه يعود لامام مسقط.

وفي صبيحة اليوم التالي، حاولت افهم دليلي وانا اردد نفس المفردة مشيراً الى فمي، ان يحصل لي على بعض الماء وبعض حبات التمر. ولكي اكمل وجبتي، قدمت لي سيدة مسنة قطعة كيك سوداء من

الارز لم ار ابداً مثيلاً لها. وقدمت لها قرشاً بدلاً منها ولكنها رفضت. وسمحت لي اضواء النهار ان ارى انتا فعلاً في قرية كبيرة. وكان ان هناك حوض ماء امام المبنى الذي عسكرنا بجواره، يغذيه نبعان قريباً من الماء، وتحيطه بعض اشجار النخيل وبعض اشجار الرمان التي اعطت للمكان اسم الحديقة. انها تلك الحدائق التي حدثوني كثيراً عنها بكل هذا التفاصيل. وقد اشربت فضولي تماماً حينذاك، وحاولت بالاشارة افهم دليلي انني لم اعد اريد ان اكمل الرحلة. وحتى لا اترك في نفسه ادنى الشكوك حول ما اريد بدأت العودة سيراً على الاقدام. ولم نسلك نفس الطريق الذي سلکناه سابقاً، وقطعنا الطريق الاقصر في ثمانی ساعات. وبسبب الحرارة الشديدة اثناء النهار السائدة منذ يومين لم استطع ان آخذ سوى فترة قصيرة من الراحة. وعند عودتي من هذه الرحلة المشؤومة، كان التعب قد انهكني تماماً.

ورغم عدم نجاحنا في تلك الرحلة، عدت في السادس عشر من الشهر. وحاولت ان اتوجه الى جهة اخرى لولا ان هبت آنذاك عاصفة قوية. واذ كنت ارى ان امكانيات قبطاناً ضئيلة، لربما اخر عودتي الى السفينة، وخوفاً من ان ينسحب الى عرض البحر، ويتركني مرة اخرى وراءه؛ اعطيت دولاً الى احد القوارب كي يقلني. وبعد محاولتين خاسرتين استطعنا الاقتراب من السفينة ووجدها في حالة مؤسفة جداً لدرجة انني كنت لا افضل البقاء على الارض؛ اذا ما كنت قد استطعت ادرak العواقب الوخيمة مقدماً والتي يمكن ان يتسبب في حدوثها إهمال قبطاناً. وغرق قبطاناً كثيراً كما لو كان قد جُنَّ تماماً وآخذ ينعي حظه العاثر ونهايته القريبة، في حين انتا وسط بحر عاصف سحب السفينة نحو قمة صخرة كادت ان تؤذى مقدم السفينة. وما كان لنا ان نتوغل كثيراً لندرك خطورة الوضع. وتوجهت نحو مساعد القبطان الذي كان

يُدخلن غليونه في عدم اكترااث واضح معروف بانه من صفات البحارة الحقيقيين؟ وطلبت منه ان يقول لي رأيه حول موقفنا. وانني اعترف ان برودة ذلك الرجل كانت كافية لكي تمنحنا بعض الثقة. على العكس تماماً من قبطانه الغارق في الخوف. اجابني بان الوضع لا يبعث على الخوف او اليأس، فمر ساتنا سحبتها الامواج وانغرست مرتين او ثلاث ثم انغرست تماماً في الارض. وزيادة على كل ذلك، اضاف قائلاً بان تلك ليست اول مرة تغرق سفينه فيها امامي، ولم يكن رأيه هذا، من بين آرائه الاخرى، من افضل ما يريحنا. وبعد لحظة، سمعناه يصيح قائلاً: ((لقد انغرست المرساة اخيراً في الارض، لقد تم انقاد كل شئ)). وسحب الرصاص والحبال، وهرع الى مؤخرة السفينه في فرح واهتمام لا يوازيهما الا لامبالاته التامة ساعة الخطر.

لقد نجينا من خطر محقق، ولكن قلقنا لم يتبدد بعد، بل استمر طيلة الليل. ولكن مع طلوع الفجر، هذا البحر الهائج وتوهجت الشمس بكل روعتها وعم المدود كل شئ. واثناء النهار، عاد اكثر الركاب الى السفينه وتم اتخاذ جميع الاجراءات للالقاء.

وقبل ان اترك مسقط وددت تبيان ان تلك المدينة كبيرة ومرموقه بفضل كونها مستودعاً گمراكياً رئيسياً لتجارة كبيرة متداولة: ولكن صادراتها الخاصة تتكون من التمور، ليس متازة النوعية، وسبعة او ثمانية الاف صندوق من البن، والكريات والاصباغ، وعدد صغير من الخيول والجمال وقوالب الفضة التي تقاييس بها بضائعنا الهندية. وهناك الكثير مما يدفعنا لاتفاق وجهات النظر تجاه سكان مسقط، فالنشاط والحيوية تسودان الحياة، وموجات الاجانب القادمة والمغادرة، كل ذلك يجعل المدينة تبدو اكبر مما هي في الواقع. واذا ما اردنا ان نقدم حكماً صادقاً على المدينة سنعود الى عدد سكانها الذي يبلغ ثلاثة الفاً بما فيهم

الاجانب المقيمين بها، هذا الى جانب ارتفاع وعدد منازلها. واذا ما قدرنا تعداد سكان (موتور Muttura)، وهي منطقة كبيرة بثلث سكن المدينة اي عشرة الاف نسمة، والقرى المحيطة بها بربع سكان مسقط، سيصبح تعداد سكان مسقط ومحيطها سبعة واربعين الف نسمة وهو رقم يقارب المعلومات الموثقة التي استطاعت الحصول عليها.

وفي الاعوام ١٦٥٠ قام البرتغاليون بتحصين المدينة حيث اقاموا لثلاثين عاماً خلت. ويُقال في الخارج انها مدينة منيعة جداً. ولكن اذا اخذنا بالاعتبار المرتفعات المحيطة بها، سنرى ان مدعيتها لا يمكن ان تهاجم باستمرار فضعف امكانياتها وعلو الابنية بشكل عام والروابي التي تحدثنا عنها جعلت الدفاع عنها مستحيلاً حتى لو كانت المدفعية التي تحميهم قد تكون في احسن حالاتها. فالمدينة والمباني بشكل عام تبدو هزيلة رغم كونها مركزاً هاماً لتجارة كبيرة والسفن التي تتوارد على المدينة ويتدفق عليها اناس من جميع مناطق شبة جزيرة العرب وعلى مينائها، واسواقها المفتوحة المليئة بمختلف اشكال البضائع، وتقدم كلها فكرة واضحة عن رغد العيش والرفاهية الواضحة. اما بالنسبة للمناخ، فليس الحرارة فيها اعلى منها في بومباي في هذا الفصل من السنة، اذ تبلغ الحرارة فوق سطح البحر ٨٢ درجة، وفي الخليج ٨٦ درجة، وفي المدينة ٩٠ درجة. ولكن درجة الحرارة تزداد في يولية واغسطس لدرجة لا يستطيع احد التجول في شوارع المدينة. اما الحدائق فتنتज من الفواكه الشمام، والعنب والرمان، وهي فواكه يمكن ادراجها في الدرجة الاولى من حيث جودتها ومذاقها الشديد الحلاوة وخاصة الرمان الذي يطلقون عليه فاكهة الجنة. ولنذكر الوصف الذي قدمه الشاعر الشيرازي للرمان في وديان بلاده واقول انه عندما قال ذلك لم يذق ابداً رمان مسقط الذي يفوقه مذاقاً وحلوة.

وعندما بدأت قوة البرتغاليين في الاقول في الشرق استولى العرب على المدينة تحت امرة الامير "يوسف بن علي"، امير (نورن فاي Norm Vae)،

و قضى تماماً على الحامية باستثناء بعض الجنود الذين اشهروا اسلامهم. ومنذ ذلك الفترة ظلت المدينة حرة ولكن لفترة من الزمن في ظل حكم "نادر شاه"، والذي استغل الخلافات القائمة بين السلطان بن مرشد والامام سيف بن سلطان، واستطاع الاستيلاء على المدينة بواسطة حيلة قام بها قائد قواته "ميرزا تاسكي خان"، وقام الفارس الماكر الذي كان مجرد مساعد، بدعوة الامام الى حفل ما، وعندما رأى ان مشروب شيراز قد بدأ يفعل فعله استطاع بخفة ان يسرق ختمه ورثمه به امراً يقضى بتسليميه قلاع المدينة. ومع ذلك لم يبق الحكم الفارسي طويلاً فقد ثُوّقَ المتنافسان بعد وقت قصير، ثم جاء "احمد بن سعيد"، حاكم (سوهار Sohar)، وطرد الغراة عن طريق نفس الوسيلة تقريباً؛ ثم قام رفاقه بتنصيبه على رأس الحكومة اعترافاً بجميله حيث خلصهم وحررهم من نير الاجانب.

واتخذ سعيد بن سعيد، الابن الثاني لذلك البطل مقراً له قرب شاطئ البحر قصراً كان قد انشأه كاتدرائية الحامية البرتغالية. وكان هذا الامام مستقلاً تماماً عن الباب العالي، تماماً كما فعل امير مكة والوهابيون في ذلك الجزء من بلاد العرب، رغم عدم تساوي الحصتين لأن سعيد بن سعيد لا يتمتع بسلطة كاملة على امارة عمان. ويُقال انه يستطيع ان يجند سبعة الاف رجل لاى معركة حيث جزء منهم من البلوش ورجال السند². وتعبر القبيلة التي يحكمها قوة بحرية، اذا ما سمح لنفسي استخدام تلك المفردة. وت تكون تلك القوة من الطراد كارولين ذي الأربعين مدعاً المجهزة جيداً، وسفينتين كبيرتين كانتا ملكاً للشركة، الى جانب امتلاكها خمساً وثلاثين سفينة تجارية من الدرجة الثانية.

² Voyez Voyages dans le Belouchistan et duns la Sindhy, par Henry Pottinger; traduit de L'gures, 1818, vol. inm-8, avec carte et figures, a la meme librairie.

الفصل الرابع

تمرد في السفينة، هرمن، جزيرة قابي، القراصنة القواسم، قسوتهم،
الوصول الى بوشهر، تأريخ وتجارة تلك المدينة، جزيرة كارك، صيد
اللؤلؤ في جزيرة البحرين، الوصول الى البصرة

غادرنا مسقط في الثامن من نوفمبر، وانقضى يومان ونحن نمخر
عباب البحر. وما لبث ان اندلع تمرد على سطح السفينة، وكنت في غرفتي
وسمعت الكثير من الضوضاء، ولم اعرف السبب. صعدت الى السطح
ورأيت مساعد القبطان يتشارج مع جمع من العرب والفرس من ركاب
السفينة، في حين يطالب القبطان صارخا باعطائه السيف. ولكن
استطعنا فض الشجار بمساعدة البحارة دون اراقة一ة دماء لحسن الحظ.
ثم بعد ذلك، عرفت السبب: يبدو ان بعض الركاب الفرس اصطدموا مع
بعض البحارة حيث حدثت مشاجرة صغيرة بينهم، وقاموا في الحال
بمعاقبة من اهانهم. وقد اراد مساعد القبطان ان يتصدى لذلك، اندفعوا
نحوه وارادوا ان يذيقوه نفس المصير. وحين وصلنا نجحنا في فك
الاشتباك وعاد كل الى عمله. وقضوا ليلة في الحجز؛ مما خفف من غضب
هؤلاء المستبددين الصغار. وفي صبيحة اليوم التالي توسلوا طالبين العفو
في لهجة ذليلة ضارعة.

بنكهی زین

وفي الحادي والعشرين، بعد ان مررتنا بجزيرة واطئة، صخرية:
انها هرمن، مقبرة التتار، (الارمازيا L'Armazia) والاورموزيوم
(L'Ormuzium) مما شكل قوة دول القدماء. وتلك العجائب ومظاهر الترف،
التي عاصرت تلك الحقبة من التأريخ البرتغالي المجيد. وترتبط بشدة

بشهرة أولئك البحارة الاولئ الذين شقوا بجرأتهم الطريق الذي نتبعه اليوم منذئذ حتى لا تفوتنا فرصة زيارة تلك الجزيرة. انه واجب الرحالة، ان يسجل في صحفه التغيرات التي يسببها الدهر وتقلباته التي تتحملها المدن دائماً بل وكذلك الامبراطوريات. ففي القرن الحادي عشر وعلى جزيرة (كوميون)، الواقعه بين التلال الجرداء، ارسى احد الغرّاة العرب مرساته ليؤسس بناء مدينة اصبحت فيما بعد عاصمة الامبراطورية. كما انها اصبحت ميناءً ومستودعاً لتجارة تدور بين الهند وبين اقاليمها. وفي ذلك العصر، كانت تعتبر المدينة الافضل للإقامة فيها، اكثر من اي مدينة شرقية اخرى. ويزورها تجار من جميع انحاء المعمورة حيث اقاموا فيها حياة تعتبر مبارزة للترف والعظمة. "نساء جميلات من جميع اطراف آسيا، متعلمات ومنذ طفولتهن فن تنويع متع الحب الشهوانى، يستعرضن انفسهن مجتمعات امام انظار الاجانب يأسرونهم بابتسامتهن ويبقين عليهم في غمار الملذات الفاتنة المغرية. حتى هواءها تراه مفعماً بالروائح الجميلة الاخاذة. وتغطي الارض اثمن انواع السجاد. تلك كانت مظاهر العيش المترف في مدينة هرمن، كما هو الحال في المدن الشهيره، لكنها اليوم اصبحت الى ما كانت عليه قديماً قبل كل ذلك: قرية فقيرة على هضبة مقفرة جراء، بها بعض العشش، وبعض العرب القراء واطلال تتحدث عن عظمة قديمة، ذلك ما نراه اليوم في هرمن، نعرف تاريخ سقوطها وايقاع انحدار عصرها. وقد غزاها "البوکويريد Albu querequd عام ١٥٠٧ واستعادها "الشاه عباس الكبير" ملك فارس، وكان ذلك في ٢٥ ابريل (١٦٢٢). وبعد تلك الفترة هجرها اثرياؤها الى مسقط، وسواحل بلاد العرب حيث نقلوا اليها جزءاً من تجارتها.

وفي الايام التالية، واجهتنا دوماً الرياح المعاكسه، والتقيينا بنزورتين للقراصنة بجوار جزيرة قابيل، حيث يتجمعون. ولم نشعر بالخوف هذه المرة، ولم يتجرأوا على مهاجمتنا، ومن ثم واصلنا طريقنا بسلام. ولكن

ذلك لا يعنينا ان اذكرهنا ان ذلك الامر سئ، ويضر بكرامتنا الوطنية وباللقب الذي يطلق علينا كما اسياد للبحار، عندما نسمح لمثل اولئك المجرمين ان يفسدوا الملاحة في البحار، بل ومواجهتنا علناً في بيئتنا ومحبيتنا. فهم لا يعترفون باية قوانين، ولا توقفهم اية اعتبارات الى جانب قسوتهم الوحشية، اذ يكونون خطأً فاصلاً لا يمكن تخفيه بينهم وبين الامم المتحضرة مما يعمل على فقد الثقة واثارة الاشمئاز. ومع ذلك، يجب ان نعرف ونحن غارقون في الخجل، اتنا نرسل لهم الوفود، ونعقد المعاهدات مع برابرة يقومون برصد قواتنا، حتى يستفيدوا بعد ذلك من عدم وجود المخاطر. وعندما تندلع حرب ما، تحت شعار مبادئ معينة معروفة للدول المتحضرة بشكل عام، تراهم حينذاك يقدمون ضماناً لامن وثقة متبادلة. ولكن عندما نرى اولئك البرابرة يذبحون جميع السجناء ويقطعون اوصالهم فان ذلك دليل ضعف بالطبع، بل انها مساهمة من قبلنا في جريمتهم وهي اكثر كثيراً مما لو قمنا بانتقام مدو لمثل تلك الفظاعات.

ويتكون قراصنة الخليج من مختلف القبائل العربية. واهم تلك القبائل القواسم من رأس الخيمة المرتبطين بشدة بالوهابيين. وهي حركة كانت معروفة من قبل، ولكن حكومتنا ابتدت نفوراً من محاريتهم او القصاص منهم. ومن هنا كان استغلالهم لذلك الموقف وتحصّنوا به. ويُقال ان اسطولهم يتكون من ستين سفينة كبيرة، ومن ثمانمائة الى تسعمائة سفينة اصغر منها، وتحمل تلك السفن على متنها من ثمانية عشر الى تسعمائة عشر الف من الرجال. ويعود هؤلاء القرصنة الى حقبة زمنية موغلة في القدم: منذ عصر الامبراطورية الملك- القرصان^{*} الذي

* انا ترجمت هذه الجملة كما هي موجودة في النص الاصلي، رغم انني اود الاشارة الى ان الكاتب ربما سمع الكلمة خطأ وخاصة انه يكتب مذكرات رحلة وليس بحثاً علمياً ليتأكد من كل شئ قبل ان يكتبه. وبالنسبة للملك الذي يطمع في كل سفينة قد وردت في

كان يستولى على آية سفينة يطمع فيها: وكان معروفاً قبل خروجه من مصر. (كما يقول قرآن "ابن هنكل Ebn Hankal". وتعود اصول الوهابيين^٣ من بين آخرين الى منطقة نجد، وحيث حاول مسيلمة^{*} ان ينشر مبادئه من قبل، وهو منافس لمحمد. انهم رُبُّوا نفس الشعب الذي يسمى "المبيضين" او كما يسميهم الفرس "الصفد - امهفينس Les Sufid- Imehghien" الذين كانوا قد يَدِيماً اتباع الحكم بن هاشم "AL-Hakem Ebn hashem" الذي كان العرب قد يَدِيماً يسمونه "المقعن" و"البركي" Borkai او النبي المُقعن. ويقال عن تلك الطائفة التابعة للحكيم ابن هاشم ، النبي، وهم من المرتدين الى اليهودية^{**} "Les proselytes" وعاشوا في ظل حكم الخليفة المهدى العباسي. لقد استطاع ان يجمع منهم عدداً كبيراً جداً في مناطق (النخشب Le Nakhschab) و(كيش Kasch)، وكان يوحى للناس بان الالوهية قد سكته وانها انتقلت اليه من آدم عبر العديد من الانبياء الذين ظهروا في الفترة التي تفصله عن آدم. واصبح قادرًا وقوياً جداً. وعندما تيقن انه قد حوصل بجيوش الخليفة، قام بدس

القرآن الكريم في هذه الاية الكريمة ((... اما السفينة فكانت لمساكين يعملون في المدينة وكان ورعاهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً...)). [المترجمة]

³ Voyages de Niebuhr.

* مسيلمة، عاش ونشر مبادئ دينه في حضرموت في اليمن بعد وفاة النبي محمد (ص).
** كان المقعن واسمه عطاء او حكيم، رجلاً قصيراً اعور قبيح الوجه. كان يلبس قناعاً من ذهب ولا يظهر ابداً الى اصحابه بدون القناع. وقال بتناصح الارواح، واتبعه الكثيرون. وزعم ان روح الله كانت في آدم ولذلك سجدت له الملائكة، ثم تحولت الى سخيف ثم الى نوح ثم الى ابراهيم ثم الى موسى ثم الى عيسى ثم الى محمد بن الحنفية على ضعاف العقول. وبعث الخليفة المهدى اليه في طلبه الا انه هرب وتحصن في قلعة كش. وبث الدعاة يقولون بانه يحيى الموتى وارسل المهدى اليه جيشاً وحاصره فاعطى السم لزوجاته وابنائه وشرب هو كذلك ووعد بانه سيعود الى اتباعه ويلكمهم الارض ويسمون بالمبيضية. [المترجمة]

السم لنسائه وأولاده ومحظياته، واسعٌ ناراً كبيراً والقى جثثهم فيها، ثم اندفع فيها بنفسه وهو يعد اتباعه بعودته. وكان ذلك في العام ١٦٣هـ.

وقد قام قراصنة الخليج، وفي فترات مختلفة بالتضييق والتأثير على تجارة البرتغال وعلى تجارتنا وكانت بعض سفنهم تحمل على متنها اربعين مدعاً وثلاثمائة رجل. وفي العام ١٨٠٨ استولوا على الطراد التابع للشركة المسمى "السيف Le Sylphe"؛ وكذلك على سفينة الملحق الفارسي في مفوبيتنا وكان على متنها. قتلوا الطاقم وبعض سبئ الحظ الذين أصبحوا ضحايا بربريتهم، في حين استطاعت سفينة صاحبة الجالة "لانرييد La Ne're'ide" الهجوم على سفنهما واغرقتها وانقذت البعض منهم بعد معركة قصيرة عنيدة.

وبعد قليل هاجموا السفينة "La minerve" التجارية وكان يقودها القبطان "هوب گود Hop good". وهاجمتها سفن اسطول يبلغ عددها خمساً وخمسين سفينه وزورقاً، تحمل على متنها خمسة الاف رجل. وبعد ان اطلقوا عليها المدافع من بعيد لمدة يومين، نجح العرب في الصمود على متنها. وكانت نتيجة المعركة تبلغ من الفخامة درجة لا يمكن تصورها او تكون لدينا الشجاعة للحديث عنها. اما القبطان الذين غطته الجروح، ولا يستطيع الوقوف او انقاد السفينة اعطي مسدسه لمساعدته طالباً منه بل امراً اية بالذهب سريعاً الى "سانت بارب La Sainta Barb"، وان يفجر السفينة حال صعود العرب على متنها. واما مكان قد نفذ ذلك الامر، لكان ذلك شرقاً كبيراً لذكرام، واية مكاسب لجميع البحارة الشجعان الذين كان يمكنهم ان يقدموا آنذاك مثلاً رائعاً على الشجاعة والبسالة الانجليزيتين. ولكن ما ان نزل مساعد القبطان الذي لم يكن يفكر الا في سلامته، هرب ليختبئ ولم تجد نفعاً اية مقاومة، واستولى القراصنة على السفينة تماماً.

وحيذاك وبدم بارد بدأت مذبحة رهيبة على يد هؤلاء البرابرة المتواشين مصحوبة باحتفالية تستخدم اليات الخراقة مما يضفي الفظاعة والوحشية على ذلك المشهد المرير. واستخدمو الماء والعطور والصلوات لتنقية المركب واقتادوهم في سلاسلهم مقيدین، الواحد تلو الآخر وكانوا يقطعون رقباهم ذبحاً بالسكين وسط صيحات الفرج ونداءات الله اكبر! الله اكبر! لا الله الا الله! واعتبروهم اضحيات! ولم يتبق سوى رجل واحد مثخن بالجراح، لم يتمت بعد وانزلوه في اقرب ميناء لكي ينشر خبر تلك المذبحة المريرة.

وفي العام ١٨٠٩، نفذ صبر حكومتنا، فقد توقفت تماماً تجارتنا لضياع قيمتها المتوالي على يد هؤلاء القرصنة. وارسلت الحكومة حملة تحت امرة القبطان وينرایت "Smith" و العقيد "Wainright" ونزلت قواتنا في اراضي راس الخيمة، وحطموا ثلاثة وخمسين سفينة من اكبر سفنهم، وهو جمت مواطنهم وقابلوا كل ذلك بمقاومة عنيفة، وعلى وجه الخصوص منذ الهجوم على شیزار والتي كان اللواء "عبد العزير Abdul Uzzir" يدافع عنها. انهم لم يوافقوا حتى على تخصيص مكان يقيم فيه سجناؤهم اي اسراهم، اذ انهم لا يتلقون امراً من اعدائهم. ولكن عندما تحطمت اسوارهم، وتعطلت مدعيتهم تماماً، كان اقل ما يصرون على فعله هو الدفاع عن انفسهم. وعندما وجدوا انفسهم مُجبرين على تسليم انفسهم، رفضوا ذلك، بل اخذوا يمطروننا حيذاك بقنابلنا وقد ائننا التي القيناها عليهم والتي لم ينفجر. ومع ذلك باعت جميع محاولتهم الغاضبة البربرية وغير المنظمة بالفشل الذريع امام قواتنا. وقد اشر الدرس الذي لقناه ايام تأثيراً وقتياً، فقد تسبب في شلل كامل لنشاطاتهم خلال بضع سنوات تلت تلك الفترة. كما انه من اسباب ذلك الفشل ايضاً نقص الخشب اللازم لبناء السفن؛ ولكن مثل

ذلك الشلل في النشاط والحركة لا يتناسب وطبيعة تلك القبائل العربية.
ولذلك بدأوا في العام ١٨٦٦ حملة من السلب والنهب كان من الضروري
قمعها ووضع حد لها بالقوة.

لاتثير اية رحلة بحرية الكثير من الاهتمام، فهي محصورة في حدود
ضيقه ولا يمتلك الانسان منظوراً سوى البحر والقبة الزرقاء. ولا توجد
تسليه لقضاء ذلك الوقت والعيش الرتيب العيشي الذي لاطعم له بل
ومُجبرين على التعايش معه. ومع ذلك لم يكن لهم ذلك الامر كثيراً في ذلك
الظرف، حيث واجهتنا نذر كثيرة بالخطر، والكثير من المضايقات
والمخاطر التي لم يكن ليتقابلاها فارس المانش^{*} وما كدنا نتخلص من
الخوف الذي تسببه الصخور، والتمرد، والقراصنة، حتى استيقظنا
صباح الثامن والعشرين على صيحات القبطان طالباً ان نستيقظ لكي
ندافع عن انفسنا والا سنتم ابادتنا. ولم يدع مثل ذلك النداء مجالاً
للتفكير او التقاط الانفاس، وكان لدى فقط الوقت لكي اترك الفراش
وابحث في الظلام عن سيفي ومسدساتي حتى فتح باب غرفتي واندفع
رجل نحوه وبهذه سيف قد جرد وهاجمني في غضب شديد. وتمكن
لحسن الحظ من تجريده من سلاحه، ولكي اكتشف حينذاك انه كان
قبطاناً الذي فقد عقله تماماً، فهو يتصور دائماً ان هناك من يهاجمه
واعطاناً ذلك الانذار. ولأن تلك المشاهد تتكرر، فقد اضطررتنا لحبسه.
واخيراً وصلنا الى بوشهر في الرابع من ديسمبر، وعندما وجدت انا
سنبقى فيها بضعة ايام، قررت ان اقضى بعض الوقت في التجول بين الاسواق
وزيارة بعض النواحي المحيطة، وجمع المعلومات حول تاريخ المدينة.

* يقصد الجندي الانجليزي. [المترجمة]

لقد كان تاريخ فارس القديم معروفاً تماماً، اكثراً مما نعرف عن تاريخها الحديث. ولكن جهلنا به كان قبل أن يكتب عنه الجنرال "مالكوم Malcolm" سفيرنا لدى بلاط فارس وبما عرف عنه من مواهب معروفة عن ذلك الموضوع. لقد جاء جنس آخر من الملوك ليخلف امبراطورية حكمها من خلف "سيليكوس نيكاتور Seleucus Nicator"، واعلن الحرب على اباطرة الرومان حيث كانوا يتجرعون الهزيمة تارة، ويفرحون بالنصر تارة أخرى. ولكن وبفضل التغيرات الكبيرة التي سببها نجاح دعوة محمد قام احد الاتراك ويُدعى "تانغروليبيكس Tangrolipix" بتأسيس مملكة، في حين اسس اخري "تربي" ويُدعى "اولاهمون Ullah kan" ، او لاخان Tamas Koulikan والصفويين، وبعد وفاة "تاماس قولي خان" وقد خلفتهم اجناس اخرى من التركمان عادة "نادر شاه" الذي كان جنراً بالجيش، ثم خلف على العرش اخر ملوك تلك السلالة: وغرقت المملكة في الفوضى لدرجة اصبح فيها من الصعب جداً الحفاظ على نظام ووتيرة تتبع الملوك في الجلوس على العرش او حتى تاريخ جلوسهم. وظهر كثير من المتنافسين مرة واحدة في ذات الوقت، وتم الاعتراف بالبعض واستبعاد البعض الآخر، وذلك استناداً لتأثير ما يمكن ان يُحدثه نجاح مؤقت لا شخص وعلي اي حال، استطاع محمد حسن خان احد فرقائه المتنافسين ورئيس قبيلة قاجار، استطاع الاستيلاء على السلطة التي مالبث ان انتزعها منه كريم خان. وما لبث احفاد محمد حسن خان استعادتها وما زالوا يحتفظون بها للان: وذلك لأن اغا محمد خان، نجله الثاني استطاع ان ينتزع العرش من لطف علي خان، اخر واكبر الذين خلفوا كريم خان، وجلس على العرش الملك الحالي وهو الابن الاكبر لأخيه والذي قتل على يد التركمان.

وتستحق فترات حكم "كريم خان"، ولطف علي خان، ان نهتم بها على وجه الخصوص بسبب صلاتهم غير المباشرة بتاريخ بوشهر. فمثلاً كريم خان، قاطع طريق من اصول كُردية، كان يتميز بشجاعة فائقة. وقد هزم محمد حسن خان وقضى عليه واستولى على العرش، ولكن امراء تلك المملكة اجبروا على التخلّي مؤقتاً عن شرف اعتلائهم العرش. وتقع بوشهر على شريط ارضي ضيق في اقليم فارستان، وتعتبر واحدة من تلك الدول الصغيرة المستقلة التي اسستها العرب على الساحل الشرقي للخليج الفارسي واحتفظوا بها بشكل عام. وكان كريم خان منشغلًا بمحاولات اضعافها وتدميرها. وقد وصلت دولة بوشهر الى اعلى درجات العظمة والنفوذ والازدهار في ظل ادارة الشيخ نصر، حاكم بوشهر ونجله. وبعد وفاة كريم خان قام ابنه لطف علي – الملك الفارسي – باعادة ابن الشيخ نصر الى العرش الذي كان قد تخلّى عنه.

ومازال العرباليوم يتحدثون عنه باجلال، وعن عظمته وكرمه، وكيف تُكن له الحب لدرجة الاصطدام جميماً تحت رايته، عندما تظهر تلك الادوات والاواعية التي يوجد بها علامة على ظهور بوادر الحرب، اي تلك الادوات التي كانت تستخدم اثناء التحضير لتلك المآدب الفاخرة التي كانت تقام ويتحدون عنها. وكان هناك حفيدان لذلك الحاكم، عبد رسول ومحمد رسول، يطمحان في الجلوس على سدة الحكم. ولكنهما لم يلجاوا الى تلك الشحناء العنيفة غير المألوفة التي تقسم الاسرة الواحدة في الشرق، وكان ذلك في الوقت الذي نزلنا فيه الى بوشهر، ويبدو ان الحفيدين قد توافقا على ان يحكم كل منهما فترة وهو ما حدداه في واقع الامر. وذلك لانه هو في حقيقة الامر الذي القى القبض عليه في تلك الفترة التي عمل فيها "سير هارفورد جوتر Sir Harford Jones" في بلاد فارس سفيراً، وانهم قد قادوه اسيراً الى شيراز وتحمل مختلف اشكال الاهانة والاذلال.

لقد أصبحت بوشهر بسبب طبيعة ومركز حكومتها ملحاً لمشاهير اللاجئين الذين عاكسهم القدر واجرتهم صدمات الحياة المختلفة على ترك اوطانهم. من هؤلاء الكبار السيد "عبدالله اغا" و"السيد سيد علاوي"، على وشك مغادرة بوشهر الى بغداد وذلك في نفس الوقت الذي وصلنا فيه. ويتحدث كذلك عن زوجة الوزير الثاني في الامبراطورية، والتي كانت من قبل ارملة السيد حاجي خليل خان، السفير الايراني السابق، والذي كان بدوره احد هؤلاء اللاجئين في بوشهر والذي لقى حتفه مع الاسف في بومباي. ومن تصاريف القدر كذلك، شاهدنا لاجئاً آخر، وكان ملكاً في يوم من الايام. ما زال يعيش حياة بائسة وسط المدينة ويعيش من ممارسته للطب البيطري رغم فقدانه البصر. والسبب انه تعرض لتمرير قضيب نحاسي ساخن على عينيه. ومع ان الشيخوخة قد انهكته فما زالت حكمته ورجحان بصيرته لافقة للنظر ولا يمكن تصور ذلك. وكان يعرف باللمس، ويُدرك بمجرد سمعه حركتها، اي الخيول يشتري.

وتتمتع تجارة بوشهر، الميناء الرئيسي لبلاد فارس، تتمتع باهمية تصوی.. فالي جانب حاملات الطائرات المختصة بالمراقبة، والسفن الحربية الكبيرة المتواجدة في الميناء، والطرادات العربية الصغيرة المتواجدة هناك دائماً، الى جانب كل ذلك توجد في زيارة سنوية للميناء عشر او اثننتي عشرة سفينة كبيرة كذلك، لممارسة الاثارة تحت العلم البريطاني. وكانت الواردات تتكون من رزم من الاقمشة الخشنة ذات الالوان الغامقة، ومن الاقمشة الخضراء والزرقاء الازمة للباس الفارسي، ومن مختلف البضائع في سورات ومن البنغال؛ من التمور والبن والارز والاسلحة، ويقدم الاهالي في المقابل سبائك الفضة، الحرير من يزد وكاشان والحرير الاحمر من گيلان، وسجاجيد اصفهان، والصوف الناعم من كرمان، والراوند من بخارى، والفواكه المسکرة المحفوظة. واستناداً

على تلك التجارة الواسعة الكبيرة كنا نتوقع ان نرى مستوى من الفخامة والبذخ في المبني والأسواق، ولكن على العكس رأيناها في بوشهر اقل منها في مسقط والبصرة. ولا نرى هنا سوى اثنى عشر او خمسة عشر منزلاً لا تلتف انتظارنا، الى جانب خمسين منزل من الحجارة الصغيرة، وستة مساجد واربعة فنادق وعدد كبير جداً من الاكواخ. ويبلغ تعداد سكانها اثنى عشر الف نسمة. ويحيط بالمدينة سور قديم عليه اثنى عشر برجاً متهاوياً لن يفيد شيئاً في حال وقوع اي هجوم.

وفي اواخر ايام اقامتنا في المدينة تألفنا جداً على مصير شابة جميلة في السادسة عشر من عمرها كانت تتبع مع احد المسيحيين. وتلك جريمة يُعاقب عليها القرآن بالموت. اختطفوها عنوة، واقتادوها طيلة الليل لتلقى مصيرها، وحيث ينفذ فيها مطاردوها الحاذدون حكم الاعدام الذي يرتاؤنه. وتنعني هنا اسباب خاصة عن الخوض في التفاصيل.. ولم ارد ان افوت تلك الحادثة لأنها تقدم صورة لعادات هؤلاء العرب المقيمين على الساحل. اما في فارس، فان حادثة كتلك يمكن ترتيبها وانهاءها بدفع غرامة مالية ليست كبيرة عادة الى الحاكم المدني.

وفي يوم رحلينا، وفي اللحظة التي كنت اهم فيها ركوب السفينة، احتك بي واحد من هؤلاء المسافرين الذين قادتهم تصارييف الحرب او العقلية المتقلبة للقرن الى تلك المناطق البعيدة. وقد حاول ان يظهر بمظهر لائق مرموق، وان ظروفاً قاهرة سرية قد اجرته على التحفي المؤقت، واعترف بعد ذلك وفي فرنسيية رديئة، بأنه كان سجينناً روسياً ويود العودة الى وطنه، عبر البصرة او بغداد ولكنه لا يمتلك المصارييف اللازمة لتحقيق ذلك. وتلك قصة معقولة ومالوقة فنحن نلتقي بالكثيرين من امثاله المساكين. ولكنني رأيت من بين من معه كثيراً من الدجالين من حيث المظهر واختلاف وضعهم اكثر مما يدعون. كما انني رفضت

التحدث مع القبطان بشأنه والآخرين، والذي ما كان ليستقبله مع ذلك بدون موافقة المقيم الانجليزي، ووجدت نفسي على متن السفينة وسافرنا في الحال. وتعتبر تلك الجزيرة شيئاً هاماً في تاريخ رحلات السفن الاوروبية في الشرق، مثلًا تلك الفائدة التي جناها البارون "كينيب هاوزن Kiniphausen" المقيم الهولندي في البصرة، ومن موقعه على مصب شط العرب.

وكان جُرد من املاكه حيث اعتبرت فدية له، واصبح معدماً ولم يتبق له سوى نشاطه وغضبه، ولجاً بعد ذلك الى جزيرة كرك مع خمسين من رجاله المخلصين. ومنذ ذلك الوقت اصبح يخلق اما التجارة التركية، ووجد الاتراك انفسهم مجبرين على ان يعيدوا اليه ممتلكاته، بل ومنحوه بعض الامتيازات التجارية التي كانت مرفوضة له من قبل.

وكانت تلك الجزيرة تعود قديماً الى البرتغاليين، وما زالت هناك آثارهم شاخصة تتحدث عن بقائهم بالجزيرة وعن عقيدتهم الدينية على الرغم من الاندفاع لتدمير رموزهم تلك. وقد ذكرنا من قبل، اهمية موقعها الذي يتحكم في تجارة بوشهر والبصرة وبغداد، وفي نفس الوقت الذي تتحكم هرمز بدورها في تجارة الخليج الفارسي، وكل ذلك مع تفوقنا الكبير في البحار. فنحن لو كنا وضعنا في كل جزيرة حامية صغيرة، وكانت تجارتنا تسير على اسس متينة واكثر تقديرًا مما هي عليه اليوم. بل نجد انفسنا اليوم تحت رحمة عبيد ارزال، من صفاتهم الواقحة والصلف. ولو كنا نتمرّكز في مثل تلك المواقع، لكان شعارنا تجاه دول الخليج ((فليكرهونا ولكن يرهبوننا))^{*}، ولكن في استطاعتنا زيادة تفوقنا حتى لدى بلاط فارس، وسيكون بمقدورنا لوحظ ذلك الابقاء آنذاك على تأييد تلك الدول لسياستنا، او مساندة طموحاتنا

* Oderint dummetuant وهو مثل لاتيني اوردته الكاتب بمعنى يكرهوننا ولكن يخافوننا. [المترجمة]

كلما تسمح لهم الظروف بطلب ذلك في حينه. ونحن وقد وصلنا الى تلك المكانة المهيأة المثيرة لغير الكثيرين، فلم نمارس مع ذلك نفوذاً يرقى لمستوى تفوقنا البحري في البحار. وقواتنا رغم مكانتها المعروفة، لم تقدم لنا اية فائدة وذلك بسبب تلك السياسة اللاابالية تجاه ابشع قراصنة تلك السواحل. وليس الامر بافضل من ذلك، عندما نُسرف في تقديم الهدايا لبلاد فارس، والذي يعتبرها ضريبة يجب ان تؤدي لذلك البلاء.

وتحتفل تماماً سياسة الروس في الخليج تجاه الدولة الفارسية. ويستمد الروس قوتهم مستفيدين من جميع نقاط الالقاء ويملون القوانين لذلك. ويحدث كل ذلك في الوقت الذي كنا نشق فيه في الوعود الخادعة والتي اثبتت الاحداث عدم جدواها. ولكن النجاح كان بشكل ما في متناول ايدينا وفي حاجة فقط لخطوة واحدة لتصبح قوتنا راسخة متماسكة لا تتزعزع. اتنا اقوى، ونتمتع بتقدير واحترام كبارين بسبب سلوكنا ووضوح سياستنا. اكثر مما كان يتمتع به البرتغاليون والهولنديون حتى في ذلك الوقت حين كانت اساطيرهم المنتصرة تخرب عباب مياه الخليج. وعندما كانت تتحدى السودانيين والفرس والاتراك. ولم يتبق امامنا الا تقييم تلك الافضلية التي تتمتع بها لكي نتأكد من نفوذنا وخاصة في فارس، ذلك النفوذ الذي سيعمل على توطيد اسس ومديات الامبراطورية التي اقمنا دعائهما.

واما ما ترکنا جانباً موقع جزيرة كرك، فهي تشتهر باسطورة تركها البرتغاليون وراءهم: آثار تدل على قيمهم الحربية وتطرفهم الديني. واستناداً على تقليد شعبي، فقد أصبحت احدى كنائسهم مقاماً مقدساً لـ(پير محمد)^{*} ابن علي، بنى الفرس والطائفية الشيعية - فهناك الصليبان

* پير محمد، الابن الاكبر لـ"علي ابن ابي طالب"، من ام غير فاطمة، وكان دائماً يحمي الحسن والحسين، بأمر من والده اثناء المعارك. ويلقب بـ(النفس الذكية) ويُقال انه لم يمت وانما اختفى وسوف يعود يوماً. [المترجمة]

واللوحات المرسومة وغيرها من الشواهد التي تدلل على التوجهات السابقة الأولى لبناء كهذا. فقد كان ذلك المكان دائمًا مزاراً مقدساً، حيث تغيرت فقط الأسماء والاحتفاليات. وللوصول إلى تلك الكنيسة أو ذلك المقام، يجب على المسافر أن يقطع ممراً طويلاً، أو يمر في قناة تحت الأرض كان قد تم تأسيسها قبلًا في الأصل لتمويل المدينة بالمياه المستخرجة من جبل في مواجهة المدينة. كما ويبدو من طبيعة ذلك المبني ورفاه جزيرة كرك، أن ماضيها كان أفضل مما هي عليه الان. كما وان هناك في جنوب الجزيرة، كهوفاً منحوتة في الجبل، لا يقدر سكانها صورةً مُشرقةً لعادات وحضارة ذلك الجنس الذي يعيش فيها. اراني اقدم تفاصيل كثيرة عن تلك الجزيرة لأهميةها وللمنافع والمميزات التي كان يمكننا الحصول عليها بسبب موقعها الجغرافي. اما القلعة الرابضة لحماية مرسى السفن، فهي مشيدة تقريباً بالحجارة. وفي كل زاوية من زواياها الاربعة، يوجد بروز، كما توجد حفرة امام باب المدخل من جانب البحر، يمكن ان تُشيد عليها بطارية مدفيعة ذات الاثني عشر مدفعة. ولكنها اليوم تتهاوى الى انقاض وتحتاج الى الكثير من عمليات الترميم.

واستمر صعودنا في الخليج الفارسي، ولم نتوقف امام ايّة جزيرة اخرى هامة سوى امام البحرين الشهيرة جداً بصيده اللؤلؤ، الى جانب بعض آبار الماء العذب المنعش في قاع البحر، يقوم الغطاسون بسحب المياه منها على بعد معين. ونحن لانستطيع الحديث اليوم عن صيد اللؤلؤ، فقط عن الاشاعات حول مختلف اشكاله واحجامه والتي هي متوفرة وبشكل دائم. وعرفت ان تلك الالالى اجمل واكثر استدارة من الالئ سيلان، ولكنها تفقد لونها سريعاً، كما ان قيمتها قد انخفضت بشكل واضح في السنوات الثلاثين التي تبعت تلك الكمية التي اصطادوها، ولم تعد هدفاً للتغيرات.

وصلنا البصرة في الحادي العشرين، واستقبلني المقيم الانجليزي الدكتور "كولكيهون Colquhoun" بحفاوة كبيرة في تلك المدينة، البصرة. لقد كتب الكثيرون الكثير عن البصرة، لكنني استرسل انا بدوري واكتب عنها. لقد كانت مبانيها في غاية السوء، والمدينة في غاية القذارة، ورغم جوها ومناخها المضر بالصحة، الا انها كانت تمارس تجارة واسعة. ورغم الخراب الذي خلفه الطاعون في المدينة، فمازال عدد سكانها ثمانين الفاً. ويسود العرب فيها لكثرة عددهم، وثرותهم، ونفوذهم ويعمل البعض من اصحاب الاملاك من ثمانية الى عشرة الاف رجل. وهؤلاء العبيد مخلصون لسيدهم ولكنهم غير منظمين او بالآخر فوضويون. ولنا ان نتصور موقف الحاكم التركي "مُتَسِّلِّم" وكيف ان ذلك غير مريح بالمرة. ومع ذلك استطاع ذلك الحاكم بواسطة الف من الجنود من كل الاجناس تكوين شرطة مقبولة في الداخل حرمت الملك الكبير في الداخل وجهاً لوجه ضد بعضهم البعض، كلما لاحت له فرصة للقيام بذلك. ولكن خارج الاسوار، فكلمة الامن غير معروفة، والبدو يحكمون الصحراء ويحتفظون باستقلالية يتمسكون بها منذ زمن بعيد.

ويقال ان البصرة تعود اصولها الى احد اباطرة الرومان، كما انها مسقط راس امبراطور روماني آخر يدعى فيليب العربي. ويخترق المدينة خليج صغير ويقسمها، ويحيطها سور قبيح من الطين. اما دفاعاتها فبعض النتوءات البارزة المستديرة فوق السور. وتغطي البساتين وغابات النخيل جزءاً كبيراً من مساحتها البالغة ثمانية الاف متر مربع. وتشغل المنازل تقريباً نصف تلك المساحة فقط. ولكنها رغم تلك المساوئ، ورغم مساحتها الكبيرة وضعف اسوارها، صمدت المدينة مرتين امام امبراطور فارس، ولم تقع في ايدي كريم خان، الا بعد حصار طويل وعنيف. وقد اسعدني الحظ اثناء اقامتي في البصرة بلقاء بعض

مواطني، الدكتور كولكوهون، المقيم الانجليزي في البصرة. وكان الدكتور يمتلك من اربعين الى خمسين حصاناً عربياً اصيلاً من اجمل ما رأيت من خيول. وتفضل مشكوراً باعارتنا البعض منها لدرجة اتنا استطعنا تمضية وقت طيب بالمدينة. فقد كنا نقطع الصحراء ونقرأ ونذهب للحمامات. وقد تم تحذيرنا من الخروج فرادى للقيام بتلك النشاطات خوفاً من تعرضنا للاهانة او المضايقات. وعلى الرغم من عدم مثولنا لتلك النصيحة الحكيمه، والذي كان الحرص يتطلب ذلك، الا ان اهالي البصرة لم يوجهوا لنا اية اهانات او مضايقات، والتي اعلنها كلمة حق صريحة لصالح اهل البصرة. اتنا لم تلق اية اهانة، وانما الاحترام والمساعدة. وربما ان ذلك ليس هو الحق نفسه في مدن اخرى في الشرق، وهي اشارة لا تعني الكثير في حد ذاتها، ولكنها تدلل على الاحترام الذي يكتبه اهل البصرة للانجليز.

انتا نعرف حرص المسلمين عامة على الا تتنكشف نساؤهم امام الغربنة. وقد ذهبت ذات يوم مع احد اصدقائي الى الحمام وكان الازدحام شديداً، ولكن القائمين على الحمام اقتادونا في الحال الى قاعة خاصة مخصصة للنساء وكانت هناك خمس او ست نساء. ورغم صيحاتهن، فقد تم اجلاؤهن بسرعة لكي يستقبلوننا. واز شعرت بعدم الراحة من تصرف بهذا، فقد كانت النساء في لباس خفيف. وطلبت من احد الخدم ان يترجم لهم اتنا نرفض ذلك التكريم الذي حاولوا اظهاره لنا. ولكن الجواب كان مصحوباً بالكثير من الاعتذارات بان صالة الحمام تحت تصرفنا في اي وقت نشاء، حتى ولو كانت نساء البصرة جميعهن في حاجة الى الحمام. وحقيقة الامر اتنا ندفع لقاء تلك الخدمات اكثر من غيرنا. ومع ذلك لا اعتقاد انهم يظهرون مثل ذلك التأديب المبالغ فيه لغيرنا.

ولدى عودتي الى البصرة، كان المقيم الانجليزي قد اخبرني باستحالة موافقة رحلتي تلك لوقت طويل بسبب الاضطرابات السائدة على الطريق. وقد تم تعيين باشا جديـد لـبغدادـ. وبـما انـ الـباشاـ القـديـمـ لمـ يـكـنـ مـسـتـعـداـ لـلتـخـلـيـ عـنـ مـوـقـعـهـ، فـقدـ اـتـخـذـ قـرـارـاـ وـكـذـلـكـ الـبـاشـاـ الجـديـدـ باـسـتـدـعـاءـ قـوـاتـهـمـاـ وـذـلـكـ دـفـاعـاـ عـنـ حـقـوـقـهـمـاـ. وـلـايـكـادـ يـوـجـدـ قـتـيلـ مـنـ هـذـاـ الجـانـبـ اوـ ذـاكـ. وـكـمـاـ هـوـ الـحـالـ فـيـ الـبـلـادـ كـلـهـاـ مـنـ الـبـصـرـةـ إـلـىـ بـغـدـادـ، سـوـفـ يـعـلـنـونـ الـوـلـاءـ لـاـحـدـ اـوـلـئـكـ الـفـرـقـاءـ الـذـيـ يـمـكـنـهـ مـنـ لـحظـةـ لـأـخـرـىـ انـ يـمـسـكـ بـزـمـامـ الـاـمـورـ. وـبـالـنـسـبـةـ لـيـ لـمـ اـجـدـ لـدـيـ سـوـىـ الـاـنـشـغـالـ بـتـمـضـيـةـ وـقـتـيـ فـيـ جـمـعـ الـمـعـلـومـاتـ عـنـ بـلـادـ الـعـربـ، وـعـنـ الـعـرـبـ وـعـادـاتـهـمـ وـالـمـارـسـاتـ فـيـ تـلـكـ الـبـلـادـ، وـهـيـ مـعـلـومـاتـ سـتـكـونـ مـوـضـعـ الـفـصـولـ الـقـادـمـةـ.



الفصل الخامس

رحلة في شط العرب، حديقة عدن، رحلة عبر الصحراء وبين البدو
استغرقت ثلاثة اسابيع، قبيلة المتنف، بلاط الشيخ محمد،
نزاع لدى الشيخ ابراهيم

وفي السادس عشر من يناير ١٨٤٧، اخبرني السيد كولكوهون، انه يجب ان يرسل رسائل هامة ضرورية الى بغداد، وعرض على مرافقة المراسل اذا ماكنت مستعداً للسفر فجأة هكذا ووسط ذلك الزخم من الاضطراب و الفوضى، والذي تحدثت عنها سابقاً ومازال. وطالما انه كان من المستحيل التكهن بنشوبيها فقد سُرت لذلك العرض وقمت بسرعة بجميع الاستعدادات للسفر في اليوم التالي.

وفي السابع عشر، وبعد ان ارتديت الزي العربي الذي اشتريته، ورتبت حقيبتين من القماش حيث وضعت نصف دزينة من القمصان، واللباس الرسمي، وسجاده وغطاء وكذلك بعض الاوراق، ومن ثم ذهبت لدى المقيم حيث التقى على آغا دليلي الجديد. وكان يبدو انه السيد ولكنني عاملته دوماً كما اعامل الخادم. كما كان المراسل على آغا، تركي الاصل في الخامسة والاربعين من العمر، ولكنه يبدو اكبر بعشر سنوات بسبب الحياة التي يحياها. ولكن قوته البدنية غير اعتيادية، ونشاطه مُفرط، ويبدو انه صامد امام جميع المتابعين التي تتسبّب بها مهنته. وهو يشرب كثيراً ويتناول المشروبات الروحية، الى جانب الاف الاموال التي يقطّعها وكتمانه الشديد للاسرار، و المعارف الواسعة العميقه بالعالم. والتي اظن انه يعني الطريق من البصرة الى بغداد.

وبما ان علي اغا، سيلعب دوراً كبيراً في الجزء الاول من هذه العلاقة، وجدت من الواجب تقديمها حسب الاصول الى القراء. وكانت اولى اوامرها لي في بداية الرحلة هو تجهيز كمية كبيرة من الاغذية والكثير من المشروبات، وهو لا يمانع في ان استخدم جزء منها ولن يتدخل في ذلك، واخيراً ان اكون مستعداً للرحيل في الساعة الخامسة. وعندما ظهر هو، كانت الساعة قد جاوزت الخامسة، وكان يرتدي بنطالاً واسعاً على الطريقة التركية، صعد حتى ابطيه ويحتفظ به بواسطة حزام من جلد البقر يحمل من الامام ثلاثة مسدسات كبيرة وعلى ظهره يحمل بندقية صغيرة وسيفاً وخنجرأً على جنبيه. وبعد القيام ببعض التجهيزات الالزمة ذات الطبيعة المهابة، وهي اقل ما يمكن ان يقوم به اي رجل ذو اهمية على مايبدو، اوضح انه في غاية الاستعمال واننا يجب ان نرحل في الحال والا سيفوتنا الجزر. ولم اهتم كثيراً بسلطنة لسانه، شعرت بانني يجب ان اترك تلك المائدة العاملة الرائعة التي اعدها لنا المقيم، لكي اعبر الصحراء ومعي قطعه من البسكويت وماء موحلاً مما كان بالطبع يشكل اهانة جسدية وعقلية معاً لاتخلو من اثارة الحساسيات. ولكن توجد ظروف يجب ان نتخلى فيها عن الضروريات، واستأنفت من مضيفي واسرته والذين تمنوا لي سفرة سعيدة.

وركبت قارباً ضيقاً جداً مع المراسل وخدامي العربي. وما ان مر قاربنا الصغير امام الحائق الصغيرة، حيث كان التركي الشري يدخن غليونه في بلاده ويشرب قهوته، قام رفافي بتوديع معارفهم ومختلف اصدقائهم ولم يستطعوا الافصاح عن المكان المقصود الا وتسمع الدعاء المتواصل لهم باذن الله وانشاء الله. وقال رجلي التركي لبعض الدراوיש⁴ ((نحن ننوي الذهاب الى بغداد، نرجو ان تدعوا لنا بنجاح الرحلة)). ثم توجه

⁴ انظر اللوحة رقم (٢).

الي قائلَ: ايها الفرنجي، لقد اعطيتهم بعض النقود، ولكن يجب مضايقة
المبلغ ثلاثة مرات لكي اتخلص من الحاهم، ولكنني لاحظت ان رجلي
الغريب الاطوار هذا كان متفاهماً معهم.



وكان الليل قد ارخى سدوله، عندما وصلنا الى الجمرك، الذي كان
على بعد ميل او ميلين من بيت المقيم الانجليزي، ونزل المراسل التركي على
اليابسة بحجة اكمال اوراقه، وبقيت وحدي في القارب اتأمل مُفكراً في هذه

الرحلة الغريبة التي ساقوم بها، وفي المغامرات والمشاكل التي يمكن ان اواجهها. وكان المساء رائعاً وكانت هناك قوارب عربية كثيرة تمر بالقرب من قاربنا. ومن وقت لآخر كنت انادي على المراسل التركي والذي كنت اميز صوته وسط اصوات كثيرة متداخلة بضحكات عالية تأتي من الشاطئ. وعندما اسمع جواباً، فهو يردد انه اكثر مني رغبة في الاسراع بالرحيل ولكن يجب عليه ان ينتظر انتهاء اكمال اوراقه. وبعد ان يئست في مناداته عدة مرات دونما فائدة، غلبني النعاس وغرقت في سبات عميق.

ولكنني افقت في صباح اليوم التالي على صوت انفجار هائل هز قاربنا ومحا في لحظة جميع احلام الليلة. ووجدتني وحيداً، اذ كان المراسل وخادمي وطاقم القارب قد تركوني ونزلوا الى اليابسة. ناديت ولم يجبني احد. وما كدت استفيق حتى دوى انفجار ثانٍ وثالث، وقد عرفت فيما بعد انها طلقات المدافع التي تعلن طلوع النهار. وايفظ الانفجار البحارة الذين كانوا نائمين على الشاطئ، واخبروني ان المراسل التركي قد شرب حتى الثمالة في مساء اليوم السابق مع اصدقائه الدراويش، لدرجة انه لم يعد يستطيع تحريك قدميه، وانه امضى ليلته في الصحراء. وعندما عاد، قمت بتأنيبه على سلوكه هذا، ولكنه انفجر ثائراً واخذ يكيل السباب للعرب الذين اتهموه كذباً. واعتراض وهو يُفرغ كأسه انه لم يكن سكران مطلقاً بالامس.

وفي الساعة الخامسة، مررتا امام قبر المهدى صاحب الزمان، احد احفاد الرسول. وقد توفي قبل الف سنة، ولكن الناس ما زالوا ينتظرون عودته على حمار وحشي عبر الصحراء ليسيطر على ممالك الارض ويحكم العالم. وعلى مرمى البصر رأينا مئذنة عالية تشير الى قبر "علي ابن الحسين"، ابن اخ علي الكبير^{*} وهو بدوره من احفاد الرسول.

* اي علي يقصد ياترى؟! [المترجمة]

ورسونا في تلك المنطقة من النهر لكي نقوم بطيء بعض الطعام، ولكن كدنا ان ينقض علينا بعض العرب الذين كانوا يتضاحون ويرمون علينا الحجارة. ولكن وفي لحظة، أصبحنا بعيداً عن متناول ايديهم. فقد كنت طلبت من احد بحارة القارب ان يبقى بعيداً ليراقب الطريق فاعطانا الاشارة باقترافهم فركبنا بسرعة وانطلق القارب بعيداً.

وفي التاسع عشر وصلنا القرنة عند التقاء دجلة والفرات، والتي خلدها التاريخ اذ تعتبر حدود الوادي الخصيب حيث يقيم ابونا المشترك، او باختصار جنة عدن. ويُشكّل التقاء النهرين خليجاً كبيراً مُتسعاً في منظر فريد ومثير. ولكنني على اي حال لم ار شيئاً في القرنة يشير الى وجود تلك الجنة الارضية الموهوبة للانسان قبل سقوطه. فالاشجار قليلة الى جانب بعض المزروعات التي يمكن رؤيتها. يمكن ان تسمى جنة وسط هذه الصحراء القاحلة المظلمة الموحشة. وبشكل اخر فهي ليست سوى مستنقع مغطى بالاعشاب وبعض اشجار النخيل، ومن خمسين الى ستين كوكحاً بائساً.

وفي القرنة استقبلنا بعض الاتراك والعرب الذين يعملون لدى حاكم البصرة. وهم يقومون بجباية العوائد. وقد قدموا لنا صورة مخيفة مبالغ فيها للاخطار التي يمكن ان تصادرها على الطريق الى بغداد. ولم يأت رجلي التركي جهداً في زيادة الاخطار التي يفترضها والتي اثارها حديثهم. وقال ان جميع الضواحي مليئة بقطاع الطرق وانه يجب في كل الاحوال قضاء الليلة على متن احدى السفن التركية الموجودة في تلك النواحي، فهو المكان الوحيد الذي سوف تشعر فيه بالامان. وقررت الذهاب املاً في امكانية استئناف الرحلة صباح الغد. ويبدو القبطان التركي في الستين من عمره ويوحي مظهره بالاحترام. وقد استقبلني بكل الاهتمام والرعاية التي يمكن تصورها.

قادني الى غرفته، وفي الاثناء اعتذر عن عدم تمكناه تقديم وجبة محترمة، ولكنه لم يكن يعلم بقدومي، كما انه يأمل الا اغضب لأنهم لم يستقبلوني بالتحية اللائقة المعروفة وانا اصعد على متن السفينة. ولكي يؤكد فهمه للعالم، اضاف بأنه على علم تام بعاداتنا وسلوكتنا. ويعني ذلك الاهتمام انه كان ينظر الي كضابط رفيع الرتبة العسكرية. وفيما بعد عرفت القيمة الحقيقية والهدف من هذه الاعذار العائدۃ في جزء منها الى التأدب الشرقي، الى جانب انه اراد ان ينchez سمعته وكرامته اذ كان قد قدم لي عشاء عادياً وليس فاخراً. ومع ذلك، فهو يقدم لي ما هو افضل لديه، بل واعطى اوامره لاعداد السرير الوحيد على المركب، وترك لي غرفته تماماً. وقد تأثرت كثيراً بهذا الخلق الكريم واللباقة، واحسست ان ذلك كلہ انما يعود لصفات و الاخلاقیات مضيفي ومعدنه الطیب.

وبعد ان أصبحنا وحدنا تماماً، بدأ يتكلم عن دليلي ويعطيني بعض المعلومات عنه. قال: ((لقد تعرفت على الكثيرين من الضباط الانجليز، وغضبت جداً عندما رأيت انك في حماية شخص غير موثوق فيه وفاسد ومنحل، لا يعرف ديناً او نبياً او قانوناً. بل انه يمكنه ان يشرب البحر اذا لم يكن ماءً. انه خادم امين موال للحاكم. ليكن الله معه. وبأذن الله ستحصل بغداد، ومع ذلك اود ان اراك بعيداً عنه تماماً. ذلك البائس)). لقد درست جيداً من قبل ذلك المراسل وعرفت من هو، وانني ورغم مخاطر الطريق الحقيقة، فأنا كنت اخاف من جنونه وعدم استقامته اكثر من خوفي من الاضطرابات التي كانت سائدة في تلك البلاد، وبالنسبة لي، فقد رتبت اموری وفقاً لذلك، ولم اضع ثقتي بعد ذلك سوى في خادمي العربي رغم شکوی وتأفف المراسل، ورغم التهديدات التي يمكنها ان تتوجعني.

وفي العشرين من يناير، عدنا الى اليابسة، بعد ان ودعت مضيفي بحرارة وشكرته على حسن ضيافته، وبعد ان قدمت هدايا الى عبيده

وخدمه. وتناولنا الغذاء في القرية مع بعض المشايخ العرب، رحلنا بعد ذلك في العاشرة. وفي الثالثة، مررنا امام نار عنتر، مقر اقامته شيخ المنتفك في بعض فصول السنة عادة، ويمكن التعرف عليه من بعيد. انه مبني صغير على الشاطئ الايسر وهو يشبه تماماً احد المعابد الشرقية لدينا.

وبعد ان قطعنا اربعة وعشرين ميلاً، رسى مركبنا على الشاطئ بالقرب من بعض الاكواخ حيث قضينا الليلة. في الحادية والعشرين، وبعد ان مرّ المركب بمدينة المنصورية الكبيرة نوعاً، وحيث يوجد فرع جمرك تابع لجمرك القرنة، وصلنا امام شيطان مستنقع كبير جداً تغطي جانبيه نباتات القصب. ومن المستحيل ان يتصور المرء مكاناً اكثراً ظلاماً وكابة من هذا البلد الذي نراه الان. وعلى البعد ظهر عربي، كما يظهر شاعر هارب فجأة ليجعل ظلمة المكان مرئية اكثراً. كما يذكر المسافر اية وحدة مخيفة تلفه ولفترات طويلة. الا تذكر كابة المسافر ونظارات الشك التي يوجهها حوله والسرعة التي يمشي بها حتى يمكنه ان يخرج وبأسرع وقت من صحراء كهذه، الا يذكر كل ذلك بمخاوف ذلك الرجل البائس الذي ظهر واختفى فجأة، مخاوفه من رؤية مفاجئة لناس مثله، وفي المساء، وبعد ان قطعنا ثلاثة وثلاثين ميلاً اثناء النهار، رسونا بمركبنا امام قرية (عبادة). وكان خادمي يرتجف خوفاً ولم يكن دليلي بافضل حال منه، ونصحني بالبقاء في المركب فقد كنا محاطين آنذاك بقبائل من الاكثر قسوة والعديمي الشفقة. وقد كنت دائمًا اشكك في دليلي الذي كان يبالغ في تصوير الامور ومديات الاخطار المتوقعة، ليزيد من قيمة خدماته. واذ رأيتني متضايقاً جداً في سجنني هذا، لم أتأخر في اللحاق بهما. وبدأ انهم ما زالا في شدة القلق، بل ويرتجفان وهم يسمعان قصص بعض المسافرين الذين التقينا بهم. وبالنسبة لي، فقد التحفت جيداً بقطائي الوثير وافتشرت الارض، سيفي ومسدساتي الى جانبي. وعندما

استيقظت، كان القمر والنجوم يرسلون ضوءاً ما باهتاً على صفة الصحراء. وبدأ ان رفافي قد واتتهم بعض الشجاعة. ومع ذلك، اقتربت ساعة الرحيل، وفي فجر اليوم، ودعنا المسافرين الذين التقينا بهم على ذلك الشاطئ المقفر.

وفي اليوم الثاني والعشرين، رأينا ونحن نصعد النهر، ضاحية اكثر اشراقاً تملؤها المزروعات مما يوحى اننا نقترب من احدى المدن. ولدي وصولنا الى الكوت، ذهب دليلنا ليؤجر بعض الخيول اللازمة لمواصلة رحلتنا. وفي نفس الوقت، ذهبنا نحو الى الجمرك، واستقبلنا بعض الموظفين الاتراك الذين يعملون لدى الحاكم التركي في جباية العوائد. وطال بقاؤنا في تلك المدينة حتى الرابع والعشرين. وخلال ذلك الوقت كنت اتأمل وافكر في قدرة هؤلاء النساء وهن يعبن التيار السريع واقفات، متماسكات في قواربهن. وهن يقمن ببيع القصب او يحملنه لاصلاح اكواخهن. حتى ان اصغر الاطفال قد اظهروا مهاراتهم في سحب وتوجيه الجوميس عبر الماء ويتقافزون فوق هذا او ذاك. ولم اعرف مطلقاً سبباً لتأخرنا في الرحيل امام صمت دليلنا حول تأخر الرحلة. ولكنني اجد اسباباً اخرى تدفعني الى الشكوى منه. وعندما وصلنا الى الشاطئ الآخر، وجدت انه لم يوفر لنا العدد الكافي من الخيل الذي اتفقنا عليه. لانه كان يجب ان يكون هناك حصان لكل فرد منا، ويجب ان يكون هناك حصان اخر اضافي عند حدوث اي حادث ما، واخر يحمل الاممتعة اللازمة لنا. وبدلاً من ذلك، لم يحضر ما اتفقنا عليه بل وضع الاممتعة، والحقائب وأشياء اخرى تعود اليه، واعتقد جازماً انها ليست ضرورية له، في هذه الرحلة، على حصانين يجب ان نمطليهما انا وخدامي.

لقد عارضت تلك الترتيبات بصرامة لم يكن لينتظرها مني، وثار كعادته، ولكنه عندما رأى اصراري بشكل نهائي، قال لي: ((سأحضر لك

واحداً غداً ولكن يلزمـنا لذلك ان نعود الى المدينة، حيث لن نستطيع الذهاب الا في الغد)). ورأيت من كلامه انه لن يتحقق الا هذا الطلب الاخير. ولكنه طالما اثني كنت اترقـ شوقاً لـ ان نرحل حتى نـ عوض الايام الثلاثة التي فوتـناها، قررت تخفيف امتعتي، فاعطـت غطائـ الصوفي الوثير الى احد المضيـفين الذين استقبلـونـا، وقد نـدمـت جداً لمـثل هذه المنحة السخـية خاصة اثنـاء اللـيل الـبارد في الايـام التي قضـيتها في العـراء في اعتـى وابرـد فصـول السـنة. ولكن كل شـئ بالـنسبة لي كان افضل بكـثير من اي تـأخـير جـديـد. وقضـيتها في مشـاهـدة تلك الحـيوـانـات الـبـائـسة التي كان يـجب عـلـيـها ان تحـمـل الى جـانـب الاـشـخـاص تلك الـامـتعـة الكـثـيرـة الكـبـيرـة لـدـلـيلـنا الـوـقـحـ.

ومن المؤـكـد انه بـسبـب ضـمـورـها، وـعـظـامـها النـاثـنة والـأـورـام الواضـحة خـلف الرـكـبة وـعـلـى السـيقـان وـسـمـانـة الـأـرـجـلـ، لـكـانت خـيـولـنا الـيـوم يـتنـافـسـون مع اـفـضل حـصـانـ لـاـيـ فـارـسـ مـعـروـفـ. وـرـأـيـتـ على ايـ حال ان الاختـيـارـ لمـ يـكـنـ لاـ اـبـالـياـ بـيـنـ التـلـاثـةـ: فـهـنـاكـ اـثـنـانـ يـكـادـانـ انـ يـكـونـاـ فـاقـديـ الـبـصـرـ، مـنـهـكـينـ مـنـ الـهـرـمـ، وـانـ دـلـيلـناـ الـلـابـالـيـ كانـ يـحـتفـظـ بـالـثـالـثـ لـنـفـسـهـ. وـاتـخـذـتـ قـرـارـيـ عـلـىـ هـذـاـ الـاسـاسـ. وـقدـ اـشـارـ الىـ الـحـصـانـ الـذـيـ اـخـتـارـهـ ليـ، وـكـانـ بـطـبـيـعـةـ الـحـالـ اـبـاسـ حـصـانـ يـمـكـنـ رـؤـيـتـهـ. وـكـانـ عـلـيـ استـعدـادـ لـلـرـكـوبـ وـحـولـهـ سـتـةـ مـنـ الـمـشـرـدـينـ فـيـ اـسـمـالـ بـالـيـةـ اوـقـفـتـهـ قـائـلاـ: ((عـلـيـ اـغاـ، هـلـ تـعـنـقـدـ اـنـ ذـكـ الـحـصـانـ الـذـيـ خـصـصـتـهـ لـيـ يـسـتـطـعـ قـطـعـ الصـحـراءـ؟)). اـجـابـنـيـ قـائـلاـ: ((الـلـهـ كـبـيرـ وـرـحـيمـ. اـنـ اـفـضلـ حـصـانـ يـمـكـنـكـ انـ تـتـمـنـاهـ. اـنـكـ تـرـاهـ الـيـوـمـ ضـامـراـ وـلـكـنـ اـذـ ماـتـتـ الـعـنـيـةـ بـهـ فـيـ اـسـطـبـلـاتـ السـيـدـ "كـولـكـوهـونـ"ـ فـلـسـوفـ يـبـاعـ بـسـعـرـ اـغـلىـ مـنـ سـعـرـ خـيـولـهـ. اـنـشـاءـ اللـهـ وـبـأـذـنـ اللـهـ يـوـصـلـكـ اـلـىـ بـغـدـادـ))). وـكـانـ جـوابـهـ كـافـيـاـ لـكـيـ اـصـرـ عـلـىـ قـرـارـيـ وـاقـرـبـتـ مـنـ الـحـصـانـ الـذـيـ اـخـتـارـهـ لـنـفـسـهـ، وـبـيـنـماـ كـانـ يـدـعـوـ

الجمع الغريب حوله ليستشهد لهم على اقواله، اندفعت نحو الحصان وامتنعها ظهره، وناديت خادمي ليركب ورائي، وقلت له بدوري انه يمكنه اللحاق بنا عندما يرغب في ذلك. وتعالت ضحكات من حوله عليه، وذلك لأن التركي لا اصدقاء له في الصحراء، ولم يكن خادمي اخر عربي يضحك منه. ولم يكن امام ذلك البائس الا ان يرضي بنصيبيه. القى بثقله على الحصان الضامر الذي تركته له، ولم يتبق لحصانه الا ان ينشط قدر المستطاع في المسير.

ورأينا في طريقنا ونحن نعبر المدينة، مسجداً كبيراً من الطابوق، مع مجمع ملحق بالدراويش، وكان المبني الوحيد من الطابوق. ذا مظهر جيد مقبول منذ ان تركنا البصرة. وبعد ان ابتعدنا قليلاً من القرية وصلنا خيمة "الشيخ محمود" شقيق "الشيخ حمود" وممثله عندما كان الشيخ حمود قائداً للجيش. وعند وصولنا كان "الشيخ محمود" غائباً كذلك. واسفت جداً لأن رحيلنا سوف يتاخر لحين وصول "الشيخ محمود"، ومع ذلك سرت لهذا التأخير الذي لم نخطط له. والشيخ حمود يترأس قبيلة المنتفك، من اهم قبائل بدو الصحراء، ووجدها مناسبة لدراسة طبائع الكبار. وما يثير الاهتمام، تلك البساطة السائدة تحت خيام اسياد الشرق هؤلاء. ولا يستطيع القلم ان يفي حقهم وانت تصف بذلك التأدب دونما ادعاء وحسن الضيافة والكرم الحقيقي لاسياد الصحراء ولئك خاصة لذلك المسافر الواثق بالامان في حماه والذي يوفره له شرف تلك القبائل.

واثناء غياب الشيخ محمود المؤقت يجلس ابنه مكانه، وهو شاب وسيم في السادسة عشرة من العمر. ويجلس الابن وسط الخيمة الكبيرة المفتوحة، تحيط به حاشية من رجالات مرموقين، يجلسون او يقفون في الاطراف كل حسب مستوى الاجتماعي او عمله. والبسط التي يجلسون عليها تشكل الاثاث الوحيد في الخيمة، وخيوطهم مربوطة في اوتاد خارج

الخيمة في الجوار، وبعض الخيام لقطعان كبيرة من الجمال تملأ الساحة الخلفية. وعندما دخلنا قام الشاب برشاقة ودعاني بالاشارة ان آخذ مكانني الى جواره. وكان بعض المساعدين مشغولين بقراءة الرسائل، ومراسلون يتلقون الاوامر، في الوقت الذي يشغل فيه الغليون والقهوة اوقات الفراغ. اما محارب الصحراء الجسور كان يترصد اقل حركة، واقل ابتسامة للشيخ الصغير، ولكنه يقوم بكل ذلك بلطف وبدون اي حطة، وهو يتحدث عن رأيه وبكل حرية، اذا ما حتم الظرف ذلك. وفي النهاية، سمعنا جلبة في الخارج اعلنت اقتراب وصول الشخصية الكبيرة التي انتظرناها بفروغ صبر. وهب المجلس كله لاستقباله وسبقه الشيخ الصغير وتقدم الجمع نحو الخيمة، حيث ظهر الشيخ محمود بقامته الفارعة، ومظهره العسكري وحضوره المهيب وخطواته الواثقة. وكان يبدو وكأنه عائد من رحلة سرية وهامة وكأنه كان يفكر في اخرى جديدة. وعندما دخل الخيمة واتخذ مكانه، تم تقديمها اليه. وسلم علينا، بايماءة من رأسه دون ان يتوقف عن اهتمامه بالاستماع والاهتمام بالاجراءات الاكثر اهمية التي شغلت فكره. وسادت لحظة سكون وهو يحاول استعادة جашه، وربما لكي يتمكن من التفكير حول موضوع تلك الرسائل التي قدمناها له، وحول الطريقة التي سوف يتصرف بها تجاهنا. وبعد لحظة من التفكير طلب منا الجلوس، وجلس كذلك اولئك الذين لهم ذلك الشرف في حضرته.

وتعالج جميع الشؤون مهما كانت طبيعتها علينا ولكن ظاهرياً. فمن يستمعون لما يقوله الشيخ هم الذين يعتمد عليهم من اهل الثقة الكثومين. وقد اخذت قراءة الرسائل التي ارسلها حاكم البصرة وقتاً كبيراً، وفي الاثناء كان الشيخ يستدير نحونا من آن لآخر لكي يضع بعض الملاحظات حول الموضوع. ثم ختم الجواب على الرسائل التي املأها

بختمه في ذات الوقت. ورغم ابني لم استطع سماع مايقوله فلم يكن بجواري خادمي الذي يترجم لي مايقال. وقد تيقنت ان الشیخ معتاد على تسییر الامور ويستعين بثلاثة او اربعة مساعدین مشغولین بتدوین مايملیه عليهم، في الوقت الذي يتحدث فيه مع ابرز اعضاء المجلس. وبعد مضي بعض الوقت، اخبرنا ان الجوازات والادلاء سيكونون جاهزين قبل الوليمة التي دعاني لحضورها. ولانه شخصية مرموقة لم استطع رفض الدعوة. مع ان ذلك يعني تأخیراً جديداً لرحلتنا.

وقد دللت الاستعدادات للوليمة على مدى البذخ الذي لم اجد له مثيلاً وماكنت اتصوره. فقد فرشوا على الارض وسط الخيمة اربعة جلوس كبيرة لجاموس متشابكة. وكان من السهل رؤية طبقات الشحم المتجمعة التي تملأ سطحها، وكانت تلك المائدة الجلدية من الاثاث الذي يعود للراسة. ومع ذلك لم يقل مظهرها مطلقاً شهية الضيوف الذين تحلقوا حولها كما الصياد الجائع. وحاشية كبيرة من العبيد تصطف مشغولون بنصب الخيام وخيمة الشیخ. ثم احضر كل منهم صينية كبيرة يغطيها الارز الاسمر على ارتفاع قدم، تتفرس فيه رؤوس واوصال الخراف التي تتدلي من الانية المتخصمة بالارز، تلك الخراف التي رأيتها ترعى بهدوء منذ ساعة او اثنتين. لقد اتحدت موهبتهم وخبرتهم في الطهي وطريقتهم في تقديم الطعام للضيوف. وكانت بعض قطع اللحم ما زالت مغطاة بالجلد، ربما نسور تنظيفه وخلعه، وبكلمة واحدة، يمكنني ان نقول ان تلك الحيوانات المسكينة قد مزقتها كلاب جائعة كانت تصطف خارج الخيمة وتنتظر بفروع صبر ما يتبقى من فتاتات الوليمة.

وبعد ان تمت جميع الترتيبات، سمعنا جملة ((لا اله الا الله، بسم الله الرحمن الرحيم)) بصوت عال ايذاناً ببدء الطعام. ومد الشیخ يده القوية وسط اکوام الارز التي تغطي اقرب صينية له، وايذاناً لنا ببدء تناول الطعام.

وكنت مضطراً ان اقوم بالمثل وامد يدي، وكانت تلك الحركة تأدباً مني ورغبة في عدم جرح مشاعره. وانني افكر في ان اي تجمع من شيوخنا الافضل اذا ما اجتمعوا لمناقشة مزايا سلحفاة او فطيرة محللة، لما استطعنا ابداً تقدير ماهية تذوق تلك الحلوى بمثل ذلك الشعور والشرارة التي اراها امامي اليوم، والتي اظهرها مضيفونا وهم يتناولون تلك الوليمة البسيطة ولكن الجوهرية. وقد ساد الهدوء والصمت التام لبعض الوقت. لم يقطعه سوى الرئيس الذي جال بنظراته حول المائدة مشجعاً ضيفه على مداومة تناول الطعام. ولسوء حظي اثرت انتباهه في تلك اللحظة فقد رأني لم اعد اكل، ولأن معدتي كانت في اسوأ احوالها بعد كل ما شاهدت. و اذا به يجر رأس احد الخراف، كان يتدلّى منه جزء من الرقبة وجزء من الاكتاف. وغرز اصابعه في محجري العينين وقسم اللحم قسمين وطلب مني استئناف الاكل. وقد كانت تلك الحركة الضربة القاضية لشهيتي. واستجمعت قوای جميعاً للقضاء على اشمئزازي واضطررت لترك مكانی. وقام الضيوف الاخرون بعد ذلك الواحد تلو الآخر بعد ان ينتهي كل منهم من طعامه. واحتل مكانهم بعض المرؤوسين الاخرين لا يظهرون سوى مع نهاية الوليمة.

وقدم لنا الخدم الماء بعد ذلك، كما فعلوا في بداية الوليمة، لكي يغسل كل يده. في حين رأيت الكلاب الجائعة التي استطاعوا السيطرة عليها حتى انتهاء الوليمة، قد اندفعت داخل الخيمة وبدأت تلتلهم العظام والصوانی الخشبية وحتى جلد الثور. وفي لحظة واحدة اختفى كل شيء. ثم بعد ذلك جاء دور القهوة. اما الشيخ الصغير، فقد ظل واقفاً خلف والده طول الوليمة احتراماً له، وقدم له بيده فنجان القهوة وبعد التدخين لآخر مرة، توجهنا للرحيل. ((ايها الغريب)) قال لي الشيخ محمود: ((عرفت انك واحد من يخدمون علي الكبير. وقد قمت بسفرة طويلة وخطيرة، ولكنك وصلت لحظة وقوع المعركة، وعندما يقدمونك للباشا،

لأنك ستصل بأذن الله سالماً معافى في حراسة ادلائي الى بغداد، وبعد ان يقدمونك للبasha قل له انه قد زرت ورأيت اهل المنتفك في الكوت وان الجميع هنا سيؤازرونه ويدافعون عن قضيته. فبأذن الله العلي القدير لن يحيي ابن سليمان الكبير رأسه امام عبد جورجي)). قال وهو يلوح بيده في انفعال شديد: ((ابن سليمان الكبير هو باشا اهل المنتفك؟))

لطالما اغارت تلك القبيلة على المسافرين في الطريق من البصرة الى بغداد، بل انهم قد استولوا على الكثير من القرى في الطريق. ولكن اذا جاءتهم من هو اقوى منهم، ينسحبون الى داخل الصحراء. بل انهم تمادوا ذات يوم وحاصروا البصرة، لكن سليمان كيچه الذي اصبح فيما بعد باشا بغداد، عاقبهم بشدة على وقاحتهم. وعلى غرار ما فعل والده حشمت كان يهجم عليهم بفترة بقوه ونجاح. ويقال ان الحظ حالف حشمت يوماً وقبض على الشيخ شادون^{*} وفي نوبة كرم، حرره وطلب منه ان ينصرف في سلام وان يدفع الجزية في الوقت المحدد. ورغم ذلك، سرعان ما عاودوا غاراتهم، فارسل لهم سليمان كيچه نسيبهم، الذي ذهب اليه على رأس مجموعة من المقاتلين وهاجم معسكراً على حين غرة واستطاع للمرة الثانية ان يقبض على اسيرهم. ويتحدث العرب اليوم بحماس عن الشجاعة البطولية التي دافع بها شادون؟ عن نفسه. وعندما فقد رمحه وسيفه، حارب يائساً مستخدماً فأساً وضرب به اعداءه. وبعد مقاومة عنيفة مستخدماً سرج حصانه وقع اسيراً في يد اعدائه. ورفض ان يوقع الشروط المهينة التي اراد احد المنتصرين ان يملئها عليه وقال: ((انا سليل اسرة نبيلة عريقة)), اعلنها بعزم، واحد يعدد القابهم جميعاً واستطرد: ((انك لن تستطيع ان تسمى ذلك الرجل الذي وهب الحياة ولا

* ربما سعدون. اعتقاد انه احياناً يحور في الاسم حسب سمعه له وهو الايجنبي.
[المترجمة]

الام التي حملتك بين ذراعيها. ومن اقدار الحرب ان اكون اسيك. وانني لن اقوم مطلقاً باذلال وتلويث شرف قبيلتي)). ولكن اكرم الاعداء ان يقدر ويحترم تلك الشجاعة النبيلة، ولكن سليمان استل حربته وقطع رأسه وارسلها الى والد زوجته.

وبعد ذلك المثل الذي حدث ظن الشيوخ انه من ضروب الحذر ان يعلنا خصوهم. بل وقدم ثمانية منهم انفسهم في نفس اليوم آملين ان يتقبل سليمان خصوهم، ولكن سليمان الذي خشي الا تتكرر له مثل تلك الفرصة، اصدر امره بجز اعناقهم جمیعاً. وقد اضعف ذلك التصرف السياسي البربرى قبائلهم التي اضطررت الى اظهار الهدوء لبعض الوقت، ويعتبر الاتراك تلك الحملات والتصرفات من ضروب الشجاعة، في حين ان العرب يذكرون ذلك وحتى اليوم بانها من التصرفات التي توحى بالقرف خاصة اذا ما تذكروا تلك القسوة التي نزلت بهم.

وما كدنا نقطع ميلين خارج الخيام، حتى اجتاحتنا عاصفة قوية. وخلال بضع دقائق اصبحت الارض رطبة موجلة، لدرجة ان قوائم الخيول تنغرس فيها حتى الركبتين، كما ان البرق كان يخيفهم جداً بحيث انه اصبح من الصعب جداً السيطرة عليهم. اما تابعي التركي الذي كان يتحسر على مائدة مضييفنا، استخدم كل لياقته ليقنعني بالعودة لقضاء الليلة في خيامهم. ولكنني كنت متشوقاً بفروغ صبر ان اجد نفسي بين الاوروبيين فلم استطع ان استجيب لاسبابه، وحركت حصاني وسبقتهم لكي اقطع الطريق على كل حديث، وقلت لهم ابني لم ار في حياتي فرساناً اسوأ منهم. ولم يكن تهجمي ذاك كريماً تماماً، فقد كنت امتطي صهوة الحصان الافضل بين الثلاثة. وقد حقق حصاني هدفي فقد كنت ابذل جهداً مضاعفاً حتى يستمر الامر. وبعد ان قطعنا عشرة اميال، رأينا معسراً صغيراً يحوي عدة خيام للبدو، وقررنا ان نقضى الليلة لديهم.

ان الكرم بلا شك فضيلة وطنية لبدو الصحراء. ولم يكن هؤلاء المساكين يملكون شيئاً. ولكن القليل الذي يملكون، قدموه لنا عن طيب خاطر وبكل اهتمام. وفرشوا لنا داخل الخيمة سجاجيد حتى نقضي الليلة ونرتاح من تعينا. وماكدة اتام حتى سمعت صوتاً وافقت من نومي. لقد كان مضيفنا الكريم واسرته قد ارسل في طلب بعض الاغطية التي فرشوها فوقنا. ويبدو انهم حرموا انفسهم من الاغطية لكي يقدموها لنا، هذا الى جانب انهم سيظلون ساهرين طيلة الليلة. ومع ذلك لم استطع ان اثنיהם عن قرارهم وجلست ادخن معهم ثم قدمت لهم ذلك التنبك الفاخر الذي احضرته معي من البصرة. وبعد ذلك، استغرقت في نومي حتى الصباح، حيث انطلقا في ساعة مبكرة برفقة الدليل الذي قدموه لنا بالامس.

وفي الثانية صباحاً، عربنا رافداً صغيراً يصب في نهر الفرات. ويعتبر حدوداً لمقر اقامة الانسان قبل سقوطه. يا الهي! لكم تغيرت تلك الجنة اليوم! انها منطقة معزولة قاحلة تكاد تنتج محصولاً ضئيلاً من الحبوب. وقضينا الليلة لدى شيخ وقور، تقع خيامه على بعد ثمانية وعشرين ميلاً من المكان الذي توقفنا فيه بالامس. والمنطقة التي عربناها جزء من اراضي ما بين النهرين القديمة، ولا تقدم الا ذلك المستوى المنخفض من الزراعة التي تكاد تسد حاجة السكان. وتبقى جزء كبير من الاراضي ارضاً بوراً للعديد من السنين. وقد تمت زراعتها بطريقة سطحية، وتكاد تنتج ذلك المحصول الضئيل الذي يسد بالكاد حاجة ذلك الجنس البسيط المتقشف.

وبعد ان عربنا ولمدة اربع ساعات ارضاً منبسطة وقاحلة تقريباً توقفنا تحت خيمة الشيخ ابراهيم. وهو رئيس شاب شجاع جداً في السادسة والعشرين الى الثامنة والعشرين من العمر، ويمثل ربعاً حقيقياً للقبائل المجاورة. وبالامس، عذبنا كثيراً جداً فضول دليلنا الماكر الذي

اخذ يتدخل في شؤوننا، ويبدو انه اخذ يشك كوني جيورجياً في خدمة علي باشا. ولأن خادمي ودليلي التركي قد ذكرًا امامه مثل تلك القصة دون ان يعلمني بذلك وليبررا له بياض بشرتي، ظنناً منها انها بذلك يتفادان اي خطر يمكن ان يهددني. فقد كان علي باشا شخصية تحترمها جميع تلك القبائل، فقد هزم الوهابيين اعداء عقيدتهم. ولأن خادمي لم يخبرني كيف اتصرف او الدور الذي يجب ان العبء، فقط اسقط في يدي عندما امطروني بالاسئلة بعد ان جلسنا تحت الخيمة، حول علي باشا والوهابيين. ووجدتني محتراراً جداً خاصة عندما انضم مضيفونا الى دليلي وارهقوني بدورهم بالاسئلة عندما عرفوا انني جيورجي. وطوال الرحلة كان ذلك الدليل يتشارج مع دليلي التركي لانه رفض بعناد ان يُشفى غليله ويجيب على تساؤلاته عنني. ولكي ينتقم منا، اخبر الشيخ ابراهيم ومستشاريه الخطرين، انني لم انطق ولو بكلمة واحدة، وخامدي هو الذي يُجيب بدلاً عنني. وفي الحال طلبوا من خادمي الامين ان يترجم لي ومن ثم امطروني بالاسئلة.

ولم اكن اعلم ابداً، من هم الوهابيون او حتى علي باشا سيدى المفترض. ولحسن الحظ، كان هؤلاء القضاة العارفين بالامر قد سمعونا ونحن تلفظ اسماءهم بلغة قريبة من لغتهم. واقتنعوا حينذاك وبسهولة بانني في خدمة تلك الشخصية الكبيرة. بل قالوا، انهم لا يدهشهم الا يتحدث احد سكان القرم بلهجتهم اصلًا، اما خادمي، الذي طلب مني ان اتحدث اليه ليعطي الانطباع، بأنه يترجم لي ما القول، قام هو بترتيب الاجوبة على تساؤلاتهم. وذلك الرجل المخلص كان ينتظر نتائج مخيفة اذا كانت معارف من يسمعوننا حول الوضائع في مصر قد تساوي رغبتهم في معرفة تلك الاخبار. اما خادمي، الجاهل بالطبع، قد اقترف اخطاء فظيعة في التواريخ، وشووه الجغرافيا، لدرجة انني لم استطع استيعاب

سذاجة مضيفينا. والحقيقة هي ان خادمي المسكين كان يخشى جداً ان يكتشفوا كذبته لدرجة انه لم يعد يعي هو نفسه مايقوله، وقدم سيدني المفترض في سن اكبر بكثير من نصف قرن عن جميع الحضور، وقال انه يمتلك جيشاً عمراماً اكثراً من جيش السيد الكبير وشاه فارس مجتمعين. باختصار وفي كلمة واحدة، كان على وشك ان يكشف سرّنا رغمماً عنه في النهاية. وقد حدث ذلك في الوقت الذي سمح فيه دليلي التركي لنفسه ان يكيل السباب في خشونة تجاه بعض شخصيات الشركة مما غير مجرى واتجاه الحوار واثار الاهتمام العام.

ولأكثر من مرة، منذ ذلك الوقت، دهشت جداً لصلافة ذلك الرجل غريب الاطوار، التي اثارت تصرفاته ضغينة ذلك الشعب تجاهنا، واعتقد ذلك شيئاً عادلاً ومن حقهم فلم يكن يترك التركي فرصة ليكيل السباب والسخرية المرة والاهانة تجاههم. ولكن قطاع طرق الصحراء هؤلاء لقتنونا درساً بليغاً في الصبر والاعتدال، لن تجدهما لدى اكثراً الشعوب تحضراً. وقال لنا الشيخ بعد ان هدأت الاصوات والللغة: ((اصدقاء او اعداء انتم، مؤمنون او كفراً لسوف تتمتعون بالحماية في خيامنا)). وما كاد ينهي التعبير عن مشاعره في بساطة تامة حتى توقف جميع اولئك الذين استلوا خنادرهم استعداداً للانتقام من الاهانة التي كيلت لهم، كما بدا وكأنهم خجلوا من هذا الاندفاع الذي ابدوه. وفي تلك اللحظة، اندفع الى داخل الخيمة ابن الشيخ المفضل وهو يهزاً من النسوة اللاتي لحقن به لمنعه. وامسك بذراع مضيفنا، الذي ناداني واعرب عن حمايته لنا، ثم جلس الطفل، في الحضان والده. – ((ربما انت والد)), قال الشيخ، ((هل رأيت ابداً طفلاً يشبه ابني؟ لو كان اقوى قليلاً لرأيته يرمي الرمح بمهارة تفوق مهاراتنا، رغم صغر سنه ولا يكاد يبلغ الرابعة من العمر)). ثم اعطوه قصبة، سددها بدقة واطلقها فوق رأس التركي الذي فقد اعصابه. وفي لحظة، استحوذ الطفل على الاهتمام العام، واذ لاحظت المحبة الخاصة التي

يُكَنُّا لَهُ وَالدُّهُ، قَمْتُ لِأَضِيفِ شَيْئًا إِلَى هَذَا الشَّعُورِ الْعَامِ وَقَدَّمْتُ لَهُ عَمَلَةً
ذَهَبِيَّةً مِنْ نَقْوَدِنَا لِيَضْعُفَهَا فِي عَنْقِهِ كَالْمَعْوِيَّةِ. وَقَدَمْتُ لَنَا الشَّيْخَ حِينَذَكَ دَلِيلًا
جَدِيدًا بَدْلًا مِنْ ذَلِكَ الدَّلِيلِ الَّذِي رَفَضَ أَنْ يَتَابَعَ الرَّحْلَةَ مَعَنَا بِسَبَبِ شَجَارَةِ
الْدَّائِمِ مَعَ التَّرْكِيِّ. وَرَحَلْنَا بَعْدَ ذَلِكَ مَعَ دَلِيلَنَا الْجَدِيدِ.



الفصل السادس

الوصول الى الشطرة، احترام كبير للسيدين^٥، قبيلة بدوية ملحة،

واسط، ملاقة الجيش العربي، الامر اليه بالتحرك،

الوصول الى بابل

في السابع والعشرين من يناير، وبعد مسيرة ساعتين وصلنا الى الشطرة، وهي مدينة كبيرة نوعاً، بل الوحيدة التي رأيناها وتستحق اسم مدينة منذ ان تركنا مدينة الكوت. والشيخ "حسود Hassud"، رجل كبير السن في السبعين من العمر تقريباً ويترأس القبيلة، مع ابنه البكر. ورأينا رئيس القبيلة وابنه جالسين على طرف خيمة كبيرة مريحة جداً، يحيطهم من خمسين الى ستين رجلاً من كبار السن، يقرأون الرسائل ويتلقون التقارير، ويبدو عليهم انهم يناقشون مسألة هامة جداً، كما يبدو من الاهتمام الزائد بما يدور بينهم وسمات القلق البدائية في نظراتهم. وخبرنا الشيخ انه من المستحيل ان يقدموا لنا دليلاً يرافقنا في رحلتنا. وكان اللصوص يملؤن المكان ويسمونهم اشقاءهم. وقد تمت سرقة قطعائهم في الصباح من قبل عصابة من اللصوص الذين تسللوا الى المدينة اثناء الليل. وقد طارد رجال القبيلة هؤلاء اللصوص دون جدوى ولم يستطيعوا الا ان يجدوا بالكاد حصاناً واحداً. ومن جهة اخرى، رفض دليلنا السابق مواصلة الرحلة معنا، ولم يُثنّه عن قراره مهما بلغت قيمة المال الذي عرضناه. فقد جاء من مكان بعيد، وعرض حياته للخطر ولن يخطو خطوة واحدة بعد مهما كانت

⁵ جمع السيد، وهو الانسان المنحدر من سلالة النبي (ص)، أما كلمة "الأسياد" تعني معنى آخر غير المعنى المراد الذي تعنيه كلمة السيدون.

المغريات. ووجدنا انفسنا مضطرين لتناول العشاء الذي قدموه لنا، ولم يكن امامنا سوى البقاء في هذا المكان لمدة اطول، او العودة لخيمة مضيفنا الكريم ابراهيم قاطع الطريق.

واثناء تناولنا الطعام، وهي الوجبة الوحيدة التي استطعت تناولها بدون اي شعور بالقرف منذ اسبوع، واثناء ذلك اندفع التركي يكيل السباب والشتائم ضد مضيفنا وضد النساء جميعاً من بنات وامهات واخوات وزوجات، ووجهها اليهن مختلف صنوف الاتهامات، وذلك لأنهم رفضوا منحنا دليلاً ليوافقنا في الرحلة، وكذلك بسبب فضولهم وتساؤلاتهم حول شخصي. وبذلك فقد فاض الكيل، ولا استطيع حتى ترجمة ذلك السيل من الشتائم. وانتقض الزعيم الشاب في نوبة غضب شديدة تملأه مشاعر السخط وجعلنا اتنا لن ننعم ولو للحظة واحدة بعد ذلك بالحماية في ربوعهم. واما ما تم طردنا من الخيمة في تلك اللحظة بعد ان رأينا التهديد في حركاته والشرير المتطاير من نظراته، فلسوف يذبحوننا على باب الخيمة. وذلك على الرغم من انه من النادر جداً خرق اعراف الضيافة لدى تلك الشعوب وبالمثل وبينفس القدر لن يترك الاستفزاز دون عقاب. ولكن الزعيم الشيخ اندفع امام ابنه ونجح في وضع حد لغضب ابنه، وحاول افهمه بأنني وخادمي لستنا مسؤولين عن ذلك، وانه ليس من العدل انزال العقوبات علينا. وكنت حتى الان، اعتقد ان خشونة سلوك التركي مُضرة بي، ولكنني بدأت ومنذ اليوم اعتقاد العكس، فهو بذلك يُحول الاهتمام نحوه واظل انا بعيداً بذلك عن اي خطر. ومن المحتمل الا يكون ذلك التصرف حيلة من جانبي، فخادمي يتهمه دائماً بأنه لا يبدي احتراماً او مراعاة لي في حديثه، ولكنه يخلق امامنا على الاقل فرصة تكوين اصدقاء لنا بسبب التناقض الصارخ بين سلوكه وسلوكنا.

ولم نعد نفكر بعد ذلك المشهد في امكانية الحصول على دليل او حماية لنا فقد قطعنا الامل في ذلك. وحاول التركي ان يمهد الطريق امام

الصلح، بل واكد بكل صلافة انه اراد فقط ان يثير جواً من المرح لدى اصدقائه المحترمين اهل الصحراء، والذين يعرفون جيداً جميعهم علي آغا، وانه مجرد رسول بسيط للحاكم الذي ارسله الى البasha.

عندما وجد نفسه بين معارف قدماء، ظن انه يسمح لنفسه بالقاء نكتة. ولكن ذلك كان عذراً قدیماً مكروراً لايهتم به احد ولم يكن هناك عربي واحد يستمع اليه وحينذاك اضطر ان يتستخدم وساطة خادمي لدى "سيد" وقرر ليصطحبنا حتى حدود اقرب قبيلة. وذلك لأن السيد لقب لاحفاد النبي الذين يتمتعون باحترام كبير لدرجة ان وجودهم يعتبر حماية في اي مكان يوجدون فيه، حيث يعترفون لهم بقدسية صفاتهم. كما ان التسبب في وفاة احدهم، يعتبر جريمة من ابشع الجرائم بسبب قدسيّة حياتهم التي صنعت لهم شهرة واسعة.

ويكفي عادة ان يندفعوا بين المتخصصين او المتأ pariين اذا ما هوجمت جماعتهم وذلك لتهدة اعصاب البدو المتمسكون بالخرافات. اما الشخص المؤقر الذي توجهنا نحوه لهذه المناسبة، وكان اقربانا منه تتسم باحترام فائق، كان يدرك جيداً ما ننتظرك منه، وطلب منا مبلغاً ضخماً مقابل خدماته. وحاول التركي مساومته ولكن دون جدو. ولكن انتهى به الامر بالقبول ورحلنا. وقد قال لنا دليلنا الشیخ المؤقر انه يجب علينا ان نثق تماماً في حمايته لنا واظهر لنا شجاعته وفروسيته بالطريقة التي امتنى فيها حصانه العربي وبدا انه افضل فارس في موكيينا.

وقطعنا صحراء حقيقة، لا زرع ولا ضرع فيها. وسرنا لساعتين يلفنا صمت مطبق. كان التركي يفكر في المصاريف الاضافية التي كلفته بها خشونته وفظاظته، وانا مازلت افك في ذلك التأخير الذي اضطررنا قبولة، وخدمي كان يفكر في المخاطر التي واجهناها وتلك التي سوف نواجهها. وفجأة وفي اللحظة التي كنا نحاول النزول فيها في طريق ضيق،

حتى سمعنا جلبة ورأينا بعض البدو يصيحون بصيحات الحرب وتحلقوا حولنا، واعتقد اننا لم نرهم من قبل. ويبدو انهم ظهروا من باطن الارض ووجهوا نحونا حرباهم وبنادقهم. وفي تلك اللحظة الحرجية، اظهر السيد هدوءً وشجاعة كبارين. ودون ان يقول كلمة واحدة، اخترق تلك الجموع الغاضبة وتراجل من حصانه وخر ساجداً واضعاً تحت رأسه تعويذة من الجلد نقش عليها آيات من القرآن وبدأ يصلّي ويتوأ آياته بصوت عال.

وفي نفس اللحظة، ساد السكون التام وصمتت الصيحات المدوية التي اربعتنا. وانخفضت الايدي المرتفعة والقت الاسلحة المميتة التي كانت تتهددنا، استسلم الجميع في خشوع وحرارة للسجود، وتحولوا اصدقاء سيدافعون عننا وسرنا بينهم متعمعين بذلك التفهم الذي خلفه التأثير الديني، ولكي يستمر ذلك قدمنا لهم هدايا من الغاليين ومن التنباك. ولم تكن تلك اول مرة ارى فيها التأثير الطيب لغليون ملي ب تلك العشبة المفضلة. وكيف تملأ قلوب تلك الجموع الرحيل بالحبور. ولأن مثل تلك القبائل لا ترتبط طويلاً بعلاقات مع القبائل المستقرة، كما انهم لا يزورون المدن الا نادراً، فذلك يعني ان ذلك الغليون يعتبر ترفاً محرومين منه. كما ان تقديم مثل تلك الهدايا العينية حرص يجب اتباعه بدلاً من تقديم النقود التي تثير جشعهم. وكان سخاؤنا في هذا الظرف بلا حدود وبينفس قدر مخاوفنا. وقد وصلت آذاك مراكبهم واستطعنا عبر النهر الصغير الذي كان يعيق طريقنا.

وعندما نزلنا على الشاطئ المقابل، اوصلانا اصدقاء الجدد ان نبقى بينهم حتى لانصطدم بطلائعيهم قبل ان يعرفوا من نحن، اذ انهم يختبئون بين الاحراش. واتبعنا وجهة النظر تلك، ووصلنا خيام القبيلة التي تبعد ميلين عن الشاطئ. وما ان وصلنا قام السيد للصلوة، وبعد ان انهى صلاته، نشر دعواته وتبريكاته بسخاء على الجميع، مما جمع حوله

جميع القلوب. وتدافعت النساء تحيط به، وليقدمن له اولادهن لتقبل برకاته، بل يطالبته بالدعوات للانجاب ثانية لدرجة انهن يلمسن ملابسه لنفس الغرض. ووسط تلك المشاهد المتنوعة، حيث اختلطت تعابير الوجوه الماكرة مع التأثير الديني الاسر لتنشى وتنشر معاً دعاية السلام وحماية الصعييف امام القوى، استطاعت بسهولة وبحرية تامة ان ارافق عادات وظروف حياة القبيلة الجديدة التي دفعنا القدر لمقابلتها.

وكانت تلك القبيلة بالتأكيد الافقر والاقل تحضراً من جميع القبائل التي رأيناها قبلًا. ثروتهم الوحيدة قطعان النعاج ويقادون يملكون جملًا واحداً او حصاناً واحداً. وقد احاطوا خيامهم بسور من الاعشاب والشجيرات الصغيرة تفادياً لآية مفاجأة تحقيق بهم. ولم ار في حياتي مثل ذلك البؤس السائد والمثير للشفقة، وهم يشعرون تماماً به. ولم يكن هناك سوى ثلاثة شباباً والباقي اما شيوخ شاحبي الوجوه ضامر اليأساد، او اطفال ضعاف يقادون ينهارون من الجوع والهزال.

ولو قمنا بـتعداد الرجال والنساء والاطفال في الخيام الاخرى لما تعدد عددهم الثلاثاء نسمة. اما الوجبات التي قدمت اليانا قبل ذلك تعتبر ترفاً كبيراً بالنسبة للوجبة التي قدموها لنا، فلم يكن لديهم سوى حلوي الارز اليابسة السوداء. ولم يستطعوا الا ان يقدموا لنا كمية قليلة منها رغم انهم طلبوا ذلك من جميع الخيام لكي يقدموا لنا تلك الوجبة. واذ حصلوا مؤخراً على بعض الدقيق، استمعنا الى نسائهم وهن يحضرن العجين. وبعد ذلك رأينا انهن يرمون فوق النار قطعة كبيرة من الحلوي قطرها ثلاثة اقدام وسمكتها بوصتين تركوها لتنتصج بعض الوقت.

ويختلف هؤلاء البوسائع عن العرب الاخرين الذين التقيناهم في لباسهم وعاداتهم. فبدلًا من تلك الحيوية وفروع الصير الذي يميز القبائل الاخرى، يكسو وجوه رجال قبيلتهم حزن قاتم. ولو كان ذلك بسبب الفقر، فان قدرهم

بائس ويدعو للاسف الشديد. وكانوا ينظرون اليها في حسد واضح. ففي لحظة قضوا على الحلوى. وكانت اعتقاد في كل لحظة بسبب القلق وفروع الصبر الذي يبدو على وجوههم، بأنهم سينقضون علينا ليتناولوا ذلك الجزء من الغذاء الذي حرموا منه بسبينا.

وكانت القى في كل لحظة الاسئلة على خادمي حول الاختلافات الواضحة بين عاداتهم وعادات القبائل الشجاعة الكريمة، ولكنه كان يتسلل الى ان التزم الصمت التام حتى لا اثير شكوكهم اذا رأينا نتحدث معاً. وحاولت عدة مرات ان اسحب الحوار حول هذا الموضوع ولكنها كان يغير مدار الحديث في خوف غير مبرر في نظري. ولم استطع مطلقاً ان انتزع منه ادنى توضيح لذلك.

ولم يكن ذلك مطلقاً بسبب جهله، فهو يعرف ذلك جيداً، ولكنه موضوع لا يستطيع الخوض فيه. حتى علي اغا نفسه ما كان ليحضر هنا اذا عرف انه سيلتقي بهم. انهم كفار، ويقترون جميع الاثام المستهجن، فهم لا يشغلهم الرسول او القرآن، ولا يهمهم البتة شيخ منتظر. وعندما ابديت لهشتي للاحترام الذي ابده للسيد، حتى لو قابله اسد في الصحراء، فلن يواجهه، بل سيبتعد بهدوء دون ان يوجه ادنى اساءة الى السيد.

اما التركي، فقد التزم بصمت مطبق عنيد منذ ان رأى فضولي الزائد، بل انه اصبح اكثر صمتاً في هذه المناسبة وعلى غير عادته. وكانت قد اعتقدت انهم محدثيون استناداً على الظاهر وافتراضاً، ولكنهم من جنس انتقل الى الهرطقة وانهم يعتقدون بالالوهية ولكن طقوسهم فظيعة وغير مقبولة، كما يعتقد المؤمنون الحقيقيون. ولم يكن قبول ضيافتهم مقاساتهم طعامهم شيئاً مشرفاً لخادمي او للتركي. بل انهم كانوا يتجلبان تقديم اي تفسير يمكن ان يسبب لهم الخجل. ربما تكون الطريقة الوحيدة التي اشرح بها نفورهم واشمئزازهم القوى الدائم من الاجابة على تساؤلاتي.

ورحلنا في الثامن والعشرين بعد ان قضينا ليلة سيئة بسبب الامطار التي كانت تتسرّب داخل الخيمة. وعبرنا صحراء جرداء لا يمكن تصورها، حيث لا زرع ولا ضرع ولا خيام ولا سكان. وبعد بعض ساعات تغير المنظر تماماً، ووصلنا قرية صغيرة تعود للشيخ "الحاج هود" ^{*} Huja Houd، يا للتناقض الصارخ بين هذه القبيلة وتلك التي تركناها للتو. هنا كل شيء يعطي انطباعاً بالثروة والترف.. وتبعد الحقول الصغيرة المزروعة حول الاكواخ بهيجـة المنظر وخصبة. الى جانب ان الشيخ نبيل المظهر والاخلاق، ويسود القبيلة نوع من التهذيب وحسن السلوك في الدائرة الصغيرة المحيطة به. وكان عشاًونا لديه ولأول مرة، يتكون من الارز الفاخر، وقدموا لنا بعد ذلك على الاناء الارضي النظيف جداً، بعض الحلوي والكيك لسوف يتمتع بها اكثر الذوقـة تطليباً وبسرور كامل، وحتى لو لم يكن مثلنا وقد صام يومه كاملاً وقطع ثلاثين ميلاً ليصل الى هنا.

اما الشئ الوحيد الذي الوهم عليه فهو هذا الوقت الطويل الذي يقضونه في صلاة المسـاء قبل النوم، ورغبتـهم العارمة ان نشارـكم ايـاهـا. وفي مثل هذه الظروف كنت انتـهي ركناً بعيدـاً واتـظـاهـرـ بالـنـعـاصـ في حين انـني كنت ارصـدـ باهـتمـامـ جميعـ الطـقوـسـ الـتـيـ تـقامـ. ولكنـ حـيلـتيـ لمـ تـنـجـ هـذـهـ المـرـةـ. وـمـاـ انـ حـانـتـ ساعـةـ صـلـاةـ الـمـسـاءـ، حتىـ جـاعـنـيـ منـ يـطـلـبـ منـيـ المـشـارـكـةـ فـيـهاـ. ومـدـدـتـ اـقـدـاميـ دـلـيـلاًـ عـلـىـ التـعبـ الشـدـيدـ، مـحاـوـلاًـ بـذـكـ اـفـهـامـهـ بـتـعـبـيـ الشـدـيدـ. وـلـكـ عـذـريـ هـذـاـ ظـلـ بلاـ فـائـدةـ، وـكـانـ عـلـىـ خـادـميـ وـاجـبـ اـخـبارـهـ اـنـنـيـ لمـ اـتـوـضـأـ مـنـذـ ثـلـاثـيـنـ يـوـمـاًـ وـفـيـ حـالـةـ دـمـرـةـ تـلـكـ لـاـيمـكـنـ السـماـحـ لـيـ فـيـ المـشـارـكـةـ فـيـ هـذـهـ الطـقوـسـ الـدـيـنـيـةـ.

وفي صبيحة الغـدـ، واصلـناـ الرـحـلةـ وـبـعـدـ مـسـيـرـةـ ثـلـاثـ ساعـاتـ فيـ الصـحـراءـ، وـصـلـناـ إـلـىـ مـدـيـنـةـ وـاسـطـ العاصـمـةـ الـقـدـيمـةـ لـبـلـادـ ماـيـنـ النـهـرـيـنـ.

* عـوـادـ. [المـتـرـجـمـةـ]

وتحتل المنازل القديمة القليلة القائمة مساحة صغيرة يحيطها سور بائس، والذي لا يمكن ان يكون الا جزءاً متبقياً من الموقع القديم الذي كانت تتحله عاصمة امبراطورية كبيرة. ومن المحتمل جداً ان كلتيهما لاتقعان في نفس المكان، ولكنهما بالقرب من الموقع الذي تحدده الجغرافيا كما التاريخ، ولكنهما محاطتان من جميع الجهات ببقايا حقيقة لمبان عديدة توضح تماماً هوية المكان السائدة. ولو كنت قد علمت، كما اخبرني بعد ذلك السيد "ريج" المقيم الانجليزي في بغداد بأنني او اي رحلة اوربي قد زار ابداً تلك المدينة الشهيرة من بعده، لكنت قمت بدراسة تلك المنطقة باهتمام اكبر وتعمق اكثر في تلك الاطلال التي لم ينجح الزمن بعد في ازالتها. ومهما كان الامر، فانني استطيع ان اؤكد انه يمكن التمييز بان عدم استواء الارض يمكن في الانقاض المترامية في خطوط مستقيمة متوازية . في اتجاه واحد. بل حتى الارض التي سوتها الامطار ما زالت تظهر بقايا اطلال في كل مكان. وكانت تلك الاطلال متميزة جداً لكي تثير اهتمامي وحتى دون ان اعرف فوق اي ارض اسيير. ولانه فقط، وحين بدأت ادون وصف ذلك المكان لدى وصولي بغداد، حتى تذكرت موقع مدينة ما كنت اتوقع ابداً ان اجد لها اثراً.

وفي الثلاثين من الشهر، انضم اليانا تاجر كان عائداً الى بغداد وكذلك احد الرسل الذي ارسله "الشيخ محمود" الى ربوع الشيخ حمود شقيقه. واستمر طريقنا وسط صحراء قاحلة. وبشكل عام كانت المسافة من الشطرة الى بغداد لاتقدم الا ارضاً قفرة مجدهبة قاحلة لا ترى فيها الا عزلة تامة الا بعض الخيام هنا وهناك حيث نرى بعض النباتات سريعة النمو والتي لا تحتاج الا الى القليل من الجهد. ولم نجد ولا قطرة ماء اثناء مسیرتنا التي استغرقت عشرين ميلاً. ولأن الجو كان ثقيلاً جداً فلم نشعر بالعطش بشكل كبير، ولكن ارسلت لنا الريح سحابة من الاتربة عصفت في وجوهنا. ومع ذلك

فهذا قليل بمقارنة انه في اية لحظة يمكن ان يبرز لدينا موضوع يتثير القلق. ففي تلك اللحظة ظهرت فجأة مجموعة من خمسة اعراب على خيولهم القوية. من وراء اكمة صغيرة واساروا لنا بسهامهم الموجهة نحونا لكي نتوقف مما اربكتنا لدرجة لم يتتوفر لنا الوقت للدفاع عن انفسنا، ولكنهم عندما رأوا اننا جماعة، اخذوا موقفاً سلبياً. وتركونا نواصل طريقنا بهدوء ووصلنا (الحي) مع الظهر، وهي قرية صغيرة تقع على شاطئ نهر يحمل نفس التسمية، حيث استضافنا اهلها في احد الاكواخ.

واصبح امامنا طريقان لنختار بينهما، ثم نواصل طريقنا: طريق يمر بمدينة تسمى (كول العُمرا؟) [اهي العمارة -المترجمة]، وهي منطقة يصب فيها نهر الحي في نهر دجلة. والطريق الثاني يمر بمدينة الحلة ليس بعيداً عن بابل. ووقعنا في حيرة كبيرة بسبب كثرة الاراء والنصائح وتعدد وجهات النظر. واخيراً قرر التركي ان نسلك الطريق الثاني. ولازنني كنت اترک له بشكل عام حرية الاختيار في هذه النقطة بالذات، امتنينا خيولنا واخذنا نعبر النهر محاولين البحث عن المكان الذي يمكن الخوض فيه. واصبح لدينا الان موكباً من خمسة الى ستة فرسان يمتطون خيولاً قوية. ولكن التيار السريع سحب خادمي وحصانه الهزيل وكاد يفقد حياته لو لا بسالة من يرافقوننا، فقاوموا بسرعة شدة التيار حيث كان المكان بعمق اربعة الى ستة اقدام، ونجحوا في انقاذه وحصانه الهزيل.

وفي الساعة الواحدة، توقفنا امام مرابع احدى قبائل الشيخ حمود، والتي نصبت خيامها بعيداً عن ضواحي العاصمة بحثاً عن المراعي لقطعنها العديدة. وقد نصبت هذه القبيلة خيامها بعيداً عن محيط العاصمة لكي تجد المراعي المناسبة لقطعنها العديدة. وما كادوا ينتهيون من نصب خيام الرؤساء حتى وصلنا اليهم. وفي هذه الاثناء قدمنا مراسلاً للشيخ محمود لاحد هؤلاء الزعماء واستضافونا

باحسن ماتكون اصول الضيافة. ((ان ذلك مداعاة للارتياب - قال لنا المراسل- عندما يلتقي الاخوان حيث اتينا من منطقة تسودها القلقل والاضطربات، بل حتى انني مندهش جداً لانكم مررتم امام طلائعا ولم يهاجموكم)). وخبرناه اننا كنا محظوظين جداً عندما يصحبنا مراسل الشيخ محمود. ولكنه اجابنا بقوله: بأنه كان محظوظاً في لحظة كهذه بان بقيت راسه فوق اكتافه. وكان تأكيده قوياً جداً على ذلك. ولكن وفي الصحراء فان المبالغة مسمومة للتعبير عن الرأى في حالات المقارنة.

لقد كانت الاخبار التي وصلتنا حول الاحداث الجارية بالقرب من بغداد متناقضة جداً ولحد الان. ولم نستطع الحصول على اية انباء مطمئنة جداً حول الوضاع من هؤلاء المحاربين فارائهم مختلفة جداً. ومهما كان الفريق المنتصر، يبدو ان الامر كانت تسير نحو الازمة. بل انهم كانوا حتى يعتقدون ان جيشهم قد هاجم داود افندى. وفقط بعد ان وجدوا انفسهم بعيدين عن جيشهم، اعتقدوا ان له الافضليه، لانهم لم يطلبوا منهم اي عون. وكان ذلك كافياً لكي نعرف ماذا يجب علينا قوله. واصبح البasha موضوعاً لمدائينا.

وكانت تلك القوات العسكرية حقاً، فهي نخبة القبائل. ولا يوجد في خيامهم سوى القليل من النساء ولا يوجد اطفال. وبقوا في الكوت حتى لا يعيقوا العمليات الحربية وحيث نرى ان سرعتهم وخفة حركتهم كانت ل المؤمن النجاح. اما الشيوخ القلائل الذين نراهم بين صفوفهم فمن المحاربين الفضلاء الذين يمتلكون خيولهم بكل مهارة وامكانية، ثمرة العادات الطويلة. تغير لون شعرهم، ولكن بقيت قوتهم هي هي نفسها. فمنهم من خدم في صفوف الجيش اربعين سنة، ولكنهم ظلوا اقوىاء وبنفس قوة رفاقهم ولا يتميزون عنهم الا بلون لحاظهم وآثار الجروح التي تغطيهم. وعرضوا علينا وتملؤهم مشاعر الفخر، جمال سيوفهم وحدة

نصالها. وخفة رماحهم وهم يق江山ون علينا قصص بطولاتهم السابقة ورغبتهم العارمة في ان يسجلوا بطولات جديدة.

وبعد ان فحصوا سيفي، طلبوا رؤية مسدساتي واعجبتهم جداً فنية الصناعة رغم بساطتها. اتني ارى ان سبب قوة وقدرة تلك القوات، هو تلك الشجاعة التي تجعلهم يتحملون جميع انواع المتابع وصنوف الحرمان وليس فقط كمال ودقة اسلحتهم بل ايضاً تلك القدرة والصبر وهدوء خيولهم. ونستطيع القول دون مبالغة انها كانت اجمل ما رأينا من خيول كما كانت جمالهم العديدة تملأ المكان كله. والذي يمكن لانظارنا ان تختويه.

وبعد الظهر، اتيحت لي فرصة الاقتناع بحسن الضيافة والذي يوضحه ذلك الاهتمام الكبير واللطف واللباقة في التعامل، وهي صورة واضحة رائعة تدل على اعراف وعادات اولئك البدو الرحيل في تعاملهم مع الاجنبي الذي يكون في ضيافتهم. وقد تجرأت قليلاً وابديت رغبتي في الحصول على بعض الحليب. ولم يكن لديهم ذلك في مرابعهم. فبعثوا برجل وثاني وثالث في عدة اتجاهات بحثاً عن الحليب. وليس الحليب فقط، بل ان الماء كذلك نادر وفي حالة مزرية. ومررت ساعتان ولم يعد احد منهم، فطلبت آنذاك بضع قطرات من الماء. وفي ذات الوقت وصل بعض الرجال في غاية التعب، حيث كان بعض العرب قد رحلوا من تلقاء انفسهم بحثاً عن الحليب، بل انهم قطعوا العديد من الاميال للحصول عليه. ان صورة الكرم تلك تجدها فقط في اعمق الجزيرة العربية. ووسط صحاريه ولدى تلك القبائل الفقيرة المختلفة حيث وجدتني محوراً لا هتمام مثير للحرج. ولم تكن دوافعهم مطلقاً الحصول على جزاء مقابل ذلك الكرم. لا، انه شعور اكثر نبلًا، واكثر كرماً يحرك البدوي للقيام بواجبات الضيافة على افضل ماتكون عليه تلك الاعراف.

وفي المساء، لاحظت بعض التوتر بين التركي والرسول الذي رافقنا منذ مغادرتنا واسط. وواقع الامر انه قد جاعني خادمي في صبيحة اليوم التالي ليقول لي انه من المستحيل ان نغادر لأن التركي قد اشتبك في عراقي شديد مع المراسل الذي رافقنا بخصوص المبلغ الذي طلبه المراسل مقابل خدماته. وقد شعرت آنذاك بالحزن والخجل. وبعيداً عن المبلغ الذي وعدته به فان التركي قد حصل مقدماً على المال الضروري لتفطية مصاريف الطريق. وقد قدم تلك المصاريف ثلاثة اشخاص مختلفين: انا والمتصرف والمقيم الانجليزي. والآن يتسبب في حدوث تأخير جديد للرحلة عندما يرفض دفع المال لآباء آخرين. استدعيته في الحال، واحبته اثني في امان تام في المخيم اكثر مما يشعر به وهو التركي، الذي ما فتئ يثير الكثيرين، بل اثني قلت له اذا ما لم يكن كل شيء معداً للرحيل خلال ساعة، فلسوف ادفع الضعف للدليل واستمر انا في الرحلة واتركه ورأي لحاله يتصرف كيفما يشاء، كما اثني لن ادفع له المكافأة التي وعدته بها. وكان المسكين يردد له لن يتحرك حتى ولو ضرب بقضيب الحديد. ولكنه عندما وجد اثني اتحدث في لهجة صارمة وتصميم واضح تراجع وانصاع للامر. وبعد ربع ساعة فقط جاعني ليخبرني انه قد اتم جميع الترتيبات لرحيلنا في الحال. ورحلنا في الحال.

ولم نكد نقطع بعض الطريق، حتى التقينا بطلائع جيش الشيخ حمود. وعندما رأوا رسولهم بيئنا، تيقنوا اثنا اصدقاء ولكنهم كانوا يتوجهون نحونا ورماحهم ممدودة في حالة الاستعداد للالتحام. لقد كان تقدمهم على هذا النحو مجرد طرفة لم استطع استساغتها. وذلك لأنهم ارادوا ان يظهروا لنا مهارتهم، لمسوا ملابسي برماحهم وسيوفهم لدرجة اثني شعرت ببعض الخوف. وكان يتوجب على ان اتخذ موقفاً، وتقبلت تحديتهم، وانا ابتسم، في كل لحظة كانوا يقتربون فيها مني وهم يلوحون

برماجهم وسيوفهم من فوق رأسي. ولكننا استطعنا ان نتفاداهم وتجنبهم ونحن نتوجه يميناً بالتدريج، ولكننا شاهدناهم ولاكثر من ساعة وهم يبتعدون عنا.

وكان عدم الانتظام هو الصفة التي يمكننا ان نعبر بها عن نظام مسيرتهم اذا ما استطاعت استخدام ذلك التعبير. ولم يكن هناك مايُعوق مسيرتهم تلك، فلاتوجد طرقات، ولا انهار ولا مساحات مزروعة. حتى انه لا توجد ارتال مدفعية او اي نوع من الاممتعة، سوى ما كانوا يحملونه خلف ظهورهم على الخيول او الجمال. ومع ذلك فقد كانوا يسيرون في ارتباك وفوضى ظاهرة من الصعب استيعابها، مما يدفع للاعتقاد ان كل قبيلة كانت تنتظم حول راية شيخها عندما نرى ان الجيش كله ينقسم الى كتل غير منتظمة. وسرنا صعوداً في طريقنا واستطعنا آنذاك ان نرى جيداً ان تلك الجموع تختلط ببعضها ثم تنفصل، وتعود من جديد كما يبدو اذا ماشاء لها القدر ذلك. والرؤساء، وهم قليلاً العدد كانوا يمتطون خيولاً اصيلة وافضل من الآخرين. وهم كبار السن وذوي الخبرة والامكانية المعروفة، كما انهم موضع احترام وتقدير خاصين، وهم يسيرون متقدماً اعلامهم التي تدلل ان شخصيات مرموقة توجد بين هذه الجموع. ومنعني من تقييم عددهم بشكل واضح، عدم انتظام صفوفهم هذا وارتكابهم ولكنني اميل للقول بأنه لا يوجد اقل من سبعة الى شانية آلاف محارب. بل ويمكن لقبيلة المنتفك وحدها ان تجند مايقرب الاثنين عشر الف رجل. وكما يبدو انهم يجب تجمعهم جميعاً كما انه من المحتمل ان بعض الحلفاء قد ارسلوا جيوشهم لتنضم لذلك الجيش. وعلمت ولاول مرة، ومن هذه القوات، تفاصيل اول انتصاراتهم والذي انتزعوها، تحت اسوار بغداد. ولأنه قد ستحت لي الفرصة ان اتحدث عن ذلك الموضوع فيما بعد فسألتوقف هنا عند القول بأن هذا النجاح الاول للهدف الذي دافعوا عنه قد زاد من اندفاعهم وحماسهم بل وملأهم ثقة تامة بالنفس.

لقد قضينا سبع ساعات في الطريق حتى صارت الخامسة، عندما رأيت التركي يجتمع خلسة مع دليلنا ورایتهما يتراكما على الطريق الذي نسلكه ليقودنا إلى العاصمة، واستدارا عائدين نحو الجنوب. وسألتهما عن السبب فأجابني بأنه من المناسب أن نزور الشيخ حمود حيث كان يحمل دليلاً رسائل هامة موجهة إليه. ويبدو أن الشيخ كان قد مر بنا دون أن نراه، وأنه يجب علينا العودة. ولم يكن معروفاً عنـي إنـي صبور، فقد فقدت صبرـي تماماً، وكان الاتفاق مع الدليل، هو أن نذهب مباشرة إلى العاصمة مقابل ثلاثين قرشاً، وها هو يريد أن نعود ادراجـنا لقطعـ ثلاثـين ميلـاً زـيـادة، وهو ما يـعمل على تـأخـيرـنا يـومـاً أخـراً. واعتقدت أنـ الرجلـينـ يـبـدـيـانـ بـعـضـ الذـكـاءـ وـاتـخذـتـ موـقـفيـ فيـ الـحـالـ. وـاعـلـنـتـ لـهـمـاـ اـنـيـ لـنـ اـخـطـوـ خـطـوـةـ وـاحـدـةـ لـلـوـرـاءـ،ـ وـانـيـ اـعـرـفـ جـيـداـ الـاتـجـاهـ الـعـامـ لـلـطـرـيقـ وـاسـتـطـيـعـ وـحدـىـ اـكـمـالـ الطـرـيقـ إـلـىـ بـغـدـادـ. وـطـلـبـتـ مـنـ خـادـمـيـ انـ يـرـافـقـنـيـ انـ اـرـادـ ذـلـكـ،ـ وـلـانـتـاـ لـاـنـسـطـطـيـعـ الـاسـتـقـنـاءـ عـنـ دـلـيـلـ،ـ وـلـسـوـفـ تـتـعـرـضـ لـلـهـجـوـمـ دـونـ شـكـ.ـ وـعـنـدـمـاـ رـأـيـتـهـ مـتـرـدـداـ،ـ طـلـبـتـ مـنـهـ اـرـجـاعـ الـمـسـدـسـيـنـ الـذـيـنـ اـعـطـيـتـهـمـ اـيـاهـ وـرـحـلـتـ وـحـيدـاـ.

ولم يتأخر التركي في اللحاق بي، وبلغت به الوقاحة أن سحب لجام حصاني. ولكنه عندما رأى مسدسي موجهاً لصدره. ابتعد وهو يُمطرني بالشتائم، قائلاً بانتي سوف اعاقب على تهوري. وواصلت طريقـي دون أن اغير اهتماماً لتهديداته، وذلك على الرغم -وأقول الحق- إنـيـ كنتـ قـلـقاـ حولـ نـتـائـجـ حـيـلـتـيـ.ـ وـاخـرـاـ،ـ رـأـيـتـ خـادـمـيـ يـلـحـقـ بـيـ لـيـقـولـ لـيـ انـ التـرـكـيـ وـحـدـهـ هوـ المـسـؤـولـ وـانـ رـحـلـتـنـاـ لـاـتـحـمـلـ التـأـخـيرـ بـلـ لـاـيـوـجـدـ مـاـ يـعـيـقـهـاـ.ـ ثـمـ جاءـ التـرـكـيـ وـالـدـلـيـلـ وـهـمـاـ يـوـجـهـانـ لـيـ الـاعـذـارـاتـ،ـ بـلـ اـنـتـيـ اـعـرـفـ اـنـهـمـ عـادـاـ وـعـلـىـ سـيـمـاـهـمـ عـلامـاتـ الـحـبـورـ.ـ وـبـقـيـتـ لـوـحـدـىـ سـاعـةـ كـامـلـةـ،ـ وـرـأـيـتـ انـ التـرـكـيـ الغـرـيبـ الـاطـوارـ قدـ خـضـعـ تـامـاـ،ـ وـذـلـكـ حـتـىـ لـاـيـفـقـ الـمـكـافـأـةـ

الموعودة. ولكنه اخذ وقتاً طويلاً ليقتنع وليقرر البقاء معنا، واقول الحق، ان تلك الساعة كانت من اكثر الساعات قلقاً قضيتها حتى الان.

ومنذ الحادية عشرة مساءً، وصلنا مرابع خيام عربية حيث استقبلونا بالترحاب وحسن الضيافة المعروفة لدى البدو جميماً. ولم تكن تلك القبيلة فقيرة حسبيماً رأينا داخل الخيمة. وكانت علاقتهم ضعيفة مع غيرهم من القبائل.

وكان الشيخ مرتاحاً عندما قدمت له بعض التبغ، حدث قال لنا: ((انه منذ اسبوع لم يستخدم غليونه)). ورغم ان ذلك ليس مناسباً. فقد قال بنوع من الرقة -ان نطلب معروفاً من الغرباء الذين يقبلون بضيافتنا، وقد اعرب بذلك عن شعوره بالامتنان.

وفي الساعة السابعة صباحاً، في الثاني من فبراير، استأنفنا الرحلة. وقد اخبرنا الشيخ "سوق Choke"، مضيقنا بالامس، باننا لن نرى احداً على الطريق بسبب مرور الجيش وابتعاد جميع القبائل الصغيرة من الطريق. وفي الحقيقة لم نر ولا خيمة صغيرة واحدة، ولا اي مسافر ووجدنا انفسنا مضطرين الى البقاء في الهواء الطلق، لكي نعد القهوة وتترك خيولنا ترتاح قليلاً. وانطلقنا بعد ساعتين في رحلتنا. ولكن مع حلول التاسعة والنصف اصبح الهواء بارداً جداً وقال دليلنا انه من المستحيل الذهاب الى ابعد من ذلك. اما التوقف لتفادي البرد كان بالنسبة لي الجنون بعينه. ولكنني فيما بعد ایقنت العكس تماماً على غير المعتاد. وانغرست في الرمال التي جمعتها الرياح وكانت آذاك في حال افضل حتى انني نمت وقد غلبني النعاس ولكنني ظللت ممسكاً بلجام حصاني. وصحوت في الواحدة صباحاً منهكاً وكان من الصعب على ان اقف بسبب الرمال من حولي، ناديت رفافي واستطعت اقناعهم بالرحيل في الحال. ولكنني في هذه المرة قررت ان استجيب لتوجيهاتهم ولاته بعد

ان قاسيينا من البرد لساعتين اضطررنا للنوم من جديد. وقال لنا الدليل اننا امام الحلة وانه يمكننا ان نضل الطريق اذا ما اصرينا على الرحيل في هذه الظلمة. وقبل الفجر تماماً، اعلمنا دليلنا العربي الكهل وهو يمتنع حسانه، اننا نقترب من اطلال بابل، وهو مكان يزوره السياح غالباً. ولاحظت ان بعض الشكوك تنتابه بخصوصي ولكن الوقت لم يحن بعد لكي اكشف له عن حقيقتي. وقد بدأ النهار يبرغ، ولكن الجو ظل مظلماً بسبب الغبار الاحمر الكثيف الذي اثارته ريح الشمال. وكان حقيقة، وانه من الصعب التشكك بذلك، ان ذلك السهل الذي قطعناه كان موقعاً لمبان منتشرة جداً واقيمت في ازمان بعيدة جداً في الماضي وذلك لأننا لم نشاهد بعد و كما قال لنا دليلنا سوى اراضي غير مستوية، وفي مكان صغير ضيق جداً وعلى قمة تلة بعض الاحجار وقرميد احمر كشفت عنهم الامطار جزئياً. ولكن ونحن نتقدم شعرت ببعض القناعة تغزو فكري وانتهيت بأنه لم يعد لدي شك في تلك الاثار.

وقد احتفظت بالفصل التالي للحديث عن ذلك الموضوع الهام. وانني اعترف بصراحة، وهو اعتراف لا يُقدم عليه الكثيرون من المسافرين الاقرار به، اعترف بانني لم استطع دراسة تلك الاطلال الشهيرة بكل الاهتمام الذي تستحقه والذي اردت فعلاً ان ادرسه. ولكنني ومنذ غادرت، وابتعدت قليلاً في الطريق الذي قطعناه ازعجني جداً رفاق الرحلة وخاصة خادمي الذي كان يتصور في كل خطوة انه رأى اعرابياً او قاطع طريق. ولكنني وعند وصولي الى بغداد، اسعدني جداً الحصول على المعلومات الكافية الصحيحة التي كنت اريد، والتي بفضلها على وجه الخصوص سأحاول الحديث عن ذلك الموضوع الذي لن استطيع الخوض فيه بدونها.

الفصل السابع

اطلال بابل، اللقاء مع احدى القوافل، سرقة احد الادلاء، قنوات قديمة،

اطلال سلوقيا Seleucia وطيسفون Ctesiphon

رعب بلا داع، الوصول الى بغداد

لم يتبق من موقع تلك المدن الشهيرة التي اندثرت منذ زمن بعيد، والتي تعرفنا عليها سوى الاسم كما يراها الدارس السطحي، ذلك الرجل الذي يربط الحكم الرصين بسعة العلم، بل ويحدث طبعاً في وصل ذكريات التاريخ ببقياها اطلاق قليلة ولا يمكن مع ذلك معارضته. وتلك كانت طريقة اتبعها الضابط "رينيل Rennel" الجغرافي الشهير الذي تحدث عن هوية تلك الاطلال ولا يستطيع ان انقلها تماماً. وقد لخص تلك الهوية هكذا: اولاً: استناداً على كتابات الشرقيين. ثانياً: استناداً على ملاحظات الكتاب القدماء كما هيروdot، وديودور وسترابون وكتتيكورس وغيرهم. والتي تتفق مع الاراء والموروث الشرقي القديم، وثالثاً: على التقريب بين تلك المعلومات القديمة وآراء الرحالة المحدثين حول تلك الاطلال. وبعد حصولنا على تلك الدراسات العلمية حول هذا الموضوع المثير، فلم يتبق للرحلة الا ان يضيف شهادته الخاصة استناداً على البراهين التي تقرر وجود الاطلال التي تتلاعماً وتلك المساحة الممتدة من الارض المعروفة ببابل. ونعرف انه غالباً ما اختلط موقع تلك المدينة الشهيرة بموقع مدينة سلوقيا وطيسفون وحتى بغداد. ولكنني اهنى نفس بحصولي على فرصة كتلك التي حصل عليها السيد "ريج Rich" وغيره من الرحالة المحدثين لدراسة بقاء تلك الاثار المميزة

التي تشير بشكل واف للموقع الخاصة لتلك المدن الثلاث الكبيرة التي دمرتها يد الزمن. بابل، وسلوقيا وطيسفون اندثرت كلها وبقيت بغداد. ما الذي بقى من بابل في الوقت الحاضر؟ تلك المدينة التي كانت عاصمة كلدونيا والتي اسسها نمرود او تبليوس وعمل "نينوس Ninus" على توسيعها وعملت على تجميلها سمير اميس^{*}، اما الذي بقى منها، بقى الاسم وكتابات هؤلاء العلماء التي تتحدث عن المآثر والعجائب التي لم يبق لها اثر ولكن خلدها هؤلاء. ونحن نبتعد من مرحلة لاخري في سيرنا نرى مرتفعاً ارضياً اشبه بقبر كبير.. يا الهي، ذلك القبر الكبير الذي يضم رفات ملكة الامم تلك، بمجدها وعظمتها وعجائبها؟ واكتشفنا في تلك المناطق الممتدة العديدة اطلاقاً تتحدث عن ثروة ونشاط سكان دول اندثرت تماماً. ولكن من المؤكد ان موقعها وامتدادها ونوعية ادواتها تتواافق والمعلومات التي يقدمها التاريخ لكي نستطيع التحدث عن هوية. ولنلق نظرة سريعة اذن على تاريخ اصول تلك المدينة الشهيرة ونحن نتحدث عن مجدها وشهرتها بل وعن انهيارها المتواصل المتزايد. واما تاريخ بداياتها وصولاً الى الفرضيات التي يقدمها الانسان¹، فقد كان مقدراً لها ان تكون موضوعاً واضحاً صارخاً للانتقام الالهي وتحقيق النبوءات التي لا مفر منها، فقد تنبأ لها "أشعيا Ishaie" بالسقوط وبالدمار الشامل⁷. لقد كانت تفخر آنذاك بابوابها المائة المصنوعة من النحاس والتي تدور حول محاور نحاسية. واسوارها مغطاة بالملاط والقير المعدني. وتحضن تلك الاسوار ثلاثة وثمانين وستين ملعباً او

^{*}آشورية وليس بابلية. [المترجمة]

⁶ Gen, Chap. XI, Vers H., etils Girent: "Batissons une cite'et ueue tour don't le somuet touché au ciel,l et faiscaensous ua now".

⁷ Isaie, chap. XIII, XIV, XXI, XLIII, XLIV, XLV, XIXi, XLVII, Jeremie, chap. XXV, L, LI.

مساحة تبلغ ستة واربعين ميلاً. ويبلغ سمك جدرانها اثنان وثلاثون قدماً وارتفاعها خمسة وسبعون قدماً. وتدفع عنها ابراج ترتفع فوق الاسوار الى ارتفاع اثنى عشر قدماً. وداخل الاسوار يوجد معبد حُصصي لـ "بيلوس Be'lus" يرتفع وسطه برج يبلغ ارتفاعه ستمائة وثمانون قدماً شيد على مساحة ربع ميل. وجنائنها الفخمة المعلقة، احدى عجائب الدنيا.

وهناك وسط كل ذلك، شيد قصر كبير على مساحة ميلين ونصف الميل، تدفع عنه ابراج ارتفاعها مائة وعشرة اقدام. وتراه يرتفع في عظمة بين قصور عديدة لاحصر لها تزيين المدينة. ويوجد جسر حجري طوله ستمائة وثمانون قدماً وعرضه ثلاثون ليعبر الفرات. وتحيط شطان النهر ارصفة رائعة، الى جانب وجود كهوف كبيرة فسيحة تستخدمن لاستقبال وتخزين فائض المياه ولتكون عبر الازمنة مخازن لاينفذ مياها للزراعة وللعلاقات التجارية لتلك المدينة عملت على تسهيل الاتصالات بالخليج الفارسي. فقد كان النهر صالحًا للملاحة، تبحر فيه سفن كبيرة تبحر من ميناء لباس به ويستقبل بواسطة قناة تتصل بدجلة^٨، نتاجات جميع البلدان الواقعة الى الشمال حتى جسر (اوكتسين) وبحر قزوين.

ذلك كان هو الوصف الاعتيادي الذي قدمه لنا الكتاب القدماء وتعليقات الكتاب المحدثين على تلك الكتابات، والذين جعل الجميع منهم تلك المدينة الكبيرة الشهيرة فخرًا لكل الممالك. وتلك كانت بابل في

^٨ انجزت تشييد ذلك القناة "سپین امیس" وعملت على تحسين الملاحة فيها وفي نهر الفرات والتي كانت تملك كما يقال اسطول قوامه ثلاثة الاف سفينة وتم اصلاحه وتحسينه في عهد نبوخذنصر، وكان يسمى نهر الملكة. ورغم انه الان قد جف تقربياً الا انه كان مفيداً ولازال للزراعة حتى في عصر الخلافة في بغداد. ويستطيع العلماء العودة الى كتابات هيرودوت، الجزء الاول، ص ١٩٤، والجزء الاول، ص ١٨٤، وكذلك سترايون، الكتاب الرابع عشر او العودة كذلك الى كتابات "هويت"، تاريخ التجارة، الفصل الحادي عشر.

عصور مجدها وازدهارها. فما الذي بقى اليوم ليذكرنا بوجودها وليرقدم لنا الموقع الذي كانت تحتله. لاشئ! سوى تحقيق النبوءات التي تنبأت بافول ذلك المجد وانهيارها التام، مما يدفعنا لقبول تلك الاطلال القليلة المتطرفة بالكاد كما هوية جديدة للمكان.

ما الذي حدث لمسرح الاحداث ذلك حيث كانت التجارة وتطورها المحفز لجميع النشاطات التي دارت فوقه، وحيث ساد الطموح والترف والمسرات والفسق والفحور وجميع العواطف التي ترفع من شأن الانسانية او تنزل بها الى الحضيض. ما هو مصير تلك الجموع التي كانت تملأ الشوارع العديدة قديماً؟ تلك الجموع التي انقسمت في المللذات بلهفة لاتشيع والذين وصفهم "كنت كورس" بأنهم الجنس الاكثر فساداً والاكثر فجوراً الذي عاش على هذه الارض⁹ ما هو مصير اولئك الاباء عديمي الحياة الذين يقدمون بناتهم لممارسة الدعارة؟ او هؤلاء الازواج الذين يشجعون نساءهم على خيانة الحياة الزوجية والاتجار بشرفهم. وهؤلاء النساء من الطبقات الراقية والاصول الرفيعة واللاتي يقمن بكل انواع الفسق والفحور، وبعد ان تلعب الخمر برؤوسهن وتسكرهن العواطف يستعرضن انفسهن عرايا امام نظرات الجمهور؟ كل ذلك قد انقرض واندثر الان! ولان ذلك مكتوب: (بابل) مجد الممالك وثمرة ابداع الكلدانين لقيت نفس مصير (سادوم) و(عامورية) عندما قلبت كلمة الاله

⁹ Quinte-Curce; liv-5- “Nihil urbis ejus corruptius moribus, nee ad irritandas illiciendasque immodicas voluptates instructius. – Liberos tonjugesque cum hospitibus stupor coire, modo pertium flagitii detur, parentes maritique patiuntur. – Convivales Ludi tota Perside regibus purpuratisque cordi sunt. Babylonii maxime in vinum et quae ebrietatem sequuntur, effuse sun. -Faeminarum convivia ineurtium in principio modestus est habitus: dein summu quecque amicula exuunt, paulatimque pudorem profanant. – Ad ullimum (bonos auribus sit) ima corporum velamenta projiciunt. Nec meretricum hoc dedecus est, sed matronarum, virumque, apud quos comitas habetur vulgati copoiris vilitas.”

حياتها. لم يعد يسكنها احد ولا جيال عديدة، ولم يعد يأتي الاعراب لينصبوا ولو خيمة واحدة، بل ولا يتوقف فيها الرعاة مطلقاً لرعى اغناهم^{١٠}. واذ نحن قد آمنا كما نفعل دوماً بالروح الالهية، فلن يدهشنا ابداً انه لم يتبق اي اثر خارجي متتطور من تلك المدينة الكبيرة الشهيره، واننا يجب ان نُعجب بذلك الانجاز الصارم للكلمة. كُلُّ ما كان قد كتب تحقق وبامتياز. ولربما وجدنا اثراً صغيراً اذا ما كشفنا فقط تلك المرتفعات الارضية يمكن ان يذكرنا باسوارها العالية ومعابدها المدنسة وقصورها الفخمة.

ومنذ عصور موغلة في القدم^{١١}، كانت اعمال البناء في الشرق تستخدم الطابوق النئ والطين والصلصال ويخلطونها بالقش والخيزران لاعطاء الخليط بعض الصلابة. ويتم تجفيفها تحت اشعة الشمس. وقد تم تشييد اسوار بابل وغيرها من المباني العامة باستخدام الطابوق النئ او الطابوق والملاط الاسمنتى. ومن السهل اذن معرفة كيف تتأثر مواد من هذا النوع بعوامل الزمن والتعرية والامطار. وقبل ان نبدأ بوصف تلك الاطلال التي نستخرج وجودها من مذكرات السيد "ريج" المقيم الانجليزي في بغداد^{١٢} سيكون من المفيد لنا القيام بدراسة تلك الاطلال او

^{١٠} Estate, chap. XIII, vers. 19-22.

^{١١} De`s le temps de la captivite' d'Egypte nous voyons pharaon dire a ses officiers: "Nous ne leur donnerons plus de paille pour faire des briques, comme nous l'avans fait jusqu`ici. Qu`ils aillent ramasser de la paille pour eux".

^{١٢} Ce memoire parut originairement dans un journal intitule': *Mines de l'Orient*. J'eus l'avantage de coinsulter Poriginal et de jouir de la converstation de l'anteeur pendant jouissait se'jour a Bagdad. Personae ne pouvait se livrer 'a ces recherches avec plus d'espoir de success que M. Rich, car sans parler de ses canaissances profondes sa place et la consideration dont il jouissait aupre's du gouvernement du Pacha lui offraient toutes les facilites qu'il pouvait de'sirer.

تلك البقايا التي مازالت موجودة من مدينة بابل والتي تتكون في ذلك المرتفع الارضي الذي تكون من تحلل تلك الابنية التي دمرها الزمن والتي مازالت توجد على سطحها بعض قطع الطابوق والقير والوااني الفخارية. انها البقايا التي يمكن رؤيتها كما ان وفرة تلك المواد تبرهن بما فيه الكفاية ان هذا الموقع الصحراوي كان موقعاً لمدينة كبيرة شهيرة.

وتبدأ الاطلال على الشاطئ الشرقي للنهر، على بعد ميلين فوق الحلة وتغطي منطقة مستطيلة الشكل وغير متساوية مساحتها ميلين ونصف الميل وحتى الى الثالثة¹³ والكومتين الاوليين المستطيلتين المجاورتين تقعان الى الشمال والجنوب الواحدة مقابل الاخرى، وتقدم خطاً محدوداً نحو اليمين، واذا ما صعدت الى اليسار وبالقرب من النهر يوجد شاطئ اكثراً ارتفاعاً مكوناً حداً فاصلاً واضحاً ومحدوداً. ويتميز السيد "ريج" الكتلة الكبيرة الاولى باسم عمران وذلك احتراماً لمعلومة تركية مثيرة للسخرية اطلقت عليه تلك التسمية. ويقدر طول تلك الكتلة من الانقضاض بالف ومائة ياردة، وعرضها ثمانمائة ياردة، وارتفاع اكبر كومة منها بحوالى ستين قدماً فوق سطح السهل. ويقول انها تحوي القليل من ذلك الطابوق المفخور في الافران والذي كان يستخدم عادة لتشييد المبني الكبير. ((واد نحن نتقدم نحو الشمال، اضاف قائلاً، نلتقي بكتلة الانقضاض الكبيرة الثانية وهي على

¹³ M. Rich donne deux milles et 600 yards (a) de largeur, et environ 600 yards de plus de longueur, a l'espace que les ruines se trouvent en ge'ne'ral occupier. En supposant, ce qui n'est pas improbable, que la riviere a usurpe` sur les terres, cet espace oblong deviendrait preaque un carre` parfait, et occuperait une etendue de dix milles 1, 28 yards, ou bien pres de oaze milles; ce qui a huit stades le mille, correspondrait aux quatre-viogt-dix stades auxquelles on estime ordinairement la ejrconference de l'espace interieur qui etait occupe pasr dea batimens, suivant la description de Quinte-Curcew, Liv. 5; ectte conuncidence parait remarquable.

(a) Le yard vant trios piods anglais (9.5 millimeters).

شكل مربع تقريباً ضلعاً سبعمائة ياردة. وترتبط زاويته الجنوبية الشرقية بالزاوية الشمالية الشرقية للكتلة المعروفة باسم عمران وبارتفاع واضح عرضه مائة ياردة تقريباً)).

انه المكان الذي تحدث عنه الكثيرون ، ويتفق الجميع انه المكان الاكثر اثارة في اطلال بابل، حيث تدلل جميع الاثار التي وجدت فيه على انه كانت توجد مبان فخمة عالية جداً، بل واعلى من تلك التي بقيت اثارها في المنطقة الشرقية، حيث الطابوق من اجمل الانواع. ورغم انه قد تم سحب الكثير منه، وما يتم سحبه منه يومياً فما زالت هناك كميات هائلة منه. وتعمل عملية سحب الطابوق بدورها على زيادة صعوبة عملية التعرف على توجه وشكل تلك المباني الاصلية. ولانه اذا اردنا التعرف على ذلك، ستري العمال يضربون في كل الاتجاهات ويحفرون في العمق ثم يرمون الانقاذه على السطح. وفي بعض الاماكن ولكي يصلوا الى الاساس كانوا يفتحون فتحات كبيرة وممرات جوفية وينتهي كل ذلك باحتواء العمال ودفنهم تحت الانقاذه لعدم وجود دعائم لتلك الفتحات.

وفي جميع هذه التنقيبات نرى جدراناً من الطابوق المحفور والمغطى بالجير والاسمنت. و الى جانب المواد المنتشرة بشكل عام على قمة تلك الاكواخ المرتفعة، نجد في حنایاها قطعاً وبقايا اوانی مرمرية وفخارية غاية في الجمال. وعدد اخر مصنوع من الرخام وكذلك كمية كبيرة من الفخاريات المتكسرة المطلية والتي ما زالت الوانها حيوية بشكل عجيب.

وفي احدى الحفر في الجانب الجنوبي وجد السيد "ريج" جرة جنائزية من الفخار كانت قد كسرت اثناء الحفر، كما وجد الى جانبها عظام انسان تتفتت عند اللمس. واكتشف كذلك صنماً من الجرانيت مرتفعاً جداً يمثل اسدًا وسط فمه فتحة مستديرة تتسع لقبضتا اليدين.

وعلى بعد خطوات من حفريات يقوم بها العمال، بحثاً عن الطابوق وجدوا شيئاً يستحق فعلاً الاهتمام، ويسميه أهل البلد بالقصر. وكانت التنقيبات على بعد مائة ياردة تقرباً إلى الشمال من الانقاض التي وصفناها سابقاً. ويوجد حائط متكملاً تقرباً يحمل طابوقة نقشاً مما يجعل من ذلك الموقع مكاناً مثيراً للاهتمام. انه بقايا اثار سرداب تعلوه قنطرة من الطابوق المغطى بالقير في حين نجد امثاله في ابنية اخرى مغطى بالاسمنت. ومازلتنا نرى في القصر كذلك بقايا جدران وبعض الممرات مشيدة باجمل الطابوق المفخور ومحاطة بالاسمنت والجير القوي المتماسك جداً، لدرجة ان العمال اوقفوا العمل فيها بسبب صلابته الشديدة التي تمنع استخراج الطابوق سليماً.

اما الاطلال المقلوبة، والتي يشبهها "دولافال" De Lavalle بالبرج الشهير في بيلوس وهو اعلى بل انه اخر بناء مرتفع من المباني التي تكونت هنا في تلك الكتل والاکوام الاساسية. التي يمر بها الرحالة مرور الكرام. ويتحدث عنها السيد "ريچ" بقوله: ((انها كتلة مستطيلة غير مستوية في ارتفاعها. وغير منتظمة في طول جوانبها التي تواجه الجهات الأربع)). ويصل طول الجانب الى الشمال مائتي ياردة، والجانب الى الجنوب مائتين وتسع عشرة ياردات. والجانب الشرقي مائة واثنتان وثمانين ياردة، وتلك الى الغرب تبلغ مائة وست وثلاثين ياردة. ويبلغ ارتفاع الزاوية الجنوبية- الشرقية وهي الاعلى، مائة واحدى واربعين ياردة. وواجهة الجانب الغربي هي الاوسع والاقل طولاً ولكنها مثيرة للاهتمام وذلك بسبب الاطلال التي تحتويها. ونرى فيها جداراً واطئاً مقطعاً في عدة جوانب ومشيداً بالطابوق النبي المغطى بالملاط الطيني وذا سمك كبير. وهو مكون من طبقات تخللها طبقة من القصب بين كل طبقة. اما الزاوية الجنوبية الغربية يعلوها نوع من الابراج او مجرد سراج

على شكل مصباح. اما باقي الزوايا فلم يحفظها الزمن تماماً ولكنها كان يمكن ان تكون في الاصل قد زينت بنفس طريقة الزوايا الاخرى. وقد حفرت الامطار في كل مكان احاديد عميقة. اما القمة فمغطاة بالانقاض وفي وسطها وجدنا ونحن نحفر طبقات من قطع الطابوق المحفور المغطى بالملاط ومن بينها طابوقاً متكاماً يحمل نقشاً. والكل مغطى بطبقات من كسور لا تخصى من الاواني الفخارية، وقطع القرميد والزلط وقطع الطابوق المزجج او تراب المعادن وقطعاً من الزجاج وحتى عروق اللؤلؤ. ولم نعد نتابع كثيراً تحركات السيد ريج في ابحاثه الدقيقة، وملحوظاته العلمية التي يمكنها ان تفقد الكثير من قيمتها اذا ما انتزعت من الاطار الذي وضعها فيه. لقد قدمنا وصفاً لبابل وهي في اوج مجدها، ولكننا لم نعد نرى سوى اكواخ من الركام وحتى بعض الاطلال المتفرقة التي لا يكاد يلاحظها المرء. ولكن اهم ما يجب ملاحظته في قصة افول وسقوط بابل، انه وبعيداً عن كل تلك الاسباب الطبيعية التي تسبق انهيار الامبراطوريات وتدميرها التام، انه قد تم التنبؤ بما حدث لها بشكل واضح وصريح تماماً وهو مسجل بدقة في الكتابات المقدسة.

لقد تم تحديد صفات مليكه في تلك الكتابات، غروره وقوسته وكفره ودنسه، ثم التوقيت وطريقة ادابة السقوط او سبب الانهيار. وكانت قمة مجد بابل في عهد نبوخذ نصر، ذلك الطاغية المغرور الذي قهر سوريا وفلسطين واورشليم ومصر، ويضاف الى ذلك القصة الحزينة للغضب الالهي، وقورش ادابة الاله الذي غزا بابل وغير مجرى الفرات وحطمت الدعامات وقضى على الامبراطورية الاشورية الثانية، التي كانت بابل عاصمتها وفخرها. ومنذ ذلك العصر اصبح ملوك فارس يفضلون مدنَا ك(همدان Ecbatan)، و(برسيبيولس Persepolis) واهملوا بابل تماماً ونهائياً. (١٥٣) وفي القرن الاول الميلادي لم تعد بابل سوى مدينة من

الدرجة الثانية او المكان الذي يحدد تاريخ رسالة "القديس بير Saint Pierre" الطويلة ومحل اقامة كبير قساوسة اليهود^{١٤}، (جرجان Hyrcan). اما في الوقت الحاضر فقد اصبح المكان مخبأً للحيوانات المتواحشة، بل نقطة في الصحراء.

بعد ذلك الاستطراد الذي دفعني اليه ذلك الموضوع المثير، وليس اهميته، او قيمة ملاحظاتنا الخاصة، يجب ان نسرع لاستئناف ما يخص رحلتنا.

وبعد ان تناولنا بعض القهوة في ظل واحدة من هذه الاكواام الصغيرة وحيث يمكننا رؤية ماوراء الاكواام، على بعد قليل، للاكواام الكبيرة الرئيسية للاطلال التي وصفناها آنفاً. واستأنفنا رحلتنا في الثالث من فبراير في الثامنة صباحاً. وكانت الرياح الشمالية الغربية شديدة جداً طوال الليل واثارت غيوماً من الاتربة ولم تتبدد رغم هدوء العاصفة. وفي الحادية عشرة كان الضباب الكثيف ولم يسمح لنا باعتقاد ان الشمس تميل نحو ظهر اليوم، اذ كانت مختفية تماماً وراء السحابات الرصاصية من الغبار الذي يلفنا جميعاً. اما النهار الذي ننتزعه من اشعتها المتقطعة والتي تشبه خسوفاً كاملاً لذلك النجم الذي يرسله ظهر احد ايام الشهور الاكثر حرارة. ولا نستطيع ان نرى على بعد اكثراً من ثلاثين خطوة منا، ويقول لنا دليانا دائمًا انه لا يدرى في اي اتجاه يمكنه ان يسير؟ بل اضاف بان تلك الظلمة جيدة بالنسبة لنا لأننا في الوقت الحاضر نسير وسط قبائل عدوة وانه من الصعب ربما ان نمر فيما بينها. وفي الواقع حدث ان سمعنا جلبة، وتبيّن لنا انها لقطعان عديدة من الجمال التي تمر بجوارنا ولكننا لم نستطع تمييز الحيوانات او هوية الاعراب الذين يمتطونها. اما خادمي فكان في حالة اندثار متواصل، بل

^{١٤} Joseph, Antiquit., Liv. Xv, c. 2.

واكد لي مرتين او ثلث ان خيوله السوداء عند خروجنا من البصرة
ستصبح رمادية عند وصولنا الى بغداد. وحتى التركي، قد بدأ يتفهم في
هذه المرة مدى الاخطار التي تحيق بنا في كل خطوة. وفجأة، وفي اللحظة
التي كنا ننتظر فيها اقل الاخطار، وجدنا انفسنا وسط قطيع من العديد
من الابل التي تملأ الطريق. ولكن وقت تراجعنا للخلف كان قد فات
آنذاك. وكنا جميعاً قلقين ولكننا اكتشفنا لحسن الحظ انها كانت قافلة
متوجهة الى بغداد. وتم اصطحاب التركي امام كبار التجار وكان يعرف
الكثيرين منهم وقد ظهر بينهم في افضل حالاته. وانا اخذت موقعاً جانبياً
لحين عودتي. ولكن، رأيت رسول الشيخ حمود وقد قبضوا عليه وانقضوا
عليه يريدون قتله مع محاولة خادمي والتركي ابعادهم عنه. ولم استطع
ان اتحمل رؤية دليلنا الامين ان يُضحي به امام عيني، فاسرعت نحوهم
حتى اخلصه من بين ايديهم. ولكنهم دفعوني بشراسة حتى اندفع التركي
يقول انتي انجليزي، مما اعاد الى ثقتي، واستطعت ان اظهر على حقيقتي
امام اهم كبار تجار القافلة الذين قاموا بانهاء المشكلة.

وعلمت فيما بعد ان قبيلة المنتفك قد هاجمت القافلة وعندما رأوا
دليلنا رسول الشيخ معنا، ارادوا ان ينزلوا به انتقامهم. وفي هذه الاجواء
الشبه ببربرية، اهم شئ لديهم هو اقرار العدالة. ولكنهم مع ذلك وفي هذه
الحالة قد قرروا اخلاق سبيل ضحيتهم.

والتجار الذين اصطحبونا في رحلتهم كانوا من بغداد ومن اصول
تركية وعربية. وعند حلول المساء قاموا بترتيب طرودهم وحقائبهم على
شكل كومة مستديرة، ورحلنا في اليوم التالي في الساعة الخامسة
صباحاً، وذلك لكي نصل بغداد في المساء. وما كدنا نقطع بضعة اميال،
حتى صاح دليلنا المسكين بأنه قد تمت سرقة ماله اي الخمسة وثلاثين
قرشاً التي اعطيتها له مقابل خدماته لي. وقد ظننت بادئ الامر انه قال

ذلك ليأخذ مني نقوداً أخرى، ولكن تصرفات التركي اقنعتني عكس وجهة نظري عندما صاح امامي مكرراً بأنه ليس المسؤول عن ذلك لاقناعي. وظهرت لي حقيقة وجوه المثل القائل "يد نظيفة، ضمير مرتاح" بخصوص تلك المسألة، وان ذلك التركي غريب الاطوار قد حاول الدفاع عن براءته قبل اتهامه بالسرقة. اما دليلنا فقد قال انه لم يشك مطلقاً ان يكون ماله قد سُرق اثناء نومه من قبل احد افراد القافلة. وقد اثار الحادث استياء التجار كما ان ذلك التركي ولاسبابه الخاصة كان صوته اعلى من الاخرين. وقال احد الشهود ان التركي هو الذي كان نائماً بجوار الدليل مما حول شكوكي الى حقيقة. فاعلنت وبدون تردد اتنى اظن ان "علي اغا" هو السارق واضفت انه قال لصديق مؤخراً انه لم يتبق لديه مال، فاذا كان لديه المال الزائد سيكون هو السارق.

وعندما رأى ان خدعته سوف تنكشف، لم يُبد اي قلق، بل كان ذكياً بما فيه الكفاية ليتراجع في الوقت المناسب، واذ ذاك اطلق ضحكة كبيرة واعاد المال قائلاً انه وجد المحفظة ملقة في الشارع وانه اراد فقط ان يخيف صديقه. ولكن عذرها كان متيناً جداً للشقة، في حين كان دليلنا سعيداً جداً ان استعاد ماله. ولكنه لم يُظهر رضاه تماماً ورغم انه ابتعد عن التركي بمسافة كبيرة الا انه لم يظهر للتركي اية ضغينة اثناء الرحالة. وبعد ان قطعنا اربع ساعات من الطريق، لاحظنا شطآن قنوات معينة كانت تقطع الطريق. انها بعض الاعمال الانشائية القديمة الازمة للزراعة، وقمنا بعبور بعضها بل اتنا كنا نسير غالباً في حماية تلك الشيطان متعمدين ان نتجمع في مجموعات مخافة التعرض لاي هجوم، ولانتنا ومع اقترابنا من العاصمة، فقد زاد الخطر خاصة مع القلقل التي اندلعت فيها. ان تلك الانشاءات الزراعية كانت تحتل مساحة كبيرة وما تبقى منها تقرباً حوالي

خمسة عشر ميلاً. وربما كان نهر الملكة كما كان يسمى او النهر الملكي الذي حفره نبوخذننصر الذي تحدثنا عنه سابقاً.

وابعد قليلاً، وفي اللحظة التي اقتربنا فيها من اطلال المدائن رأينا كتلة كبيرة من الجرانيت الاسود، يبلغ طولها سبعة اقدام، ربما كانت بقايا تمثال ضخم مفقود الرأس، ولكن الايدي كانت معقودة على الصدر على الطريقة الاسيوية احتراماً لمن هو اعلى مقاماً وبمك فقط رؤية اطراف القدم تحت الثوب الطويل الذي يرتديه في الاحتفالات. ولم نشاهد اية اطلال تدلل على وجود ابنية في الجوار القريب. وعندما تحدثت عن ذلك المكان لدى وجودي في بغداد، عرفت ان بعض الرحالة عند عودتهم من بابل قد رأوا اطلاقاً قيمة لاثار تعود للعالم القديم جداً الموغل في القدم، وانهم لم يتمكنوا من حملها لوزنها الثقيل وقد اثارت هذه البقايا المثيرة والمكسرة، اثارت اهتمامي باطلال المدائن التي نراها عن بعد. وسعدت جداً بحصولي في بغداد على الابعاد الحقيقة الدقيقة لطاق كسرى وكذلك ابعاد الارض حيث توجد تلك الاطلال، بل ويسعدني اكثر انني اتمكن من تقديم المعلومات الثمينة بدلاً من ملاحظات عامة لم اكد اجمعها.

وطاق كسرى، البقايا الرئيسية لقصر يعود لملك شهير يقع على بعد عشرين ميلاً جنوب - شرقي بغداد، وعلى بعد ميل من شط النهر حيث يشير الى موقع المدائن. وتلك الاطلال مثيرة جداً، واستناداً الى تجمعها في هذا المكان، لا يوجد ادنى شك في انها جزء من قصر فسيح، ومن ينظر اليها من بعيد، يرى انها ما زالت تحمل جلال العظمة التي انهارت وقد تم تشييد الطاق من الطابوق، الواحدة مساحتها قدم مربع وسمكتها ثلاثة بوصات. ويبلغ طول الواجهة مائة وخمسة وعشرين قدماً، وعرض الرواق ستة وثمانين قدماً والارتفاع مائة عشر.

ويبلغ طول القبة الداخلية من الشرق الى الغرب ستين قدماً. وتوجد في النصب فتحات كثيرة لدخول الهواء والضوء. والواجهة التي مازالت محفوظة جيداً هي واجهة الشرق ومليئة بالفتحات التي تشبه تلك الموجودة في الكنائس القوطية. في حين تهدمت الواجهة الغربية تماماً، بل وقد انهار جزء من القبة كذلك.

وعلي بعد يقارب الثلث ميل تقريباً من قصر كسرى، توجد مقبرة "سليمان باك" (سلمان الفارسي) وتحيطها اطلال جدران. في حين ترى الى الجنوب، وتقريباً في نصف المسافة ما بين النهر والطاق يوجد مسجد يحمل اسم (حذيفة بن اليمان). اما الاطلال التي تحدثنا عنها لحد الان، والتي قدمتنا لها وصفاً ناقصاً فتعود بالطبع الى المدائن، استناداً الى موقعها الاقرب الى النهر منها الى بغداد. وعلى الشاطئ المقابل لنهر دجلة، وبالقرب من المطاحن القديمة العائدة لبغداد، نجد بقايا مبانٍ يفترض انها كانت قديماً جزءاً من سلوقية. وقد اسس مملكة سلوقيه (سلوؤس-منكانور)، احد ضباط الاسكندر الاعظم والذي كان اول اجنبي يؤسس مملكة استورثت مجد وعظمة وترف بابل. وبسبب تأريخها القديم وموقعها، كان يجب ان تهمنا لنتحدث عنها قبل اهتمامنا بالمدائن، ولكن منظر طاق كسرى العظيم، اثار اهتمامنا في البداية. ولايكاد يتبقى اليوم شئ من سلوقيه كما من بابل: واتساع، ا يجب ان ترجع سبب ذلك للمواد المستخدمة في المبني الرئيسية او لاسباب ابعد من ذلك، ولكنني لن اطرق لهذا الموضوع. ومازالت نرى على الشاطئ الغربي لنهر دجلة كمية من الانقاض غير المحددة الشكل وكلما ابتعدنا نجد بعضاً من قطع الرخام او المرمر. والتي اعتقاد، انه اذا ما قمنا ببعض الابحاث المثابرة، لربما اكتشفنا تماثيل مشابهة لتلك الكتلة الجرانيتية التي شاهدناها وتحدثنا عنها سابقاً، والتي صادفناها على الطريق، وذلك لانه وفي جميع

المبني القوطية في الشرق التي رأيتها، لاحظت ذلك النوع من الزينة، تمثال ضخم مثل ذلك التمثال او مجموعة من التزيين بالتماثيل العديدة المرتبة وبشكل متناسق.

وبدأنا نرى عن بعد وبشكل متقطع مآذن بغداد، حين جاءنا أحد التجار من بداية القافلة ليقول لنا انه رأى فيلقاً من الفرسان وربما لن يكونوا سوى بعض البدو اعداء. وكنا جميعاً نميل لاتخاذ الحيطنة والحدر، وعملنا على تركيز قواتنا او عدتنا، والخطر التي نجوتنا منها، ثم القرب من المدينة، كل ذلك اثار فينا شجاعة درجة ان البعض من بيننا اظهر بعض التحدي. واخبرنا تاجران كبيران مهمان بضرورة الانتظار حتى عودة الطلائع التي ارسلوها ثم اندفعنا الى مقدمة القافلة. وعادا بسرعة في كل مرة تدفعهم فيها جرائمهم للذهب بعيداً وللتتأكد من ان الجميع يساندهم. وفي النهاية استأنفنا السير وكان رؤساؤنا يتصايرون وهم يستلون سيفهم ويطلقون صيحات الحرب.

وحتى الان لم نتعرف تماماً على اعدائنا فالمسافة التي تفصلنا مليئة بالاطلال والانقضاض مما يعرقل رؤيتنا لهم. وعاد اليانا كشافتنا والخوف يطل من نظراتهم ليقولوا لنا انهم بجانبنا وان عددهم يبلغ المائة. ولكننا سنكتشف بعد قليل ان كشافتنا لم يقوموا تماماً بواجبهم ولم يتعرفوا على الاعداء. ومهما كان الامر فقد كنا نتقدم بحذر كما ان الفرار في الصحف الخلفية قد تزايد. وفجأة ونحن نخرج من وراء انقضاض خان قديم، وجدنا انفسنا وجهاً لوجه مع اعدائنا؛ وفي الوقت الذي شعرنا فيه بالاضطراب، والفرز الذي اجتاحهم، اكتشفنا انه كان قطبيعاً من الحمير المسالمين الذين تركهم اصحابهم خوفاً عند رؤيتهم لنا. ولن انسى مطلقاً تنوع التعابير التي ارتسمت على الوجوه. ووحده دون كيشوت يعرف من هم هؤلاء العاملقة المروعين الذين جابهم، وادرك

مكر السحرة الذين حولوا جيوشهم الى خراف مزقوهم ارباً حتى يحرموه، هو دون كيشوت، من نشوة وكرامة النصر عليهم. وما كان ليشعر بنفس المفاجأة التي تفاجأنا بها. اما طلائعنا المهرة فقد ابتعدوا ليتجنبوا التنديد والسخرية التي يستحقونها، وبعد ان اكدوا لنا ان هؤلاء ليسوا الاعداء الذين رأوهم وانه يجب علينا انتظار ظهورهم. اما اولئك الذين فروا الى مؤخرة القافلة، ابتعدوا اكثر للتخلص من سخرية واستهزاء رفاقهم، في حين ان بعضًا من فرسانهم اليقظين جداً قد اندفعوا للامام وهم يرسلون حولهم نظرات لاتخلوا من الكبراء النبيل الممزوج بالدهشة. في حين ان الادلاء الذين كانوا يرتجفون، قد انضموا اليانا بعد ان رأوا اننا مستعدون للضحك اكثر من الغضب بسبب الخوف الذي اثارته حميرهم. وقد اكدوا لنا الخبر الذي سمعناه في بابل، بانسحاب وهزيمة الباشا الجديد هو وكرده. وان البasha سعود قد تثبتت اقدامه اكثر مما كان، وانه قد تم تعيين عبدالله اغا وزيراً وهو رجل معروف جداً والثقة جاءت بعد الكثرة.

ان عبدالله نفسه، واحد من بين اشهر المنفيين الذين تركوا بوشهر قبيل وصولنا تلك المدينة. ان هذه التغيرات المفاجئة من المنفى الى اعلى مكانة، من ذروة الثروة الى حضيض الفقر، من التاج الى المنفى او السجن وحتى الى الموت، وتلك اجراءات معروفة جيداً في هذه المناطق حيث يسود الظلم والعبودية، وسوف تأتي الفرصة لاذكر بعض الامثلة لهذه التقليبات. ولكن بالنسبة للوقت الحاضر، وبعد ان وصلنا ببغداد وودعنا الصحراء واصدقاعنا البدو الطيبين. ولكن، ونحن نعودهم فلسوف اقدم في هذا الشأن الملاحظات العامة التي وعدنا تثبيتها حول صفات وعادات ذلك الجنس الرائع، وكذلك السمات الرئيسية والمميزة للمنطقة حيث يعيشون.

الفصل الثامن

وصف بلاد العرب، اخطار وسراب الصحراء، صفات البدو

عاداتهم وبنبلهم وكرمهم، المرأة العربية،

آراء حول الابل والحسان العربي

تمثل شبه جزيرة العرب، مثناً ذا ابعاد غير متوازية، تتد طولاً بمسافة ١٥٠٠ ميل من "Belar". على نهر الفرات وحتى مضيق باب المندب والمحيط الهندي، ومساحتها سبعمائة وخمسين ميلاً في المتوسط. ولكن اكبر منطقة فيها أطلق عليها اسم "البتراء" او الأرض الصحراوية المقفرة. وكما يقول احد المؤرخين الفصحاء فان ((يد الطبيعة قد زينت فقر، الصحراء فيها بالأشجار الكبيرة والمراعي الغنية ويجد المسافر المنعزل الوحيد بشكل ما مجتمعاً طبيعياً حياً من النباتات النشطة التي تنمو فيها)). اما باقي الاراضي فهي سهل صهراوي ممتد، لم يشق فيه طريق، بل تتحلله جبال مقفرة. ولا يوجد فيها ما يمكن للمرء ان يبحث فيه عن ظل يحميه من حرارة الشمس العمودية الحارقة، وبدلأ من ان تخفف الرياح من تلك الحرارة وذلك القيفط، نجدها رياحاً عاتية خاصة تلك المسمى برياح السموم التي تنشر بخاراً خطيراً ومميتاً^{١٥}. واثناء شهور الصيف، يكون هبوبها خطيراً جداً على

¹⁵ يسمى الغرب تلك الرياح الحارة الرياح الخانقة. ويسمىها العرب رياح السموم. وانا اعتقد انها سامة، وهي توجد دائماً في الصحراء بين البصرة وبغداد وحلب. بل انها معروفة في فارس وفي الهند وحتى في اسبانيا، كونها في الواقع رياح ارضية تهب في جميع البلدان الحارة. واستناداً على طبيعة الارض التي تهب عليها. نجدها خطيرة جداً في الصحراء اكثراً من اي

الكائنات الحية التي تهب عليها. أما تأثيرها فخطير جداً وآنياً في الحال.
لأنه اذا ما انتشر الفساد في الجسد، تتطاير الاشلاء في كل مكان اذا ما
اردنا حمله من الارض.

وإذا استمرت الرياح في الهبوب لاسبوع كاملة وفي نفس الاتجاه،
فانها تحمل للمسافر الذي يتحرك في تلك الصحاري خطراً اخر لا يمكنه
تفاديها. فجبال الرمال التي تحركها تلك الرياح تطمر القواقل والجيوش
باكملاها. ويشبهونها تماماً بامواج البحر الهائجة.

ولكن اذا كانت الصحراء تقدم اخطاراً كبيرة، فهي كذلك تقدم سرابةً
مفاجئاً لانستطيع ان نجد له شرحاً. ذلك السراب الذي يظهر للمسافر
المُتعب الذي ارهقته الحرارة واحرقته اشعة الشمس العمودية اثناء رحلته،
وعندما يموت من العطش ويقاد يقع فريسة الهبوب الحارق لرياح السموم
 فهو يتراجع له فجأة في قمة عذاباته. انه يرى بحيرة كبيرة تنصب امامه
في قلب الصحراء وحتى انه يرى قبابها وابوابها والحدائق التي تعدد
بانتعاش مرغوب. وتحاول نظراته ان تخترق نوعاً ما الضباب الذي لايسمح
له بتمييز تلك الاشياء المثيرة بوضوح ويسترسل في آماله الجميلة. واذا ما
كان لديه بعض القلق، فلا يكاد يبقى له نوع من الشك، فالامل يتربع في
احضان الطمأنينة. ذلك السراب الخادع المشؤوم، انها رؤى الصحراء^{١٦}.

منطقة اخرى. ويضيف العرب على هذه الصفات انها تتميز عن غيرها من الرياح برائحتها
الكريمية التي تصاحبها دوماً في حين يمكن التعرف لحبات الرمل الدقيقة التي تجتاحها
وترفعها معها، كما عانيناها نحن وكما حاولت ان اوضح ذلك واصفه في الفصل السابق. هي
ليست خطيرة جداً في فصول الشتاء ولأنها تهب افقية فلا اثر لها على مستوى الارض، ربما
لأنه يتقطع بسبب عدم استواء التربة، لدرجة ان الحيوانات والرجال يتغادرون اخطارها
بالانبطاح على البطن فوق الارض حال هبوبها.

¹⁶ يذكر القرآن مدينة ارم. وقد استطاع قرائي الذين يعرفون الهند جيداً، رؤية ظاهرة تکاد
تشبه في ودياننا الفسيحة ذلك السراب، خاصة مع هبوب الرياح الأرضية. ففي البنغال،

انها حدائق ((ارم ذات العماد)), التي انشأها "شداد ابن عباد" تتراءى لنظريه انه القدر. وتقول تقاليدهم وتراثهم ان القدر يحفظها في قلب صحراء عدن لتكون مثلاً للغضب الالهي.

والمواد سهلة الاشتعال نادرة في بلاد العرب، لدرجة انهم يصنونها من روث الابل والخيل، ويتطيب البقاء عليها مشتعلة لاينطفئ نارها حذقاً ومهارة كبار. ولا يوجد نهر يخترق الصحراء، وامتلاك بئر مداعنة للحسد بل انه يكون احياناً سبباً في اندلاع الحرب. وتنساقط احياناً السيول من الجبل ولكنها تجف في الحال لانها تسقط على ارض قاحلة اسفنجية. في حين ان نبات التمر هندي والطلع والذي تخترق جذوره شقوق الجبل فانه يرتوي من ندى الليالي. وكان المسافر المتعب غالباً مايضطر لارواه عطشه بتناول الماء الذي ينبثق من نبع آسن يمتد فوق الرمال او فوق طبقة كبريتية.

ورؤية الماسي التي تجاورنا تدفع للتقييم الدنى مظاهر المتعة التي نحس بها. كما وان بلاد العرب السعيدة¹⁷ تدين بهذا الاسم لمثل ذلك المظهر الاكثر عمقاً والاكثر صعوبة للحياة في ذلك الجزء الذي حاولنا وصفه. ويمكن ان ترى هنا وهناك حقلأ مزروعاً او نبع ماء لا يجف مما يشير الى وجود قبيلة اكثراً تحضراً قد ثبتت اقامتها في اراضيها. وانشأوا

وعند عبور "لابرادا La Parada" ، حيث يرى المرء شجرتين اطلق عليهما السفيتاتن الشراعيتان، لانهما تشبهان عن بعد سفيتات شراعيتين. ولست انا الوحيدة من انهم وجذتني وسط السهل. فالسراب هو نفسه السراب في صحراء جزيرة العرب، ولكن التأثيرات اكثراً تطوراً، فهي تعود لاسباب اكثراً تأثيراً.

¹⁷ ان تميز العرب السعيدة البدوية والبتراء، لم يكن يعرفها اليونان ولا الرومان، ولم تكن يُحسب ضمن الاراضي العربية المقسمة الى خمس مناطق: اليمن، الحجاز، تهامة، نجد واليمامه. البعض يضيف سادسة البحرين، في حين ان هناك من يقول انها اثننتين فقط: اليمن والحجاز.

بعض الاكواخ ويقومون بزراعة النخيل الذي لا يهiei ظلاً كافياً بل جزئياً.
ولكن اهوال الصحراء التي تكون ارضية تلك الصورة، تزيد في الخيال
الحي ابهار تلك الالوان للأشياء التي تبدو للعين لأول وهلة، ليقتنص
حماس المسافر في لحظة ما فكرة وجود ارض سعيدة، حديقة خصبة او
فردوس ارضي. وقد بالغ القدماء على وجه الخصوص في الحديث عن
شراء وخصوصية تلك المناطق، ونحن نعرف ان الاسكندر قد خدعته تلك
الاراء التي تكونت عن هذه المناطق لدرجة انه فكر في غزو بلاد العرب
لدى عودته من بلاد الهند، ولكن الموت حرمـه من تحقيق ذلك المشروع¹⁸
ويجب ان ندرس سياسة المصريين لنتعرف عن مصادر تلك التهيؤات،
فلانهم بعد حصولهم على تجارة الهند كلها تقريباً، لم يكونوا ليفكروا في
التعرف على البلاد التي يستوردون منها بضائعهم في الواقع.

فالعرب، اصحاب تلك البلاد التي اتيـنا على وصفها انفـاً كانت
الكتابات الشرقية تصفهم على انهم يشكلون طبقتين متميزتين: العرب
البائدة والعرب الحاليون¹⁹. ويقولون عن العرب البائدة انهم كانوا قبائل
عديدة قد انقرضـت تماماً او انهم تدخلوا مع قبائل قديمة جاءـت بعدهم.
ولا توجد معلومات كثيرة عنـهم يمكن الاعتماد علىـها. ورغم الكارثة التي
حاقت ببعض القبائل احتفظ بها التراث واكـدـها القرآن. والجنس الحالي،
واعتمادـاً على مؤرخيـهم، ينحدـر من اصلـين: قحطـان، الذي هو "يقـظـان ابن
عبر Eber"، وعدـنان، الذي ينحدـر مباشرـة من "اسماعـيل بن ابراهـيم"
و"هـاجر"، ويسمـون احفـادـ قـحطـان العرب العـارـبة ايـ العرب الانـقـيـاء،
واحفـادـ الثانيـ العرب المستـعـربـة، ايـ اولـئـكـ الذين اصـبحـوا عـربـاً.

¹⁸ Straton, Lib. XVI, Arrienk, P. 161- 123-153.

¹⁹ نـسـمـيـهمـ العربـ العـارـبةـ وـالـمـسـتـعـربـةـ.

ولعدم وجود معلومات دقيقة عن السلالات بين عدنان واسماعيل، فالعلاقة لا تذهب الى ابعد من عدنان. وهم يعتبرونه اب قبائلهم، كما انه لا يمكن التشكيك مطلقاً في انهم قد انحدروا من سلالته.

ويكون هؤلاء من ثلاثة اجناس متميزة انتشرت في آسيا بشكل عام، وكل منها لها اصل مختلف²⁰. وهم العرب الحديثون الحاليون، التatars والهندوس، لا توجد بينهم اية نقطة خلاف لا من حيث التاريخ او اللغة او عقائدهم الدينية. ويختلفون كذلك في صفاتهم وسماتهم رغم انهم يعيشون في خط مواز لآخر، بل واحياناً يعيشون في نفس البلد. ويعود ذلك الاختلاف ربما يعود لحريم التزاوج فيما بينهم. والهندي بعاداته الهدئة، وقامته الفارعة وشعره الاسود الكثيف، والعيون الناعسة كما عيون الريم يختلف في سماته عن التترى الذي لا تكاد ان تكون له لحية، ووجه مثلث. وهو عريض الرأس، وجسده معضل ونظرات ثاقبة نافذة، وعيانان متباينتان وانف لا يكاد يظهر وهو بذلك ليس بأقل اختلافاً عن العربي وخاصة البدوي ساكن الصحراء.

والعرب البدو جنس بدائي يمتد تاريخهم الى اصل موغل في القدم. وعاداتهم هي هي متواصلة وصفات وسمات عامة خارجية تعود لهم وحدهم. وهي تختلف كثيراً عن عادات وصفات الامم الاسلامية بشكل عام. ولون البشرة المشابه لللون الجلد المدبوغ، يقف بين لون بشرة الهندي ولون بشرة التترى البيضاء، وهيئة العربي العامة، تجعله يقف كذلك ما بين الهيئة الملفوفة والرقيقة للهندي، وهيئة القوقازى الحادة الثقيلة الضخمة. والعربي عصبي، متوسط القامة، لا يرتدي شيئاً زائداً

²⁰ En parlant ainsi, nous nous suivons l'autorité des dissertations asiatiques. (Tom. I, R. 27). On croit pourtant qu'on peut trouver quelques rapprochements entre l'idolatrie des anciens arabes, ou perdus, et les pratiques religieuses des Indous.

يمكن ان يضايق حركاته. وهو معتاد على الامتناع عن الطعام وعلى التعب تماماً مثل جمله الذي يعتليه. كما ان اطول رحلة يقوم بها لا يمكنها ان تطفئ قوة نظراته النافذة المنبعثة من عيون سوداء كالفحم. بل ولا تستطيع لفحات حرارة الشمس او قيظ الصحراء ان يُحد من نشاطه او يقلل من حميته، اما مشاعره فهي جياشة، سريع الغضب، لا يكلّ ولا يتعب، معتاد على القتال، يمتلك جسداً حديدياً وروحاً مندفعة. كما انه بكل عاداته يبدو غير قادر على تذوق لذة الراحة، الا في بعض الحالات عندما يكون راضياً عن نفسه، مهنتاً نفسه عن قيامه بعمل شجاع، مستسلماً للتفكير في بعض المذايئ التي يمكن ان يحصل عليها. وتراه جالساً على الارض، غليونه في فمه، مداعباً لحيته المسترسلة على صدره. وهو مندفع في طيبته، كما في المهم وضيقه وعداياته. وترى الاب المحب يداعب اولاده، ويلعب معهم، ويعلمهم كيف يرمي البوصلة كما سوف يرمي مستقبلاً سلاحاً خطيراً، وباختصار، ترى جميع العواطف التي تملأ بها الطبيعة نفوس الناس، لن تراها بتلك القوة والحيوية والاندفاع كما تراها في هذه الصحاري.

والمحبة التي يحملها العربي لأولاده واسرته تمتد لتشمل جميع افراد القبيلة. وجميع الخيام والاكواخ مفتوحة الابواب، ولا يعرف من يسرق وسط زمرة من الاشرار. واذا لم يكن ممكناً وجود جماعات المال في مجتمعاتهم، فقد حل محلها كرماً وسخاءً لا محدوداً، فاليد التي تملك مستعدة دائماً للعطاء لمن يحتاج. ويزدكون امثاله كثيرة عن ذلك الكرم المعروف، ولكنني ساقتنع بسرد القصة التالية: وقع شجار في ساحة الكعبة حول ماهية الرجل الاكثر سخاءً وكرماً في تلك المدينة. واقتصر احد الحضور ليضع حدًّا لذلك الشجار انه يذهب واحد من كل جماعة الى اقرب اصدقائه طالباً منه المساعدة، ثم يرون ماذا قدم كل صديق، وبعد تلك

التجربة، يمكن اعطاء حكم عادل آنذاك. وقبل الاقتراح. وذهب الاول باحثاً عن عبدالله، ووجده يضع قدمه على سرج جمله، يستعد لرحلة طويلة، ناداه قائلاً: ((يابن عم رسول الله واجابه قائلاً بانه ذاذهب في رحلة طويلة وانه في حاجة للمساعدة. اجابه عبدالله، اركب هذا الجمل، انه لك بحمله، فقط حافظ جيداً على ذلك السيف المربوط في السرج فهو سيف على ابن ابي طالب)). واخذ الجمل ووجده محلاً بالحرير واربعة الاف قطعة ذهبية، ولكن اثنين ما موجود هو السيف.

ذهب الثاني الى قيس بن سعد. وقال له العبد ان سيده نائم و ساله عن سبب مجيئه. اجابه بانه جاء ليطلب مساعدة صديقه، فهو في حاجة الى القيام برحلة طويلة. قال له العبد، لا حاجة لايقاظ سيدي، وقدم له سبعة الاف قطعة من الذهب، مؤكداً انه ليس لديه اكثراً في الوقت الحاضر، كما طلب منه ان يذهب الى من يهتمون بالجمال لكي يقدموا له جملأً وعبدأً ليهتم به. وعندما استيقظ قيس وخبره العبد بماحدث، حرره ولكنه اتبه بلطف لانه لم يوقظه.

وذهب الثالث الى الرياح ووجده ذاهباً للصلوة. وكان رجلاً كبير السن مُقدعاً واعمى، ويسيير متكتناً على عビدين. وما ان علم ان صديقه في حاجة قال: ((انني باحسن جداً لأنني لست ثرياً، ولا املك سوى هذين العبيدين. خذ العبيدين وبعهما فهما لك منذ اللحظة. واصل طريقه بعد ذلك هو يتمس الحائط. واستحق كل المديح وهو الاكثر سخاءً فقد اعطي كل ما يملك)).

وبدون اي تعليق على هذه القصة، يمكننا ان نقرر ان صفات الكرم والساخاء ليست نادرة في ذلك الشعب وهناك المجال للعديد من الامثلة على هذا السخاء. وقد ذهب كرم العرب مضرب الامثال ومنذ ازمان سحرية. وهاتان الصفتان متلازمتان، وقد وجه احد شعرائهم لسكان واسط في بلاد ما بين النهرين تأنيباً دموياً لم يسبق له مثيل عندما قال: ((ان الرجال لا يعرفون العطاء ولا النساء تستطيع الرفض)).

و اذا ما كان الجميع يكيلون المديح للبدو وعلى كرمهم وسخائهم .
فهم يستحقونه بل ويستحقون اكثر على شرفهم وصدقهم: اذ يمكن
الاعتماد على كلمتهم، وعندما يهتمون باحد فان اخلاصهم يتحدى كل
المحن. ويمكنني ان اذكر الكثير من الامثلة التي كنت شاهداً عليها
ويمكن لاي كائن يلاحظ ذلك خاصة بالنسبة لرحلتي انا. فقد كنت اقطع
الصحراء في رحلتي بدون حاشية وحماستي الوحيدة هي شرف قبائلهم.
تلك هي فضائل جنس نشيط ذي حمية، شجاع وحر. اما سيراته فتعود
بطبيعة البلد الذي يعيش فيه والحرية الشخصية التي يتمتع بها البدوي.
و حقيقي جداً ان حال المجتمع واوضاعه، ومبادئ الحكومة تعتبر كلها
مصدر فضائل واخفاء الناس.

والعربي رجل حُرّ كما الهواء، لا يتحمل الاكراه والاجبار، ولا يتمكن
من تقبل معارضة رغباته. و اذا نوى فعل شئ ما، يقوم بتنفيذها. و اذا
توجب عليه استخدام العنف، يلجاً للسلاح وسفك الدماء، لاتوقفه
الصعب مطلقاً بل انها تدفعه كرامته وغروره. و رغم انه ترى البدو
فضلاء وكرماء وشرفاء في علاقاتهم الخاصة الا انهم حقوقون ودون اي
شفقة تجاه الغرباء والاعداء. ويدهم مرفوعة ضد كل رجل، ويد كل رجل
مرفوعة عليهم. ففي الصحراء لا يعرفون الحياد، واي شخص لا يؤيد
القبيلة فهو ضدها، كما ان داخل القبيلة مشهود له بالاستقامة التي
لاتتأثر ب اي دافع. وخارج القبيلة، وتتجاه كل من كانوا غرباء تجده قاطع
طريق، يعني انه يغير فقط طريقة التعبير والتصرف وهو مرتاح الضمير
ويقول البدوي وهو عائد من رحلة ما خارج القبيلة في صحراء الاجداد:
((لقد حصلت على هذا الاسير وتلك الغنية هناك. لقد حصلت عليه
والحمد لله في الصحراء التي املكتها، والتي منحها بكل ما فيها الى ابى
اسمعائيل وسلامته. فالصحراء ارضي، وبفضل الله الكبير، سيقدم لي
مكاسب اخرى)).

هكذا يفكر قاطع طريق الصحراء، وهكذا يتصرف انه لا يشبع من الغنائم وهو يعود محلاً، كما ان قاطع الطريق هذا يقتل المسافر الذي يقاومه، ولكنه يسرق من يستسلم له، يستعبده ويبيعه كما العبد، والله اكبر! الله اكبر! لا يوجد قانون، يجب الاختيار بين العبودية والموت. لقد تعودوا على حياة الصحراء، وعلى السير الطويل الاجباري، كما تعودوا على الحرمان، وهم لا يفكرون في مصير اسراهם الذين يمكن ان ينتظموا بشكل مغایر. وادا ما وقعوا ارضاً من فرط الاعياء فوخرة من طرف السيف تعید لهم قواهم. والسير على الاقدام الاجباري ليس سوى بداية لمتابعة اخرى. وعندما تتوقف الابل يجب على الاسرى القيام بنصب الخيام وحفر الابار وطحن الحبوب من اجل اطعام الاسياد. كما انهم يحرمونهم من انسانيتهم حتى يجبروا على شراء حرثتهم وادا لم يستطيعوا القيام بذلك، فلا رحمة لهم والموت هو الوحيد الذي يضع حدّاً لعذاباتهم.

هكذا يعاملون العدو الاسير، ولكنهم يتصرفون بشكل مغایر تماماً للعبيد الذين يشتريونهم. وما قلناه حتى الان له استثناءاته ولكنها نادرة. ورغم ان حقوق الضيافة مُصانة كما شئ مقدس اذا ما طلبت واتفق عليها، فمع ذلك اذا مالم يكن ذلك مؤمناً من قبل فلن يكون ذلك متاحاً الا بعد تكبّد جميع المعاملات السيئة القاسية من قبل البدو، وحينذاك فقط يمكن مع بعض المديح اثارة بعض المشاعر الانسانية لديهم املاً في الفدية. ويعرف المسافرون معنا جيداً، يعترفون بتلك الحقيقة بعد ظروف عدة، فمنذ سنوات تخلف البكباشي، ليجمع بعض الاعشاب، فابتعد كثيراً عن ادائه، والتقوى به بعض الاعراب واسروه. وخلال ثلاثة ايام لم تصلنا منه اية اخبار. وفي اليوم الرابع اكتشف رئيس احدى القبائل انه يقوم بحفر بئر في الرمال، ووجده منهاكاً ونصف ميت من التعب. ولأن القبيلتين لم تكونا في حالة حرب، استطاع فقط ان يحصل على حرثته بعد ان دفع فدية كبيرة.

وتعود قسوتهم في مثل تلك الظروف الى الحرية اللامحدودة التي يتمتعون بها، والام التي تتباهى بامتلاك حرية مفرطة، هي تلك الام التي تعامل عبيدها بمنتهى القسوة، واداما تم اخضاع او قهر العرب لبعض الوقت، سرعان ما يستعيدون حريتهم بعد بعض الوقت. وذلك بفضل بلادهم القاحلة وكونهم عرباً رحلاً دائمًا. لقد نجوا من رقة اعمى الملكيات، "سينروستريس Sesostris" و"كورش Curush" يومبي Pompee و"تراجان Trajan" لم يستطيعوا اخضاعهم كلياً، وحتى الاتراك انفسهم لم يكونوا في وضع افضل لتقدير السلطة المشكوك فيها التي يتفاخرون بها. كما ان ذكرى استقلالهم هي افضل ضمانة لاستمراريتها.

ومع اقتراب خطر الاعداء، تعلق جميع اشكال العداوة الشخصية ويتقدمون امام العدو كتلة واحدة، وهو يأملون هزيمته. وخلفهم توجد صحراء اجدادهم ينسحبون اليها. وحين يفخر عبيد الملوك بحريتهم السياسية، نرى ان البدوي هو انسان حُر اصلاً. ولكي لانخدع كثيراً حول طبيعة وقيمة تلك الحرية، فهي شهادة، لانها حرية بعيدة عن كل قيد. ولأن حياة البدوي مليئة بالمخاطر، التغيرات والحرمان، فانني اعتقد ان ابسط مواطن انجليزي عادي يشعر بالسعادة وبحرية وسهولة الحياة اكثر مما يشعر به اقوى رئيس لتلك القبائل الرحيل. فالشيخ تتم تربيته تربية خاصة تفوق اقرانه. لانه واعتياديًّا هو اب القبيلة. فهو يترأس المجلس ويلقي الاوامر في ساحة القتال. ولكن في هذا الموضع او ذاك او امره محترمة ومجابة. ولا يتم ذلك فقط بسبب مكانته، ولكن بسبب تأثيره الشخصي وصفاته. اذن ان تكون حكومته قوية وحازمة فسلطته قوية جداً، وان تكون حكومته ضعيفة وجبانة فسلطته تكون محدودة جداً. ان تلك الاستمرارية لذلك الامتداد الطويل، قد تسبب في ازدياد اعداد من يلقبون بتلك الالقاب، كما يتسبب في ظروف مختلفة، في حدوث

نتائج مختلفة تماماً والتي لم يكن يتصورها احفاد محمد المباشرون عندما سمحوا بالارتباطات بين اسرهم والقبائل الاخرى، ليتكلّفوا بعد ذلك ضد سلطة الخلافة. ومع ذلك وحتى الوقت الحاضر يحتفظ ذلك اللقب بقيمة وبحقوقه. وفي بعض المناطق يمكن لهذا السيد ان يندفع بينما خوف بين صنوف المتقاطلين في حالة النزال، ولا يحاول احد او يتحرا اي من الاطراف ان يتسبّبوا في خدشه حتى. وقد سُنحت لي الفرصة، ان اقدم في كتابي هذا في الفصل الخامس برهاناً على ذلك الاحترام الذي يكنّه الناس لمن يحمل لقب سيد.

والعرب متمسكون بدينهم وعبادتهم، وصفاتهم الاخلاقية يحاول الاتراك عبثاً ان ينسبوا مثلاً لنفسهم. والعرب في الواقع الامر متسمون تجاه المسيحيين وينظرون اليهم باحتقار قليل الى حد ما، كما ان تناول المشروبات الروحية والسكر حتى الشمالة يكاد ان يكون شيئاً لا يعرفونه. وقد التقى شخصياً باتراك يخالفون مفاهيم القرآن بذلك الخصوص، ولكنني لم اسمع عن عرب عرفوا بمثل ذلك الامر. واذتراهم معزولين عن الناس فهم يحافظون باهتمام بالغ على الانساب مما يشكل واحداً من دوافع كثيرة للحفاظ على قوانين النبي، في حين ترى الاتراك تختلط اجناسهم، ويتغير الجنس التركي مع كل جيل، ويتبّعون في الظاهر مثل ابائهم ويقومون سراً بتحقيق ما يؤودي لخرق مفاهيم التحرير.

كما ان قانون العين بالعين والسن بالسن معروف كذلك للعرب، ويعملون به رغم ان ذلك يتم بطريقة غير عادلة، لأن الثأر يمتد للابرياء من العائلتين: القاتل المجرم والضحية. الدم يمحوه الدم، ويتمتع رجال الاسرة التي يُقتل فيها احد ما بحق انزال العقاب على الجريمة. كما يجب علينا الا نتأكد بأن ذلك يأخذ مداه الكامل، بسبب تدخل الرؤساء، وظروف اخرى تساهم كذلك بدورها في تهدئة المشاعر الثائرة ووضع حد

لاي تصرف يُضر بالمصلحة العامة للمجتمع عندما يُعاقب البرئ على ذنبه المجرم.

والبدو قنوعون جداً في حياتهم، وعند الحاجة، أكثر من الهنود الذين يقنعون باختيارهم الخاص وكما احد مبادئ العقيدة. وهم يتغذون لاسبوع كثيرة على الخبز الرديء من الشيلم وبعض ثمار التمر الجافة. وإذا ما حصلوا على بعض اللحم لتناول العشاء فانهم يسلقون اللحم او يشونه على الفحم. بل انهم احياناً ما يستغنون عن الملح.

ويتردد الحديث كثيراً عن اجراءات النظافة التي يهتم بها العرب والاتراك وغيرهم من الامم الاسيوية، ولكنني لا اتفق مع الكثيرين من المسافرين الذين يكيلون المديح للتصرفات في مناطق اخرى ويطلقون على سكانها صفات لا يمتلكونها مطلقاً بل انهم يخاطرون حتى بالحط من صفاتنا. واستناداً على خبرتي التي عرفتها عن تصرفات المسلمين بشكل عام، فان نظافة العرب تفوق مثيلتها في بعض الدول الاوروبية، ولكنها لا تقارن بنظافتنا. فوضوؤهم المتواصل خاصة عند وجود الماء بكثرة يساعدهم على القيام بذلك. ولكنها لا تنفي الازعاج الناتج من الاستخدام المتواصل لنفس الملابس من غير تبديلها. وهم لا يستخدمون الشوكة والسكين ويستخدمون يدهم اليمنى لتناول اللحم، بل واحياناً يستخدمون اليدين معاً.^{٢١}

^{٢١} لن يتعدى الاوروبيون مطلقاً على تلك العادة. كما ان تصرفات الاسيويين على المائدة، تتنافى وجميع مفاهيم الادب والنظافة. وبينما العرب الى ذلك انها عادة متحضررة باظهار انهم شبعوا جداً ويتجشّون الى جانب ذلك. وهي طريقة ينظر اليها الاوروبيون بأنها تخلي من الصدق. ولكنهم يعتبرون كذلك ان صوتاً كهذا يصدر من مكان آخر اهانة لا تُغفر في عاداتهم. ومع افتقارهم للاهتمام بهذه النقطة، فمن دواعي السخف وجود ذلك الوسوس المبالغ فيه تجاه نقطة اخرى. وفيما يلي اورد قصة يروونها دليلاً على احترامهم لاصول اللياقة بهذا الخصوص. كان عبدالله بن عربة بن واحداً من كبار

تجار مدينة "الرستق"، ويحترمه الناس لثرائه وليبراليته وجدية سلوكه. ولكن شاء سوء حظه ان يكون قد اقترف مثل ذلك الخطأ في مناسبة عامة. ففي واحدة من الصلوات المفروضة على المؤمنين واثناء سجوده اصدر صوتاً كهذا من منطقة سُقُلَى وسمعه المفتى ولم يشك مطلقاً في صاحبه، لانه كان قريباً جداً منه ولم يكن يوجد من هو اقرب ليثير شكوكه. فرجالات المدينة، واعضاء الديوان، ورئيس القضاة وعميد المعهدن كانوا كلهم شهوداً على ذلك الانتهاك والتجاوز. واصبح ذلك موضع استياء تام اذ رأوا "عبد الله بن عربة" كبير تجار المدينة واكثر الرجال جدية وحزماً في عصره، رجلاً كانت كلمته قانوناً. ولانه محترم جداً وحدث ذلك على رؤوس الاشهاد في العلن فكان وضعماً لا يمكن تحمله. فخرج سريعاً من المسجد وسط صمت تام من هول المفاجأة، ولم يجد الوقت ليتنعل حذاءه الذي كان تركه امام باب المسجد وهرب من المدينة واختفى في الصحراء. والتقاء بعض البدو الرحل، واذ لم يجدو شيئاً معه ليسلبوه اساعوا معاملته وباعوه لاحدى القبائل. وكانت مصيبة استطاع تحملها واسهل من تحمل الخجل على خطئه. وكان السيد الجديد فقيراً وبخيلاً، واجبره على العمل دون هواة ولا يكاد يطعمه الا ليسد الرمق ويبقيه من الموت جوعاً. وكان يضرره اذا ما اجبره التعب على اخذ قسط من الراحة. واستمر الحال عشر سنوات عقباً على خطئه اللارادي. وفي نهاية المدة، استطاع الهرب. وعندما ظن انه قد تم نسيان الخطأ بعد عشر سنوات من المنفى والعداب والعذاب، ولكنه ومع اقترابه من "الرستق" انتابه القلق من جديد وقرر الاختباء، لفترة حتى يتتأكد تماماً من ان ذكرى خطئته ما زالت ام لا في اذهان مواطنيه. وعلى بعد خطوات من المدينة التقى امراتين كبيرتي السن كانتا تتشاجران حول تاريخ حدث يتكلمن عنه بجدية وحدة. واقترب منهما عن طريق حب الاستطلاع: وكم كانت دهشته كبيرة عندما سمع السيدة الاكبر سنًا تقول لها انه لا يمكن ان تخطئ في ذلك التاريخ، لأن ما حدث قد حدث منذ عشر سنوات، اي اليوم الذي اخرج منه عبدالله كبير التجار صوتاً من اسفله في المسجد وهو حدث ما زال يذكره حتى الان المفتى والقاضي والمجلس وكبار رجال المجتمع حتى انه اتخذ طريق الهرب مرة اخرى تاركاً ملابسة الداخلية لزوجته لتعرف انه ما زال حياً يُرزق. وما زالت تلك الملابس معلقة في المسجد كما اثر يثير الرعب لمنع حدوث مثل ذلك الخطأ ابداً. وتعتبر تلك الملابس دواء شافياً للنساء العقيمات. وتناول وتناول الاجيال تلك القصة مع التركيز على فضيلة خصوبة الملابس الداخلية لـ"عبد الله بن عربة".

ويسود الختان لدى العرب، كما لدى جميع الشعوب المسلمة وذلك لأنهم يربطون بها فكرة النظافة. وهم لا يمارسونها فقط فيما بينهم، بل إن الفتيات يخضعن كذلك لنفس العملية لدى بعض القبائل، عندما يبلغن سن البلوغ. وأنا لا استطيع ان اقول كيف يقومون بها، فالمسلمون لا يتحدثون كثيراً عن مواضيع كهذه. ولكنني اعرف انه في جميع المناطق التي يمارس فيها الختان للنساء، فإن نساءً يقمن بهذه العملية للفتيات، والحالقون فقط هم الذين يمارسون تلك العملية على الرجال، ويعتبروهم الناس غير اتقياء بسبب تلك العملية التي يقومون بها.

يقيم البدو بشكل عام في الخيام، ولا يتحملون مطلقاً الانغلاق داخل المدن، يحتقرن الزراعة ويغيرون دائماً أماكن اقامتهم. ويبدو ان الطبيعة قد منحتهم وبنفس القدر من الكرم حيواناً عظيم الفائدة، يقدم لهم افضل الخدمات انه الجمل. وما ان يشب الجمل عن الطوق، يعودونه على ثني ركبتيه حال تلقي الامر بذلك. وللتوصل لتلك النتيجة يربطون القدم بشدة برباط قوي بشكل لا يمكنه ان يرتكز عليها على الارض. ويتركونه في هذه الحالة لفترة. ولما كان من الصعب عليه في هذه الحالة ان يذهب للمراعي، كان مضطراً ان يجثوا على ركبتيه. وفي اليوم التالي يقومون بنفس العملية للقدم الاخرى. وتتواصل تلك العملية لعدة ايام، الى ان يعتاد ان يطوي ساقيه معاً ويحشو بارادته. ولا ندري ما يجب ان يثير اعجبنا اكثر: هو صبر وهدوء الحيوان او دأب ذلك البدوي على رعايته وتعليمه وتعويده على ذلك. الى جانب ذلك، يتقبّون الغضروف الذي يفصل بين منخريهن ويمروون فيه حلقة او سلسلة تساعد على سحبه والسيطرة على نزواته الجامحة بطبعتها اصلاً.

وكنت اعتقد انهم يبالغون في تقدير الحمولة التي يمكن ان يحملها، ويقولون انها تقدر بسبعينة رطل. وفي الهند حيث الابل اكبر حجماً واقوى

بنية، بل وأفضل حيث يقومون على تغذيته بشكل جيد، وأفضل بكثير من تغذية أبل صهاري البدو. وينظر الهندو إلى الجمل على أنه حيوان يساوي ثلاثة بقارات أو بغلين. ومن بين الآلاف التي رأيتها تمر أمام ناظري، لم أر جملًا يحمل حمولة غير طبيعية. ولذلك كنت أميل للاعتقاد بأن قوتهم أقل بكثير مما نعتقد بشكل عام، وعلى أن حمولتهم بشكل نظامي لا تتعدي الأربعينات أو الخمسينات رطل. وبينما من هيأة وتركيبية الجمل أنه مهيئ للسباق أكثر من كونه مهيئاً لحمل الأحمال. ومع ذلك فإنه لا يمكنه أن يتقدم على الحصان الذي يعود. ويتميز الجمل باعتداله وقلة احتياجاته وقدرته على تحمل العطش، وتتجدر الاشارة إلى أنه يفقد ملكاته تلك عندما يترك الصحراء بل أنه يفقد على الأقل قدرته الفريدة على العطش، تلك الصفة المفيدة.

ويستفيد البدوي من كل جزء في الجمل. حلبيه الذي يشبه حليب العنزة، يروى عطشه وهو يهرب أمام عدو له يطارده، ومن وبره يصنع أغطية ممتازة. وإذا ما وقع منها من التعب، فلحمه طعام لا يتعطف البدوي عنه. وقد تذوقته ذات مرة من باب حب الاستطلاع في أحد الأعياد الإسلامية وانا في طريقى الى (كورنول Kurnoul)، ووجدت ان مذاقه يشبه مذاق لحم غزال بري كبير السن.

وإذا ما كان الجمل يستحق بجدارة لقب سفينة الصحراء، فإن من يعتليه يستحق بدوره أن نهتم به. ولكن أجمل الأبل هي تلك القادمة من نجد، حيث يهتم العرب بانسابها، وهم يميزون خمسة أجناس أصيلة، يحافظ البدوي على سلالتها بعناية فائقة، ويعطي كل اسمه لنسله ويعتبرون الجنس الأصيل²². وتتجدر سلالات الخيول العربية بدورها من

²² وتوجد كذلك قسم كبير منها من الدرجة الأولى بين الخيول العربية من "ذوي الجنس غير معروف الهوية" "الكاديش Les kadechi"، وقسم آخر هو "الكحيل

مثل ذلك الجنس الاصلي او ذاك عن طريق سالة الام، لان العرب يطبقون على خيولهم نفس المبدأ الذي تطبقه بعض الشعوب على نفسها، اذ يعتقدون ان الدم ينتقل نقياً بالتأكيد عبر سالة الام. واحياناً مايسمح العربي للحصان الطلوق الاندل جنساً الاجتماع مع فرس ادنى مرتبة والنتيجة عكسية تماماً. ويستقدم العربي الشهود على عمليات التزاوج والولادة حرصاً على التأكيد من نقاء الدم. وتلك الخيول حيوانات رائعة، ويعود ذلك ربما لطريقة التربية او لمزايا مناخية. ومع ذلك فمن النادر ان نرى من بينها خيولاً ضخاماً اجساماً. بل، ويکاد يكون من المستحيل ان اینائه. وتتبع الخيول خطى اسيادها كما يتبع الكلب الوفي سيده. واذا ماخر صریعاً في احدى المعارك، فإنه يبقى بلا حراك بجواره. ورأس الحصان العربي مرفوعة في جلال وهيبة على رقبة منحنية كالقوس، واعضاء متواترة، مشدود الجسد واكتاف خاصة بحصان السباق وصدر عريض. وعندما يعدو ترسل نظراته الشر، خفيف سريع كما غزال الريم، حتى انه لا يترك آثار اقدام على الارض. ويشبه حصان الصحراء الجمل في اعتياده على الخضوع والتعب والحرمان. ومنذ اولى سنى حياته، يصنعون على ظهره حملاً خفيفاً، يزداد هو شيئاً فشيئاً الى ان يصل الى استطاعته حمل حمولة ثقيلة، وهو متعب وقائم باقل كمية من الغذاء السئ. وفي مسيرة استمرت ثلاثين ساعة قطعنا فيها الصحراء الصغيرة من الموصل الى نصبيين لم تتناول خيولنا آنذاك رغم اتنا امتنعناها دون اي انقطاع سوى بضع حفنت من الشعير السئ وبعض العشب الجاف اثناء العدو. لقد رأيت هؤلاء

العربي Kouhelja "ذوي النسب المعروف الاكيد. وانا تحدثت فقط عن القسم الثاني حيث لم ار اهتماماً كبيراً بغيرهم.

المتسابقين يشتعلون حماساً وهدوءاً، ويتناولون بلذة بعض النباتات الجافة الموجودة على الطريق، بل ويتناولون بشغف بعض السيقان الدقيقة المجردة من اوراقها تماماً. ولجمال هيئته وهدوئه، وعدم شعوره بالتعب وسهولة تغذيته، يعتبر الخيول العربي اصيلاً نقى الجنس ويتميز بجذارة عن غيره من الخيول. ولكنه في بلدان اخرى، ورغم اصالته ونقائه دمه يعتبره سريع العطب والتعب. وذلك على العكس مما هو معروف وسائل في بلاد العرب. وفي كتابه وصف بلاد فارس، يقول اليوزباشي "ماكدولنالد كينير Macdoland Kinneir" انه امتنى حصاناً اصيلاً ذات يوم واستمر في رحلته قاطعاً تسعين ميلاً دونما توقف ودون ان يرفع يده عن السرج. ويرسلون المئات من هذه الخيول سنوياً الى البصرة على السفن، وذلك لتنضم الى مؤسساتنا هناك. ويساوي سعر الحصان مائة جنيه استرليني داخل البلد ويزداد السعر اذا اردنا اقتناع احد العرب الاثرياء للتخلص من حصانه المفضل.

وغالباً ماكنا نثير السؤال حول معرفة ما اذا كان يتم استخدام الخيول الاصيلة في كتيبة الفرسان في مدراس. واثارة مثل ذلك السؤال مهم جداً لنظامنا العسكري. ولكن الدوافع التي يقدمها البعض للاجابة بالايجاب وتبدو لي على الاقل مثيرة للشك تماماً. وان يكون نادر شاه ومحاربون اخرون يفضلون تلك الخيول لكتائب الفرسان لديهم، فلن يكون اختيارهم دليلاً لكي نقوم نحن بذلك ونختار نفس تلك السلاحات لسلاح الفرسان لدينا. لا، ان الحال يختلف تماماً لان استخدام مثل تلك الخيول لايتنااسب وسلاح فرسان نظامي والقطعان العسكرية الخفيفة السلاح. كما ان تفضيل نادر شاه لها يقدم لنا البرهان على ان الخيول العربية لا تناسب الخدمة العسكرية في جيوشنا. لأن ذلك التفضيل قد اظهر تماماً ان الصفات الضرورية للخيول في القطعات العسكرية الخفيفة

السلاح لدى الاسيويين ليست تماماً هي الضرورية والاكثر نفعاً لتأدية الواجبات في جيوش انتظامية منظمة جداً.

والرأي القائل بان الحركة السريعة تُعوض عن خفة الوزن لا يمكن لاحد ان يتعرض عليه. ولكن ذلك الرأي ينهار تماماً امام الاقتناع الحاسم نتيجة ذلك الظرف الخاص الذي يمجد احد اكبر نجاحاتنا التي حصلنا عليها ونحن نعرف ماحدث في معركة واترلو. واقولها دون ادنى شعور بالخجل ان احدى كتائبنا المهاجمة قد تراجعت مرات ثلاث امام مدرعات نابليون. ولكن بعد ان هاجمته فرقة الخيالة والذين يمتطون خيولاً لها نفس وزن وحجم وصفات خيول نابليون استطعنا التغلب عليه. وسأحاول الان ان اوضح لماذا لا يستطيع الحصان العربي انجاز الواجبات النظامية لسلاح الفرسان.

يحرث الحصان العربي الارض وهو يعدو. ولاتعود سرعته الفائقة لاستواء الارض امامه والتي يقطعها في قفزة واحدة، وانما للسرعة، تلك السرعة الفائقة التي يقرب بها اقدامه الواحدة مع الاخرى وتعدد خطواته. وتلك حقيقة من السهل التأكد منها اثناء حساب خطواته عند العدو بل ومعروفة للجميع. واعتقد ان الكل يتتفق معي على ان قوة الدفع التي تغطي مساحة كبيرة من الارض ستكون اقوى بكثير اذا ما نتجت عن جسد خفيف الوزن ويتحرك في مساحة اصغر. اذن، فقوة الدفع اقوى مع كل قفزة يقوم بها جسد قوي كبير الحجم. وبسبب الوقت الذي يأخذه لكي يضم قدميه الخلفيتين اثناء العدو، ينتصر الحصان العربي في السباق. ولكن اللحظة الحاسمة التي تقرر اختيار من يقوم بالواجب المنوط به في الصدام مع العدو، هي تلك الحركة الاخيرة الحاسمة بالوزن الثقيل حيث تساعد على سهولة اختراق صفوف العدو المقاوم. ولذلك يبدو لي ان الحصان العربي لايناسبه تماماً مثل ذلك الواجب لخفة وزنه

وصغر حجمه، الى جانب انه من الصعب السيطرة عليه وابقائه في
الصفوف اثناء القتال اذا ما اخذته حمية السباق.

لقد توقفت كثيراً للحديث عن جمل الصحراء والحصان العربي، لانهما
الحيوانات الوحيدان الشهيران جداً في تلك المناطق. ولكن يوجد غيرها كثيراً
في بلاد العرب لا يتحدثون عنها كثيراً ولكنها تستحق اهتمام عالم الطبيعيات
ورغم انها لا تستثير كثيراً اهتمام الرحالة. وتقدم منطقة عمان نوعاً من الحمير
صخام الحجم، الى جانب الكلاب السلوقية ولا تقل عنها بغيريتها ومقدرتها في
ال العدو ولكننا لانتحدث الا عما نعرف. ولسوف انتقل اذن للحديث عن حكمة
بغداد. ورغم ان الحديث سيكون تخطيطاً غير متكامل دون شك، الا انه سوف
يستند على معلومات حقيقة استطاعت الحصول عليها. فالجزء الاول منها
حصلت عليه في بغداد وفراها لي "درويش اغا"، حيث انه شخصية مرموقة.
وكان وزيراً لدى سعيد باشا، ولجا الى المقيم الانجليزي اثناء الاضطرابات
التي تحدثت عنها اتفاً، الى جانب ان سنه ومهاراته والمناصب التي شغلها
تجعل معلوماته شيئاً مؤكداً.



الفصل التاسع

ملخص تاريخ بغداد منذ (١٦٣٨) وحتى الوقت الحاضر

اذا ماعدنا بانظارنا الى قرون خلت، فانتنا لن نجد بلداً اشهر من تلك المنطقة في تاريخ الانسانية على ما عتقد. انها تلك الواقعة بين نهري دجلة وفرات واصبحت قاحلة اليوم. لقد كانت قد اختيرت خصيصاً لتكون موطن الانسانية منذ بداياتها الاولى. لقد رأت اول ملكية احتفظ التاريخ بذكرها، بل وحتى اسست دولة في تلك العصور حيث كانت الحيوانات المفترسة مازالت تتصارع مع الانسان على سيادة الارض.

وكانت مركزاً لامبراطوريتين آشوريتين عاصمتهم بابل. ولكن مجد هذا البلد مايكاد يخبو حتى يستعيد عافيته من جديد بنفس البريق ان لم يكن افضل، وذلك في (سلوقيا)، (المدائن)، و(بغداد) التي كانت عاصمة لامبراطورية العرب، وطارت شهرة بغداد في اكثر عصور الخلافة اشراقاً. وقد تم تأسيسها في ظل حكم محمد الثاني الملقب "بأبي جعفر المنصور" في موقع حديقة كان يقيم فيها احد النساء المسيحيين، ومازالت الحديقة تحمل اسمه.

وانا لم اكن انوي ان اعود الى تاريخ اقدم كثيراً من زماننا الذي نعيش فيه. وقد نمت بغداد وازدهرت ووصلت الى ذروة مجدها تحت حكم هارون الرشيد الشهير. ولكنها وبماشرة تحت حكم من خلفه بدأت عظمتها تتأفل شيئاً فشيئاً حتى وضع القائد التركي "طغول بك"، ومن بعده "هولاكو"، وضعوا حداً لازدهارها بنهاية الخلافة والتي عمل على سقوطها الى جانب ذلك نجاحاتها والتurf الذي انقسمت فيه وانقساماتها وتمزقاتها الداخلية.

اما تلك اللحظة الوحيدة الاولى التي تهياًت لي لاستعادة الحديث عن المدينة هي عودتها للتائق من جديد بعد سلسلة من الانحرافات واخذ نجمها يسطع من جديد كوكباً ثانياً يدور في مدار امبراطوريات نشأت حديثاً كانت تتنافر العظمة وعلو الشأن.. فقد تبعت اولاً الاتراك ثم الفرس حتى انتزعها السلطان مراد نهائياً والحقها بالامبراطورية العثمانية.

والدين، حيث العقلية الحقيقية هي السلام والرحمة، فهما مفهومان تم دائماً استخدامهما ذريعة لانزال العقاب عن طريق الحرب والدمار، وحتى الطموح نفسه فقد استخدماها لتبرير النفس. اما الفرس المتعجرفون اعداء الاتراك، ولانهم شيعة، انكروا قداسة المقام الذي شيده السنة لامامهم ابي حنيفة تكريماً له، فهو امامهم الاكثر علمًا بين فقهائهم. ان انتهاء حُرمة الضريح والظلم الذي انزله الفرس الهراطقة المكرهون بالمؤمنين الحقيقيين قد اعتبر اهانات لم يستطع ان يتقبلها او يتحملها اي من سلاطين العثمانيين. وقد قام احد العلماء الشارحين للقرآن برحله من بغداد الى عاصمة الامبراطورية العثمانية، حيث طلب السماح له بالقاء خطاب امام الحاكم في المسجد. وبعد ان حصل عليها، قدم في تعبير قوية جداً وبطريقة مؤثرة جداً شرحاً لعذابات ومعاناة اخوتهم المؤمنين وعن وقاره وجراة الهراطقة الذين قاموا بانتهاك حرمـة ضريح "الامام الاعظم ابي حنيفة" .. وتصادف ان السلطان يتبع مذهب الامام نفسه، هل يمكنه ان يتحمل مثل تلك الاهانة؟ بالطبع لا. وظهر ان موقع بغداد بالنسبة له مناسبة جداً ليكون خطأ دفاعياً امامياً. وكانت بغداد تعود للاتراك الذين ظلوا نادمين آسفين على فقدانهم مزايا موقع تلك المدينة. وجاءت الفرصة المواتية جداً، فقد تم اشعال نار الحماس الدينى، وتقرر اذن الهجوم فقد كان هناك داخل اسوار بغداد قسم من السكان يؤيدون العثمانيين. وتم اعداد جيش توجه الى المدينة التي لم تقاوم اسوارها شجاعة العثمانيين،

وانتصر السلطان مراد: ودخل من باب كان قد تم تحسينه في تلك الفترة، ولأن الباب قد تشرف كثيراً بمرور السلطان لدرجة لم يتم السماح لأقادام أخرى ان تتشرف بالمرور عبره. ويقول العثمانيون انه طالما ظل الباب مغلقاً محسناً، فسوف تبقى سلطتهم قائمة ثابتة في تلك المدينة. ولأن السلطان مراد ومن جاء بعده مباشرة قد عرفوا أهمية ذلك الموقع وكيف انه من السهل على من يحكم بغداد استغلال السلطات التي انيطت به، فقد قرروا عدم ترك الباشا نفسه، حاكماً لبغداد لفترة طويلة. وفي السنوات السبع والستين التي تبعت الغزو، بلغ عدد الباشوات الذين حكموا بغداد سبعة وثلاثين.

ان احد الاثار الطبيعية للاستبداد هي ان تلك الوسائل نفسها التي تستخدم لادامة الاستبداد، تؤدي بالتحديد الى نتائج معايرة تماماً. وعندما تكون القوانين ثابتة ومعروفة، وعندما لا يتخوف المرء سوى من استغلال الحاكم للسلطات المنوطه به، ويكون التغيير المتواصل للحاكم وسيلة تجعل من مشاريع الطموح امراً اصعب كثيراً بل واكثر خطورة. ولكن، عندما يكون كل شيء متعلقاً بارادة المستبد، وعندما تكون تلك الارادة متعددة وعرضة للتغيير المتواصل، فلن ينتج عن ذلك النظام السئ سوى الضعف والفوبي. وكما يتسبب الداء نفسه في ايجاد الدواء، وعندما تُحس بضرورة وجود حكومة قوية من اجل خير المجتمع، فان تلك القوى نفسها تنظم وتتنظم وتخرج بالضرورة من الحدود التي وضعت او التي ادعوا وضعها امام الطامعين في السلطة.

وذلك هو ماحدث لباشوات بغداد، ولم يكونوا في البداية سوى صنيعة السلطة، وبما ان تلك السلطة العليا بعيدة جداً وضعيفة غالباً ومتراجحة في قراراتها يتوجب اذن للحفاظ على بقائها ان يكون من يمثلها مُزوداً بالقوة الكافية لتصحيح الاخطاء والمشاكل التي تنتج عن ضعف

السلطة البعيدة. ولكن سياسة مغایرة يمكنها ان تؤمن سلطة الحاكم على اتباعه ولكنها تفقد احترام الجموع وكذلك ذلك التأثير الذي لا يمكن الحفاظ عليه الا بنشر قوة مؤثرة مهيبة في تلك المناطق.

وفي زمن الفوضى، يتزعزع موقف بغداد وسكانها ولن يكونوا على مايرام. فقد كان منصب البشا مُعززاً وخطيراً. وتحكم الانكشارية المدينة في حين كان العرب اسياد جميع المناطق المحيطة بها. وانهارت التجارة بسبب فقدان الحماية والثقة لدرجة ان تجار تركيا وسوريا تناسوا تماماً طريق بغداد، وغالباً ما يذهبون الى اصفهان ليتعاملوا مع تجار الهند وغيرها من البلاد.

وفي عام ١٧٠٢ م اي سنة ١١١٤ هـ. اصبح "حسن باشا" حاكماً لبغداد للمرة الثانية وقد احتفظ بمنصبه حتى وفاته. وقد امتد به العمر ليقوم باخضاع الانكشارية والعرب، ولكي يحافظ على سلطانه والامن والاستقرار في اراضيه. ولكن تلك السلطة امتدت فقط في المدينة والمناطق المحيطة مباشرة بها مثل (منطقة شهربور) التي تحتضن القسم الاكبر من كُردستان. وكان لـ(ماردين) و (البصرة) حكام آخرون. ولأنه كان سياسياً ومقداماً، فقد عرف كيف يستغل الانقسامات داخل فارس. وكافأته الحكومة بالحق حكومة ماردين الى سلطنته في بغداد. واخيراً، استطاع بمقاييسه الحصول على حكومة البصرة من اجل ولده احمد، وعلى وعد منه بتزويد الباب العالي سنوياً بمبلغ كبير. فقد كان الباب العالي يعتبر مدينة البصرة مجرد سلعة للحصول على المال. وتوفى "حسن باشا" في كرمنشاه في احدى غزواته، بعد ان ظل باشا بغداد لاثنتين وعشرين سنة.

وكان احمد الذي اصبح باشا البصرة، يصاحب والده في تلك الغزوة، وتوجه دون تردد او تأخير الى همدان واستولى عليها. وطارت

شهرته بسبب تلك الغزوة لدرجة ان الباب العالي قد عينه باشا على بغداد وماردين والبصرة، وذلك لاثارة حماسه ودفعه الى مواصلة الحرب ضد فارس وبنجاح. وفي عهده حاصر "نادر شاه" بغداد عام ١٧٣٢، وظل كذلك لثمانية اشهر، ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها، واشتري "احمد باشا" انسحابه باعادة المدافع التي كان قد استولى عليها في همدان. وقد حافظ على هيئته لفترة احدى عشرة سنة تلت وفاة والده. وفي نهاية تلك الفترة، كان رئيس الوزراء الذي كان موجوداً آنذاك اثناء حملة همدان، والذي كان يشتعل غيرة من ذلك المجد الذي يحيط به "احمد باشا" واستطاع ان يحصل على امر باستدعائه. وظن الجميع عامة ان "احمد باشا" لن ينفذ الفرمان الامبراطوري، وكان اعداؤه ينتظرون تلك اللحظة لاعلانه متمراً، ويضع رأسه على المحك. ولكنه، وعلى خلاف ما كان يتوقعونه، انصاع للامر الذي اصدره الباب العالي بل انه تم تشريفه لحرصه واخلاصه، كما انه قد حصل على المجد لشجاعته ومواهبه.

وخلال سنتين فقط، ارسلوا لحكم بغداد عدداً كبيراً من الباشوات، ولكنهم كانوا غير قادرين على السيطرة على السكان والعرب في الضواحي. وبما ان سلطة "نادر شاه" كانت في تصاعد مستمر، وجد الباب العالي نفسه وديوانه مجبرين على تعيين "احمد باشا" مرة اخرى، فهو الوحيد في نظرهم الذي يمكنه ان يمسك بزمام الامور، وان يهزم عدواً مُخيفاً كهذا. واذ عرف ان خدماته اصبحت ضرورية، فقد تحطى مایطالبه رئيسه به، فهو لن يحاول القيام بغزوات ضد عدو بقوه نادر شاه. ولكنه كقائد في الجيش التركي استطاع الاستيلاء على مناطق مختلفة من كُردستان، كان يحكمها باشوات آخرون والحقها بسلطته. ولما كان الامر يتطلب استدعاه مرة اخرى، استطاع في حدق ان يستفز نادر شاه للعدوان على البصرة. آنذاك فقط عادت له باشويته وكرامته في جميع الميادين وفقاً لفرمان جديد. وليس

ذلك فقط، بل ارسلوا له مختلف الوان المساعدة، المال والمدفعية والذخيرة
الحربية للدفاع عن البصرة.

وكان الاعتقاد السائد ان الباب العالى قد ارسل اكثر من حارس
شديد اليأس عليهم ان يُحضروا رأسه. ولكن احمد باشا كان له عملاوه
واصدقاؤه في العاصمة وعلى طول الطريق والذين كانوا ينقلون اليه
الاخبار، وكان دائمًا يجد الوسيلة للتخلص منهم في الطريق. ومع ذلك
نجح احدهم في احاطة رحلته بسرية تامة واستطاع ان يستخدم بعض
الوسائل لدرجة ان "احمد باشا" لم يعلم بمجيئه الا قبيل ساعات من
حضوره. وكان موقفه حرجاً جداً لدرجة انه لم يبق لديه سوى امكانية
ركوب حصانه مع بعض كبار ضباطه. وخرج من المدينة بحجة قضاء
بعض الوقت حيث يتسلى برمي رماح الجريدة، وهي لعبة عسكرية كثيراً
ما كان الاتراك يتسللون بها. وما كاد احمد باشا يخرج من المدينة حتى
تقابل مع الجندي الحارس كما لو كان في انتظاره. وقدموا له كل الاحترام
والتشريف اللازم تقديره لرجل يحمل فرماناً سلطانياً. وعرض عليه
احمد باشا مشاركته في اللعبة الترفية بل عرض عليه ان يكون هو من
يتشارك اللعبة معه. وكان الاتراك مهووسون بتلك اللعبة ودعوتهم
للمشاركة تعتبر اشارة على انه متميز لدرجة ان الجندي الحارس اجل
الامور الى الغد وبدأوا اللعب وكان احمد باشا قد حصل على رمح حاد
 جداً ورماد على عدوه وقتلته في الحال. وجمعوا رسائله وجميع اوراقه،
ووضعوها داخل مظروف دون ان يقرأوا شيئاً وارسلها احمد باشا الى
الباب العالى بشكل رسالة هامة جداً لكي يقرأها دون ان يأخذ اذن
السلطان. وارفق بها رسالة عزاء يواسيه فيها على هذا الحادث الاليم.
وخلف احمد باشا وراءه فتاتين شقيقتين لام واحدة. وكان شغوفاً
بالشؤون الحربية، وكان متميزاً في ميادينها. كما كان يحب صيد الاسود

ويعتبره افضل تسليمة يقوم بها. غالباً ما كان يذهب وحده، ولم يكن يريد ان يشاركه احد شرف قتله. وفي احدى رحلات الصيد تلك انكسر رمحه ولم يستطع احد ان يتصر له لانه كان يود ان يكون وحده، وكاد ان يكون ضحية جرائه وتتوهه، عندما هب سليمان، عبد والده والجيورجي الجنسية لنصرته ومساعدته متخلياً عن جميع الامتيازات واندفع نحو الاسد وقتله في الحال. وكافأه احمد باشا على ذلك بتزويجه ابنته الكبيرة ورفعه بالتدريج الى اعلى المراتب التي قادته بعد ذلك الى ان يخلف والد زوجته بعد وفاته على حكم البلاد. وعندما تقدم مكافآت كهذه، يمكن تصديق عبء العبودية لم يكن ثقيلاً جداً، والامثلة على ذلك ليست نادرة.

ولدى وفاة احمد، الذي قُتل في احدى المعارك ضد الـکرد، بعد حكم دام ثلاثة وعشرين عاماً، وان حكام مدنه ومناطقه التابعة له كانوا صنيعه او صنيعة سليمان والجميع متهدؤون لتأييد الوزير المقرب للمتوفى. ولأنه كان يتمتع بالاحترام لشجاعته ومواهبه وقدراته، اما بسبب ابنته او حفيده ثانى اخر باشوات فوض لهم الامر، وان يكونا قد حكما بغداد فعلاً. ولكن الباب العالى الذي كان غيوراً بسبب التأثير المتزايد لتلك الاسرة لم يعطهم الوقت ليتداولوا امرهم، وسارع بارسال احد الباشوات الى بغداد متعمدين في ذات الوقت تأدباً يمنح سليمان حكم البصرة. وذلك لتخفييف الضربة التي وجهها له.

وخلال سنتين، تم ارسال اربع باشوات ووجدوا ان ما اوكل اليهم امر صعب جداً ويتفوق طاقاتهم. وتمت سرقة الاول اثناء الطريق على يد الاعراب واستقبلوه في المدينة بكل احتقار وسخرية، والثاني قُتل قبل وصوله، والآخران لم يكونا قادرین على الامساك بزمام الامور وادارة الاحداث وما كادا يتمتعان بایة سلطة داخل المدينة. واخيراً رفع سليمان القناع وتقدم على رأس جيش تابع له من البصرة وحتى السماوة.

وعندما تلقى الامر بالانسحاب لم يذهب ابعد من الديوانية، وهي مدينة كان يحكمها "علي آغا"، والذي كان يدين لاحمد باشا بتقدمه كما كان ملخصاً لسليمان. وكان هذان القائدان متفاهمين جداً. وقدم علي آغا لصديقه مساعدات مالية سرية. وتظاهر علي آغا بالخوف والذعر وفر هارباً الى بغداد ولكن لكي ينشر انباء تقدم ونجاحات سليمان. وفي الحال، تم اعداد جيش قوامه اربعة عشر الف جندي وارساله الى الجبهة. وترأس محمد ترياكى، باشا بغداد. ذلك الجيش وسار نحو سليمان الذي كان مُعسراً قرب الحلة.

ولم يكن تحت امرة سليمان سوى ثمانمائة فارس ولم يحاول سليمان ان يتحرك او ان يضرب وهو يتراجع، وقد دُهش الجانبان لشجاعة وجرأة بعضهما البعض. ولكن علي آغا، واثناء بقائه في العاصمة عمل على تأليب جميع الضباط لصالح سليمان. وعندما التقى الجيشان في ساحة المعركة، هتف الجيشان معاً لسليمان. ولم يكن امام "محمد ترياكى" سوى الفرار. وعندما وصل العاصمة وجد ابوابها مغلقة في وجهه. ووصلها سليمان بعد قليل، حيث استقبله الجميع بهتافات الترحيب والفرح. وفي الحال امسك بزمام الامور والسلطة والديوان. ومن ثم ارسل الى الباب العالي مذكرة يشكو فيها سوء ادارة من سبقه من الباشوات ومطالباً بتعيينه باشاً على بغداد. وكان من الصعب رفض ذلك الطلب لمحارب كان يحكم ذلك المكان من قبل. وتم تعيين "سليمان باشا" على بغداد وعلى جميع المناطق التي كان يحكمها او التي استولى عليها عنوة والد زوجته.

واستمر "سليمان كهية"، او "سليمان الكبير"، يحكم ثلاثة عشر عاماً، وكان الشعب يحبه لدرجة انهم غنو مرثيات عديدة له ترحماً على وفاته و ما زالت تلك المراثي يرددتها المغنون في مقاهي بغداد الى اليوم. ولم يتمكن احد من السيطرة على العرب واصحاعهم سوى في عهد احمد

وسليمان. وكان من الصعب السفر على النهر بين الحلة والبصرة بدون وجود حراسة كبيرة وبثمن كبير نسبياً. ولكن في ظل حكم "احمد باشا" و"سليمان باشا" ساد الامن والامان تماماً. ولأن طرق فارس لم تكن آمنة، تحولت تجارة الهند كلها الى بغداد والبصرة ولصالح هاتين المدينتين وضواحيهما.

وقد اظهر سليمان قسوة وحزمَاً كبارين تجاه العرب، وكان دوماً يهاجمهم فجأة لدرجة لا يكادون يجدون الوقت للفرار الى الصحراء. وفي الوقت الذي سماه سكان بغداد سليمان الاسد، كان البدو يطلقون عليه "سليمان ابو الهول" * يعني ابى الليل لأن حملاته المفاجئة كانت تداهمهم ليلاً. وما كان ليترك لهم فترة راحة مطلقاً قبل القيام بحملاته. وكان جيرانه الباشوات، رغم انهم يتمتعون بنفس سلطاته، فقد كانوا يشعرون باثار انتقامه عندما يجدون انفسهم عاجزين عن السيطرة على القبائل الرحل الذين يتجلون في حدود سلطتهم. وذات مرة نهب بدروتابعون لباشا دمشق قافلة من بغداد، ويؤكد الجميع ان سليمان قام على رأس جيش وعبر الصحراء في تسعة ايام لينتقم لتلك الاهانة، وقام بنهب المدينة رغم ان دمشق تابعة كذلك لسلطنة باب العالي. وتشير احداث كذلك القراء الأوروبيين ولانه بواسطة سياسة قوية بهذه يسود الاستقرار والامن والنظام في ظل الحكومات الشرقية الضعيفة والمستبدة. وكان احمد باشا يحترم بشكل عام القيمة حتى لو كانت لعدوه. ولكن واحدة من صفات سليمان غير المحببة هو انه لا يتحمل ان يسمع مدحياً حتى لو كان موجهاً لصديق، فذلك سيكون على حساب استحقاقه هو كما يعتقد. ولكن موضوع التذمر الرئيسي منه، هو احترامه الكبير لرغبات زوجته،

* كان معروفاً بـ"سليمان باشا ابو ليلة"، حكم بغداد في الفترة (١٩ شوال ١١٦٢هـ - أول ١١٧٥هـ). [مؤسسة زين]

عادلة خاتون ابنة احمد باشا المتكبرة الطموحة التي لاتكاد تنسى ان زوجها ورغم المنزلة الكبيرة والرفعة التي وصل اليها، كان يوماً ما عبداً لوالدها. وكانت عادلة خاتون تخصص اياماً في الاسبوع تستقبل فيها اولئك الذين يطالبون بتحقيق خدمة ما لهم. ولكنهم لم يكونوا يقومون بذلك في حضرتها، وانما كانوا ينتظرون في غرفة صغيرة ملحقة بالحرم الملكي وحيث يوجد غلام يتمتع بثقتها ويتسليم الطلبات ويقدمها لسيديه ثم يعيد الجواب. وبهذه الطريقة كانت تعرف كل ما يدور. وكثيراً ما كانت تنجح في فرض الرجوع عن قرارات كانت قد اتخذت بعد مشاورات كثيرة غاية في الجدية. ولطموحها واهتمامها، استطاعت "عادلة خاتون" ان تحصل على المال بكميات كبيرة. فعندما يفوز اي اغا بمنصب ما، او تثبت في منصبه اعتاد الباشا ان يقدم له معطفاً من الفرو اذا ما كان تركياً، او معطفاً كبيراً اذا كان شيئاً عربياً.

وكانت عادلة خاتون ترسل عادة للقادة الذين كانوا قد قدموا خدمات لجدها حسن او لوالدها، شريطاً حريرياً مطرزاً لكي يلف حول الرأس لتمييز من يضعه، ومن جاعوا بهدهم في مناصب عليا. ومع مرور الوقت كانوا يعملون بكل جهد للحصول على علامة التمييز تلك، وكانت يشترون ذلك الشريط الحريري مقابل هدايا باهظة. وهكذا، أصبح من المعتاد الحال ذلك الشريط بمعطف الفرو ورغم انه ليس بالشكل اللازم لتقليد المنصب، الا ان الجميع كانوا يودون الحصول عليه وباشان باهظة.

وكانت هناك عداوة معروفة بين الاختين: عادلة خاتون واختها الصغرى، وكان قد تزوجت باحمد اغا، وهو شخصية مرمومة ومن اسرة عريقة، الى جانب انه كان يتمتع بعطف البasha، ولكن لسوء الحظ، اثار في نفس "عادلة خاتون" بعض الشك. ورغم انه رفض شرف التخلص من سليمان بطلب من الباب العالي، الا انه دفع رأسه ثمناً لذلك، كما لو انه

كان يسعى فعلاً لذلك. واجمع ذلك الحدث العداوة بين الاختين، الا ان سليمان قرر اخيراً ولكي يجمع بين مصالح الاختين، قرر تزويج الاخت الصغرى من رئيس وزرائه "عمر".

ولم يكن ذلك الامير مستعداً بدوره ان يضحي برأسه كما فعل من سبقة "احمد اغا". ولكنهم يعرفون في القسطنطينية ان الباب العالي لن يستعيد مطلقاً سلطانه على تلك البلاد، ويقال انهم قاموا بعدة محاولات للاظاحة به. ولكن اذا ما خامر سليمان ادنى شك، لا يتتردد حينذاك ان يطيح برأس من يشك فيه.

كنت قد ذكرت سابقاً ان "احمد باشا" قد توفي في احدى معاركه ضد باشا كردستان. وكانت وفاته طبيعية، ولكن "عادلة خاتون" لم ترك لزوجها فرصة للراحة الا بعد ان ينتقم لوفاة والدها من ذلك الذي تسبب في هذه الحرب. وشن سليمان عدة غزوات ضد باشا كردستان، ولكن عدوه كان ينجو دائماً بالهروب الى الجبال. فتوجب آنذاك اللجوء الى الحيلة. فاقاموا له دعوة لزيارة بغداد، وارسلت له "عادلة خاتون" شريطاً مطرزاً فاخراً. وخدعت كل تلك المظاهر باشا كردستان، الذي تخلى عن حذره ولم يعد يخشى على سلامته. بل انه تمادى في عدم الحيطة والحذر حتى وقع بين يدي عدوه. وما كاد يصل بغداد حتى تم اعتقاله، وقتل غادة وصوله في احد اجنحة القصر.

وكانت "عادلة خاتون" حريصة جداً، وغيرة على مصالحها ونفوذها فلم تسمح مطلقاً ان يتخذ زوجها زوجة ثانية، او حتى ان تكون له محظية، لدرجة انه توفي ولم يخلف وراءه ذرية، ووجدت نفسها وريثة ثروة طائلة. وعاشت "عادلة خاتون" حتى عام ١٧٦٤ وممتدة في بغداد بشرة وحسابات لاتحصى، وشيدت مسجداً وخاناً في العاصمة يحملان اسمها ولا توجد مدينة او ناحية اقل شأناً الا وساعد كرمها على تشييد اجمل اثارها.

وعندما توفي سليمان، كان "علي اغا" الذي سبق وتحدثت عنه، حاكماً على البصرة. وطالما انه كان قد تسلم جميع المناصب الاولى وهو شخصية محترمة جداً، فقد كان الامل يراوده في ان يخلف سليمان، وقد نجح في ذلك بفضل توصيات الديوان والهدايا الثمينة التي ارسلها لوزراء الباب العالي العثماني. ومع ذلك لم يبق في سدة الحكم الا اثنين وعشرين شهراً فقط.

وهناك مجال للاعتقاد، تماماً كما اتيحت لي فرصة ذكر ذلك، ان "عادلة خاتون" كانت سبب ضياعه. ولم يدخل "علي اغا" بغداد عبداً كما هو حال اصل كبار الضباط. لكنه ولد في فارس لاسرة فقيرة، ومن هنا لقبه العجمي اي الفارسي. وقد ادرج منذ شبابه المبكر في الخدمة العسكرية لدى احد ضباط "احمد باشا". وقد لفت سلوكه انتباه الباشا الذي علمه كل ما يمكن ان يعرفه رجل تركي مميز ورفعه بعد ذلك بالدرج لتسلم اعلى المراتب. وقد عرفته عادلة خاتون في شبابه، كما كانت تعرف كل ما يدين به لوالدها، وصرحت مراراً في تفاصير بانها تتمتع بنفس النفوذ الذي تتمتع به في عصر زوجها. ولكنها كانت مخدوعة في امالها. فقد اتخذ علي اغا قراره بان يحكم وحده. وقد اراد ان يقلل من سلطة الانكشارية وهم جهاز جرى، مقدام كما هو معروف وخاصة في فترات الفوضى التي تفصل بين وفاة الباشا وحتى تعيين باشا جديد. وبما انهم متمردون في بغداد كما في البصرة، فقد شعر بضرورة اتباع مثل تلك السياسة. ولكن لأن عدداً كبيراً من السكان قد اندرجو في صفوف الانكشارية بسبب الامتيازات الكبيرة التي يتمتع بها من يحمل ذلك الاسم. واصبحت المدينة بعد ذلك تحت ايديهم، وحدث تمرد واضطر الباشا للفرار من بغداد.

وبفضل مساندة كبار القبائل الرئيسية العربية، والتي كانت بشكل عام تناهض سكان المدينة، واستناداً على مخبريه وكبار الاشرار اصدقائه، لم

يمضي وقت طويلاً حتى عاد إلى بغداد. وقام بإعدام العديد من الانكشارية. وبعد فترة من الوقت أعلن بعض بأشوات الـ**الكرد** الحرب عليه، وتبعهم بالمثل قبيلة الخزاعل العربية. وانتصر على الـ**الكرد** انتصاراً كاملاً تماماً في حين انتصر عليه العرب تماماً ولدرجة أن ذلك الانتصار كان موضوع أغنية يتغنون بها في شوارع بغداد. وأنذاك فقط، وجدت عادلة خاتون فرستها التي انتظرتها طويلاً. ولم تعد تتحمل إلا يأتي أحد يستشيرها ويأخذ برأيها، إلى جانب أنه كان هناك رأى بابعادها عن بغداد. وقررت أن تعمل على إسقاط البasha. وأنشيع أنه كان يُخفي اتباعه للمذهب الشيعي، مذهب الفرس. وقدمووا مثلاً على ذلك قسوته الشديدة مع الـ**الكرد** والانكشارية وهم من السنة. بل، انه قد ترك العرب الخزاعل وهم شيعة كما الفرس يهزمون جيش السلطان. وأخذ كل يفكر أين أو متى اظهر علي اغا تحizze للشيعة. وأخيراً سادت اشاعة تقول بأن البasha من الهراطقة، وأنه إنما ينتظر فقط الفرصة المناسبة ليقدم البلاد للاعداء الفرس.

ومن بين الشخصيات الهامة في بغداد، خمسة من الأشراف كانوا في الأصل مملوكين لأحد الباشوات والذين نشأوا منذ شبابهم نشأة إسلامية. وقد تناوبوا في مراكز كبيرة في العاصمة وفي المحافظات والبلاد. وكانت تربطهم صداقة حميمة مع بعضهم ومع "علي اغا"، كذلك الذي كان قد ساهم في تربيتهم. فمن المؤكد أنهم تتبعوا باهتمام تلك الشائعة. ولكنهم في ذات الوقت كانوا يحترمون عادلة خاتون الزوجة الابنة والحفيدة لمن قام على تربيتهم، وذلك بالرغم من اخلاقها المتعالية والتي كانت في كثير من الأحيان تثير حنقهم. ولكن حدث أنه في حين كانت الأمور تسير في ذلك الاتجاه توفي فجأة أحد هؤلاء الأشراف الخمسة. وفي الحال، سارعت "عادلة خاتون" في نشر اشاعة مفادها أن البasha قد أمر بتسميه. واستطاعت بمهارة أن تضييف مايدفع للاعتقاد باحتمالية وقوع مثل تلك الجريمة. بل واكبت أنها علمت أن البasha حصل على

فرمان باعدام الآخرين الاربعة. وعندما يكون لديك امثلة في كل وقت على الخيانة، فلن تهمل مطلقاً راياً يميل الى الحديث عنها. وهكذا تيقن الآخرون بوجوب توخي الحذر، والخوف على سلامتهم. وكانوا المساندين الرئيسيين لسلطة البasha. ولأنهم خافوا على حياتهم دبروا له مؤامرة سرية لا يعرف حتى اقرب اصدقائهم ساعة التنفيذ، ويعني ذلك عندما تهب المدينة كلها ضده. ولم يتبق امام البasha سوى الفرار. وتخلى عنه جميع اتباعه، وخرج من القصر متخفياً في زي امرأة. وكان ينوي الاستعانة بالعرب، وتعرفوا عليه قبل ان يخرج من بغداد وقتل في الحال.

واجتمع الديوان في الحال ليختار البasha من بين الاشراف الاربعة الكبار الذين تحدثنا عنهم سابقاً، ومن بينهم اثنان اعترفا بعدم رغبتهما في المنصب، فقد كانوا يعتقدان ان ذلك المنصب لعم رزوج الاخت الصغرى لعادلة خاتون. ومحمد الذي كان يحكم البصرة كان اكثر جرأة وقاداماً من صاحبيه ويأمل ان يحظى بالمنصب.

وكان عمر حاضراً في اجتماعات الديوان، ولا يتميز بمعارف في مجلس الوزراء، ولا بمواهب في ميدان القتال. ولكنه يمتلك صفات شخصية حميّدة، كما انه زوج لسيدة محترمة ومحبوبة ليس فقط لصفاتها الحميّدة بل ولكونها ابنة احمد. ووافق الديوان على تسميته باشا بغداد مؤقتاً وارسلوا مذكرة بهذا المضمون الى الباب العالي. وقالوا في المذكرة ان علياً كان مهرطاً وانه كان ينوي عرض المدينة على الفرس في الوقت الملائم. ولهذه الاسباب وغيرها كثيرة.

ثار الشعب ضده واعدموه، وتبعدم الكُرد والعرب وثاروا ضده. وان عمراً هو الوحيد القادر على اعادة استتاب الامن والهدوء ويأمل الديوان ان يستجيب الباب العالي ويأمر بتنبيه عمر في المنصب الذي تسنميه مؤقتاً. وذكرت سابقاً ان التصرف الحالي لبلات القسطنطينية هو في تنبيه من

يكون في المكان المطلوب، حتى لو كانت ظروف اختياره غير نظامية. وتبثيت كهذا ينقذ شرف مكانة الامبراطورية ولا يكلف شيئاً، بل ويمكن التغيير دائمًا بتعيين شخص آخر إذا ما سُنحت الفرصة. وهكذا تم تثبيت عمر وبشكل نهائي باشاً على بغداد في صيف عام ١٧٦٤.

وفي العام الذي تلاه اعلن الحرب على قبيلة الخزاعل العربية وحرق مدينة (الملوم) مقر الشيخ الاعتيادي، وقطع رؤوس خمسة او ستة شيوخ اقل مكانة منه. اما في التقرير الذي رفعه للباب العالي ووصف هزيمتهم بأنها نهائية وتلقى التهاني من الباب العالي على انتصاره. ومع ذلك ظهر الشيخ في لحظة لم يكن يتوقعه فيها احد، وطرد الشيخ الذي عينه عمر في مكانه رئيساً للقبيلة واجبر البشا الذي لم يعد يفكر في القيام بحملة ثانية ضده، اجبره على تثبيته في مكانه ومنصبه. وقد شغلته قبيلة كعب بدورها مرات عديدة بل ويمكن القول انه طوال فترة حكمه، لم تمض سنة لم يدخل فيها حرباً ضد العرب او الكرد. وهي معارك لاتتأخر الباشوات من خوضها ليظهروا مدى شجاعتهم وقادتهم. وحتى يتم اعفاؤهم من دفع الجزية للباب العالي نظراً لما تسببه مثل تلك المعارك من مصاريف.

وفي العام ١٧٧٥، قام "كريم خان" شاه شيراز بحصار البصرة. وانتشرت اشاعة تقول، انه قام بذلك، ليس لاثارة عداوات مع الباب العالي، وإنما لمعاقبة عمر والانتقام منه لانه سبب له الكثير من المضايقات. وعاد الناس بالذاكرة وظن الناس ان عمراً يقلد سياسة احمد الذي كان يستفز الفرس ليهاجموه وليدلل على اهميته وضرورته وجوده. وارسل الاتراك جيشاً ضده وعلى رأسه العديد من الباشوات. واستطاعوا ان يتغلبوا عليه ويقبضون عليه في بدايات ١٧٧٦. وقد وعدوه بالغفوة، وبحكومة (الرّها) بدلاً من حكومة بغداد. ولكن الاتراك نادراً ما يتمسكون بوعودهم، وما ان اصبح تحت سلطتهم حتى قطعوا راسه وارسلوها الى القسطنطينية.

وكانت تلك فرصة مناسبة لاستعادة نفوذ الباب العالي الذي فقده منذ ان استولت اسرة حسن على السلطة في بغداد. ولم تسمح زوجة عمر بدورها ان تكون له زوجة ثانية او حتى ان تكون له مملوكة او عبدة. ولذلك فلم يترك ذريه وراءه عند وفاته. ولكن سكان بغداد، تعودوا منذ زمن طويل ان يختاروا الباشا الذي يحكمهم ويقوم الباب العالي بعد ذلك بتثبيته في موقعه. وحدث كهذا لا يعيid للباب العالي سيطرته على اسس متينة. وانتخب الشعب "عبدالله كهية"، ليقوم بلاط القسطنطينية بتثبيته كما هي العادة.

وفي بدايات عهد عبدالله في ربيع ١٧٧٧، استولى الفرس على البصرة عبر خيانة الحكومة، ولكن وجودهم في تلك المدينة التي سادتها الفوضى كان غير مجد لهم تماماً. واضطر كريم خان التخلي عن انتصاراته ليجاهه اعداء كانوا يهددونه من جهة اخرى.

وطالما انه لا يمكن الاعتماد على الامساك الهدائى بمكانة تمنحها غالبية غير ثابتة او مستقرة يوجهها بعض الرؤساء، وكذلك لا يمكن الاعتماد على تسميتهم من قبل سلطة عليا تتمتع بحق الخضوع واطاعتها، فاننا نرى عبدالله، عبدي، مصطفى وحسن، وهم اربعة باشوات لم يحكموا فيما بينهم سوى ثمانية اعوام لم يقدموا سوى صورة ظاهرية لسلطة تتقاسمها الشخصيات الرئيسية في المدينة. وهم بالتناوب اما مماليك او طغاة ينزلون الظلم بالشعب او بضباطهم المقربين، ولم يستطع اي منهم ان يثير الاهتمام سوى بضعفه، وأثاره، ولم يتركوا اثراً في التاريخ، هذا اذا لم نكن نود الحديث عن القسوة المبالغ فيها التي مارسها مصطفى ضد جريمة بشعة، وذلك بالقاء المذنب من فوق اعلى المناجر عقاباً له وهي عادة شائعة بين الاتراك.

ومع ذلك، وفي ظل سليمان الذي كان يطلق عليه اسم "سليمان الكبير"، والد صهيود سئ الحظ الذي تحدثنا عنه سابقاً عن نهايته المؤسفة. ترى ان سلطة البasha يعمل تسامع الباب العالي على تقويتها وتنشيفتها. ولكن بقاءها يتوقف في النهاية على امكانياتها الذاتية وحدها. وخلال حكم طويل دام لاكثر من عشرين عاماً، اتبع "سليمان الكبير"، سياسة قوية اكثر منها حكيمة وزاد نفوذه واصبح قوياً لدرجة ازالت تماماً تقريباً. التأثير المتارجح لبلاط القدسية. وكانت صفاته قاسية جداً لاتتززع، ونجح في اقامة ونشر النظام والامن في اراضيه، وقضى في المدينة على تجاوزات الاشراف والانكشارية واوغل في الخارج الاستهتار الذي مارسه العرب والكرد بقوة السلاح. وترك عند وفاته سمعة حازمة وقوية وقائمة من الاصدقاء المخلصين لمصالحه، واسرة كبيرة العدد مازال الاولاد صغاراً لكي يأخذوا مكانه.

ونظراً لصغر سن ابنته وعدم وجود من يتمكن من ببنهم الامساك بزمام الحكومة، تم الاختيار علي احد ضباطه ليأخذ مكانه ولكنه مالبث ان تم اغتياله في المسجد اثناء صلاة الصبح على يد مملوك جيورجي. ونجح سليمان الصغير، الذي كان قد تزوج الابنة الكبرى لسليمان الكبير، نجح في الحصول على منصب البasha. وارجع الجميع تقريباً، مقتله لأسباب انتقامية او لعدم الرصانة. وكان الجيورجي قد استغل اللحظة، نظراً لتخلي علي عن سلاحه الشمين المزخرف اثناء الصلاة، وفقاً للعادات الاسلامية. وانظر وتعجب من دقة المنطق التركي. قُتل علي اثناء صلاة الصبح، ومنذ ذلك الوقت تخلى الباشوات عن المشاركة في صلاة الصبح، ولم يفكروا في اتخاذ اجراءات احترازية ضد نفس الخطر الذي يمكن ان يواجهونه عند صلاة الظهر والمساء.

ورغم انه مشهود له بالشجاعة كما هو تقريباً حال جميع الضباط الاتراك، الا ان "سليمان الصغير" لم يكن مؤهلاً بمواهب الامارة الضرورية، وتوفى في احدى الحملات التي لم تجهز جيداً ضد قبيلة عربية اراد اخضاعها. وكان منصاعاً تماماً لتأثير زوجته ونفوذ اسرتها. وفي هذه البلاد حيث تعدد الزوجات، فان من يتزوج من امرأة نبيلة المولد، من الطبيعي ان يصبح اول عبد لها. فهي تحتفظ بكل ثروتها وتواصل التمتع بتأثيرها الكبير، وفي حال عدم انصياعه لرغباتها فانها تجد وسيلة للتخلص منه. وحقيقة اوضاع وظروف نساء تلك البلاد تخدع معارف الكثريين. وفقط من تقع في احبولة العبودية هن النساء ذوي المكانة الاجتماعية الدنيا. وتزداد امتيازات الرجل في تركيا عزلة النساء. ولكن يجب ان نتفق ايضاً على ان الخضوع المخالف للطبيعة الذي يفرض على المرأة ذات المولد النبيل من المرجح، يعمل على توازن كفتي الميزان.

وكان سليمان الصغير، كما هو حال اثنين من سبقاه ظل محظوظاً بزوجة واحدة، ولذلك لم يترك وراءه ذرية بعد وفاته. وجاء من بعده "عبد الله الطيب"، وجعلته صفاتة الجميلة الرحيمة جديراً بذلك الاسم. وكان خلوقاً جداً لكي يستطيع ان يحكم قوماً متربدين. وفي تلك البلاد التي لا تعرف شيئاً عن سيادة القانون، فلن يكون الحاكم انساناً كريماً دون ان يقع في المخاطر؛ لانه لا يستطيع ان يعفو عن اعدائه، او ان يثق باصدقائه. كما ان ابعاده عن الاخذ باجراءات الشدة والقسوة من اسباب ضياعه، لانه لا يمكن ان يحكم شعبه الا بالحديد والنار. وان كان يريد اصلاح الخطايا، فان عدالته الخالصة غير المنحازة والمدبحة بالانسانية، واخلاقه تدفعه لان يكون ضحية الانحطاط العام. وقد خانه الجيش في احدى حملاته ضد عرب المنتفك وقطعوا رأسه.

وسعيد، الابن البكر لشخص خلف وراءه شهرة كبيرة، سليمان العجون، وسلم زمام السلطة بطلب من جميع اجهزة الدولة حيث كان الجميع

يتوقعون حكماً مُستقراً ومُزدهراً. ومنذ ربيع شبابه، كان هادئاً، دمث الخلق، محترماً في حياته العامة والخاصة. وقد نسى تماماً ان هذه الصفات جميعاً كانت قد حكمت على "عبدالله الطيب"، بالضياع. وكان رمزاً للشعب، ويجب عليه اثبات اخلاصه الاكيد للبلاد كما فعل من قبله الكثيون. ولكن اول عمل قام به وهو في السلطة هو ان يغمر ذويه واصدقائه بجميع الامتيازات المتاحة له. وقد اسرف كثيراً في كرمه ولم يفكر كثيراً في غده فهو لا يألو جهداً لايجاد الوسائل العديدة ليقدم مكافآت جديدة كما كان محبأ للهدوء والراحة، واهمل في واجباته تجاه شؤون الدولة تاركاً اياها لوزرائه وللمقربين اليه. وبما انهم لا يمتلكون الخبرة كما حال رؤسائهم لا يفكرون الا في التمتع بسلطة لاحود لها فمن السهل تصور انهم يفضلون حب المتعة والانغماس في مظاهر الترف الشرقي على القيام بشؤون الدولة. وما ان تسلم مقاليد الحكم، حتى ايقن اكثر مناصريه وفاء انه غير قادر على الحفاظ على النظام في البلاد التي خضعت له. وكان صغر سنه ذريعة له، ولكن وبعد مضي ست سنوات تقريباً لم يعد يخفى على احد ان صفاتة لا تعود الى اولئك الحكام الذين يكتسبون الخبرة مع مرور الوقت.

ومع ذلك، فان نفوذ وذكري والده الشهير كانتا يحيطان به، ورغم الاضطرابات التي سادت البلاد، ظل يتمتع ببعض الشعبية. ولكن لسوء حظه، وجد عدواً له في الرجل الذي كان يجب ان يكون حارساً له. انه "داود افندي"، المملوك منذ طفولته ولكنه مع ذلك تمنع بنشأة وتربية مميزة وفرها له "سليمان الكبير"، الذي رفعه الى اعلى المناصب في الدولة، بل وحتى شرفه بتزويجه احدى بناته، اذن فهو زوج اخت سعيد سعى الحظ، والذي غمره بالامتيازات والنعم التي لا تحصى. ومع ذلك دفعه عدم الرضا الى ترك بغداد والانزواء في القدسية حيث لم يأل جهداً في خلق انواع المؤامرات للاطاحة بمن غمره بالهدايا ولكي يصبح باشا بغداد بدلاً منه.

الفصل العاشر

ثورة في بغداد في الفترة التي كان فيها الكاتب في بغداد، عزل الباشا
سعيد ووفاته، زيارة خلفه داود باشا لوزرائه، قسوة الباشا الجديد،
وصف بغداد، اليهود، الحكومة، الشرطة

لقد وصلتُ بتلك النبذة عن تاريخ بغداد تقريرًا إلى الفترة التي
وصلت فيها إلى المدينة. وقد اكتسبت أسرة سليمان الكبير، نفوذاً لم
يستطيع الباب العالي إلا أن ينظر إليها بعين الحسد. وتدالو خمسة
باشوات السلطة بدون الاعتراف بسيادة القسطنطينية، بل يعرفون فقط أن
عليهم تثبيتهم بشكل يليق بمكانتهم وكرامتهم التي كانوا يتمتعون بها
حتى قبل التثبيت، وبحيث كان من الصعب أن ترفض سلطة القسطنطينية
طلب تثبيتهم. ولكن، إذا ما كان سلاطين آل عثمان قد اهملوا حقوقهم، في
تلك المناطق، إلا أنهم لم يتخلوا عنها. وجاءت اللحظة المناسبة لينتزعها
"محمد الثاني" بقوة وبمهارة. واد وافقوا على اصدار فرمان بتثبيت "داود
افندي" باشاً على بغداد، وطلبو منه أن يبذل كل ما بوسعه لاقرار
الاعتراف به ممثلاً لقوتهم وسلطانهم.
ان مغامرة كتلك ليست صعبة الحدوث في آسيا، كما في دولنا
المتحضرة ذات الادارة المنظمة القانونية. ويكفي ايجاد اي عذر او اية
حجة لاستخدام السلاح. ومن كان بالأمس هارباً، يصبح بطلاً في الغد. وقد
ترأس داود افندي جيشاً قوامه اثنى عشر الف محارب وتوجه نحو بغداد
بعد ان جمعهم من الولايات المحيطة بها. وكان ايضاً مسلحاً بفرمان

الباب العالى الذى يفرض تقبله، لكنه لم يجد التأييد المطلوب، او امرواً تنذر بالثورة.

وعند وصولنا بغداد، فان النصر الذى احرزه "سعید باشا" يدل ربما على وجود سلطة تعتمد على الاستحواذ، النجاح، او على نفوذ الاسرة وعلى تأييد اقوى القبائل العربية، اي سلطة دائمة اكيدة. ومع ذلك، كانت هناك دوافع تمنع امكانية الاعتقاد بسيادة الهدوء..ورغم ان سعید باشا يستند على جانب قوى، الا ان ماينقصه هو السياسة والجسم. هذا الى انه اختار وزيرًا معروفاً بمواهبه، الا ان وفاه مشكوك فيه. وشعر داود باشا انه شخص غير مرغوب فيه، في الوقت الذي عادت فيه القبائل العربية التي ساندت "سعید باشا" الشاب، عادت الى الصحراء نظراً لقلة المراعي في المدينة.

على اي حال، وخلال الايام الاولى التي اعقبت وجودنا في بغداد، تراجع داود باشا مع كرده، حيث يبدو ان الامن قد ساد البلاد، وتم فتح ابواب الاسوار لمورور المؤمن. اما القادة الكبار بشكل عام اتخذوا موقفاً مؤيداً الى جانب سعید. ولكن الباشا لم يستطع استثمار النجاح الذي احرزه وعاد الى كسله المعهود ومطالبـاً كبار ضباطه واشرءاء المدينة الى دفع مبالغ باهظة في حال احتاج الدولة الى موارد غير اعتيادية. الى جانب ذلك لم نستشعر شيئاً ينذر بالخطر او يذكر بالخطر الذي واجهته المدينة سوى بعض التغييرات الطفيفة في مناصب الدولة العليا، واسئعات تتحدث عن داود افندي الذي يجمع قوات جديدة ويستعد لهجوم وشيك على بغداد.

في الثاني عشر والثالث عشر عرفنا ان شخصيات كبيرة هامة بدأت تغادر المدينة سراً، اما في الرابع عشر امر سعید بالقاء القبض على شخصية ثرية جداً رفضت دفع المبالغ التي طلبها الباشا. وتجرا ذلك

الثري باعلن رفضه علانية وتحصن في منزله، بل حتى انه اعلن تأييده صراحة لـ "داود افendi". وزادت الثقة في نفوس المناهضين للوضع القائم، بل اعلنوا التمرد واستولوا على اكبر حي في المدينة المعروف بحي الشیخ نسبة الى "الشیخ عبدالقادر" الذي يتمتع بشهرة واسعة وبانه يجترح المعجزات. ان كل مكان يدور في المدينة يُنذر بكارثة وشیكة وتزايد عدد الهازین من المدينة، بل ان "یاسین بك" شقيق الباشا كان اول من تركه، رغم الهدایا والعطایا التي غمره بها. وقد وقعت بعض المناوشات الصغيرة داخل المدينة، وكنا نستطيع ان نشاهد كل ذلك من فوق اسوار مقر المقيم البريطاني. ومع ذلك ما زال هناك كثيرون يؤيدون سعید باشا، سیئ الحظ، الذي ما زال يسيطر على القصر والقلعة التي تحكم المدينة. ولكن اللحظة الانية تلك كانت تتطلب القوة والعزم والجسم وهو ما لا يملکه. ونصحوه كثيراً بقصف الحي المتمرد بمدافعه، وهو امر ربما اعاد النظام الى المدينة، الا انه لم يفعل لسوء الحظ. بل انه شغل مرتفعته اي عساکرہ Asgailis²³ في مناوشات لا فائدة منها وفي محاولات عقيمة للسيطرة على القادة المتمردين. واغلقنا ابواب مقر المقيم البريطاني، في حين ان حراسنا كانوا دائمآ على استعداد. وتحصنت جميع المنازل التي كانت تتطلب الدفاع عنها حيث اقيمت حولها الحواجز والمتاريس، ولم يعد يسمح بدخولها لا للاصدقاء ولا الاعداء. اما المدينة فلا تقدم سوى صورة للفوضى والاضطرابات. فهنا فرقة تندفع للهجوم تملؤها الثقة وتضرب وتحارب وهي تتراجع، اذا مارأت عدواً ما، ونسمع هناك صيحات الحرب يطلقها

²³ لم اعرف اذا ماكنت قد استطعت كتابة لفظة الكلمة جيداً. بالإضافة الى انهم ثلاثة من الجنود العرب، في الضواحي على الخليج الفارسي. وهم تحت امرة من يدفع ويتبنون قضيته. لكنه اذا ما وقع مثلاً، فلاتوجد صعوبة في الدخول في خدمة المنتصر. وفي بغداد، يتبعون شیخاً یعينه البasha، ويعتبرون احسن جنوده (عساکرہ).

المرتزقة وهم يهاجمون احد المنازل، وفي مكان اخر يقود ضباط الحرس الكبار جنودهم ضد المتمردين، او ينسحبوا محاطين ببعض الجنود المخلصين، وتراهم يمرون تحت اسوار المقر وهم يلوحون احياناً بسيوفهم الكبيرة في غضب ويهددون اعداءهم، او احياناً يهربون مع بعض الاصدقاء ويطلقون نظرات الحسد على الاسوار التي تحمينا.

ومنذ بداية الاضطرابات، جاء الكثيرون يحاولون الاختباء في حماية المقر البريطاني^٤. ولم ينجح الحالنا او تقدير المخاطر التي تتعرض لها في اقناعهم بالانسحاب من المقر بل قالوا لنا انهم اتوا ليموتووا معنا. باختصار كانوا يشعرون ان ستين جندياً من المقاتلين المخلصين تكفي لكي نتحدى طويلاً قوى المدينة كلها وانهم لا يعرفون حماية اكثر ضماناً.

ولخمسة ايام عاشت تلك المدينة نفس مظاهر الاضطراب والفوضى. واخيراً، اعطى سعيد اوامره للعساكر بمهاجمة حي المتمردين. ولكن قائد تلك الثلة من الجنود صرخ بأنه لا يستطيع ان يتحمل النتائج الحتمية الوحيدة التي يمكن ان يفرزه هجوم كهذا. ورفض تنفيذ الامر، وكان ذلك اخر دليل ضعف واولى بوادر السقوط. وبعد عدة ساعات علمتنا ان "داود افندي" يتقدم على رأس جيش جرار نحو بغداد وانه على بعد مسيرة يوم واحد. وتقدرت العبيدة الجبورجيون الذين في القصر على سيدهم واضطرب البasha للهروب الى القلعة، ولكنهم حطموا الكوبري الذي يؤدي الى القلعة حتى يمنعوا عساكره من اللحاق به.

²⁴ ما هو الفرق بين الموقف الذي نعيشه هنا، وبين الموقف التي يعيشها قناصل بريطانيا في بلاد اخرى اسلامية، وفي بغداد المقر البريطاني هو المكان الوحيد الامن في هذا الاضطراب، وحيث ابقى التجار بشرواتهم. في طرابلس او في الجزائر، اذا حدث هجوم فهناك امل للنهب، ومن اين جاء ذلك الاختلاف؟ في السياسة التي تتبعها مع هؤلاء البرابرة الوجهين. في الشرق تتبع مثلاً مفضلاً جداً لدينا: "ليكرهوننا ولكن يهابوننا" واما لم نجد من يحبنا فانهم يحترموننا ويهابوننا.

وبدأ انه لم يعد هناك امل لسعيد، فلم يبق معه سوى اربعونا
عربي في القلعة، ولم تكن لديهم مؤن رغم انه كان من السهل بمكان ان
يجلبواها. وكان المتمردون يسيطرون على معظم احياء المدينة التي
دخلها "داود افendi" ظافراً في العشرين من فبراير (شباط) واعطى اوامرًا
لاجبار القلعة على الاستسلام في الحال. ولم يكن بدًّ من الحيلة والحضر
عند التجوال في شوارع المدينة فمازال هناك كثير من اتباع سعيد الذين
صمدوا في مختلف الاحياء. كما كان هناك على الشاطئ الغربي العديد
من عساكر سعيد حاملين السلاح رغم ان رئيسهم قد تخلى عنهم وهرب في
جبن شديد. ومع ذلك ارسل داود افendi ضابطاً الى المقيم البريطاني
ليقدم له فروض التحيات وليخبره ان الهدوء قد انتشر في المدينة.

وآنذاك اصبح في بغداد رئيسان يحمل كل منهما لقب البasha.
ويعرف جماعة كل منهما برئيسه، ولكن سعيد باشا ظل بالاسم فقط.
وإذا مالم يكن قد اهمل نفسه، وإذا ما استمع الى النصائح وكان لديه
التصميم، لبقي له بعض الرصيد. ولم يبق معه في القلعة سوى اربعونا
من الجنود العرب الاولفاء. ولكن كانت تنقصه المؤن رغم وفرة المدافع
والذخيرة من جميع الانواع. واخيراً، نجح في كل الاحوال في عبور النهر ليلاً
وانضم الى اتباعه في الجانب الغربي من المدينة، ووصل الى الصحراء على
رأس العديد من الانصار العرب المخلصين.

وكان داود باشا، ذكياً ماكراً، وكان يعرف جيداً ما الذي يستطيع
عدوه ان يفعله. فقرر ان يتمهل ويحلأ للحيلة، وكان يهاجم القلعة يومياً
الى ان تستسلم بل وهددها بشن هجوم شديد دون ان يصدر امراً بذلك.
وطلب من جيشه اللحاق به لانه تقدم مع طلائعه فقط وكانوا قليلاً العدد.
وشكر علناً الجيورجيين المماليك لأنهم حفظوا حياة سعيد. وظل يراقب
القلعة بكل اهتمام وسمح بدخول بعض المؤن بل وحتى سمح لوالدة

سعید سئ الحظ، ان تذهب للحاق به. وسعید هو ابن سیده عندما كان مملوکاً له، وهو رجل واردف قائلاً: ان سعیداً شقيق زوجته التي قدمها له ذلك الرجل العظيم سیده، وسعید هذا شاب غیر، والذين نصحوه هم المذنبون وسيلاقون العقاب الصارم على تلك المقاومة التي ابدوها. اما بالنسبة للبasha (وكان يجب ان يلقبه هكذا) فلسوف يرسلونه سالماً الى حلب عندما يعترف باستحالة الصمود والمقاومة لفترة طويلة. تلك كانت الطرق التي استخدماها لكي يقبل سعید باقتراحاته للتسوية، بل انه نجح بذلك ان يدفع سعیداً الى انهاء خدمة عساکرہ الاوفیاء.

وقد وجد هؤلاء المحاربون الاوفياء عن تخلى رئيسهم واختفى في جبن ونذالة، ووجدوا انفسهم محاطين بالاعداء من كل جانب، ورغم قلة عددهم رفضوا الخضوع. وطالبوa بالسماح لهم بالخروج مع اسلحتهم وامتعتهم، وان يرسل لهم داود قرآنًا²⁵ ليكون دليلاً على صدقه. بل انهم هددوا في حالة الرفض باشعال النار في مخزن الذخيرة وتغيير القلعة وجزء من المدينة. واذا وجد الاخرون انهم قادرؤن على تنفيذ ذلك التهديد وافقوا على شروطهم ووعدهم بالحفاظ على حياة سعید باشا، وخرجوا آنذاك من القلعة بامتعتهم واسلحتهم.

وتغير المشهد بعد ذهابهم. وفي ليلة الرابع والعشرين، اي نفس يوم انسابهم، وصل سيد علوي، اغا الانكشارية الجديد الى باب القلعة. وكان يحمل امراً من داود ويحيطه ثلاثة اتباع. ودخل القلعة دون صعوبة تذكر، وكان يرتدي المعطف الاسود الطويل الذي يرتديه العرب. ولكن كان من السهل التعرف عليه لقامته الطويلة وشرارات الخشب والانتقام تتطاير من

²⁵ يعتبر ذلك التقليد اهم دليل على الاخلاص الذي يود ان يبرهن عليه المسلم. وهو يقسم على الكتاب المقدس قبل ارساله، حتى يكون شاهداً ضده اذا لم يتمسك بكلمته.

عينيه^{٢٦} وانزوى سعيد باشا في شقته. ودق الباب وفتحته والدته في قلق وكانت ساعة تقديم انفسهم لها فأل شؤم. وحاولت ان تسؤال عن سبب مجى القادمين، الا انها تعرفت على سيد علاوي ولم تعد تشك في حقيقة ما سيحدث. وضمت ابنها بشدة بين ذراعيها، وهي تصيح عالياً وتتوسل برجل لا تعرف الرحمة بالانسان طريقها الى قلبه. ولكن القتلة اردو ضحيتهم بضربية فأس وتدحرجت راسه وما زالت امه تضممه بين ذراعيها.

وفي صبيحة اليوم التالي سمعنا خبر المأساة الدامية. وقد نقلوه لنا بنفس اللامبالاة التي نقلوا بها اخبار الامس. وكان سعيد باشا في الثالثة والعشرين من عمره عندما لقى حتفه بهذه الطريقة. وكان بريئاً من التهمة التي الص quoها به وهي مقتل "عبدالله الطيب"، ولم يكن حتى الواقع لحدوثها. وكان يمكن لصفاته الجميلة الهادئة المسالمة ان تجنبه ذلك المصير، بل ربما تكون سندأ له. ولكن وجوده في منصب خطير كهذا، وفي الوسط الذي نشأ فيه، لن تكون الطيبة او الكرم دوماً في صالحه. بل ان طيبته هي الوحيدة التي دفعت مواطنه ناكري الجميل لوصفه بأنه لم تكن لديه القوة الكافية لكي يدين احداً ما. بل يوجد كثيرون من بين الذين عملوا على ضياعه، كانوا يديرون له بحياتهم لانه انسان، بل انهم حصلوا على الجاه والثروة بسبب ثقته العمياء فيهم. حتى شقيقه "ياسين بك" تخلى عنه في بدايات الاضطراب والفوضى، ورغم انه كان اول من تمنع بسخائه وكرمه واسرافه في العطاء. و"داود افندي" نفسه والذي تمنع في عهده وعهود والده بالكرم الزائد والتسخاء الى جانب انه قد عاش اشكالاً من الحظوة المعروفة للجميع والتي لا يمكن تخيلها والذي كان يجب ان يكن له الاحترام وان يحفظ له حياته لانه يدين له بكل ما هو عليه آنذاك. ووقع سعيد ضحية اشمئزازه

²⁶ لقد كان سيد عليوي، الذي نفاه سعيد باشا، البطل الرئيسي لهذا المشهد الدموي. ولما عاد من منفاه لم يكن يعيش الا للانتقام بسبب الاتهامات الحقيقة او الخيالية التي تلقاها.

من ارقة الدماء. وذلك بعد ثمانية ايام من وصولنا بغداد وحيث وجدته يتمتع بسلطات لا حدود لها. وخرجت من تلك المدينة مع اولئك الذين سوف يحملون رأسه الى القسطنطينية ليعلقها سيده الغاضب على باب قصره.

وكانت وفاة "سعید باشا" نذيراً للقيام بتغييرات شاملة في جميع ميادين الدولة، وضمناً بالاستعدادات لاجراء اول مقابلة مجاملة لمن خلفه. وتحدد يوم السادس والعشرون لتلك الاحتفالية. وخرجنا ظهيرة ذلك اليوم تسبقنا دقات الطبول واصوات المزامير الخاصة بالمفرزة. وافتتح المسيرة ستة من الفرسان ليفتحوا لنا طريقاً بين الجموع. وتبعتهم مفرزة هندية ثم يجيء المقيم ومستشاره الاول وسكرتيره وانا. وامتطى الجميع الجياد وهم في ملابسهم الرسمية. ثم اكتمل الموكب بباقي الجنود والجسم والخدم ووراءهم رعاع بغداد عبرنا الطريق وسط ذلك الحشد الكبير ووصلنا القصر حيث كان كل شئ مهيئاً لاستقبالنا. واحتشد الناس في الباحة الخارجية وقام الانكشارية بتوزيع ضرباتهم السريعة للبقاء على النظام وكونوا سياجاً مزدوجاً لمروتنا.

وهناك ترجلنا، ودخلنا الساحة الثانية عبر مدخل واطئ حيث اضطررنا للانحناء حتى نستطيع المرور. ووجدنا حوالي ثلاثة مملوك جيورجي، معروفون بالجمال وحسن المظهر وهم فخورون بذلك. وكانوا يحملون السيوف التركية الكبيرة والمسدسات والبنادق والفووس، وكانوا يتقدمون في صمت مهيب ودخلنا غرفة جانبية داخلية، يمكننا ان نرى عبرها قاعة الاجتماع التي تضم الباشا والديوان. ورأينا البasha في بنته الرسمية وحراسه الثلاثة للتدليل على مكانته والعلم التركي بجانبه. وكان متكتئاً على وسائل مغطاة بالحرير والقطيفة وعلى يمينه اعضاء الديوان. واومأ البasha برأسه مع كل واحد يقدم اليه، وجلسنا على

كراسي اصطفت على يساره. وقدموا لنا القهوة وتحدث البasha مع مسيو ريج، ومع "الدكتور هيوني" Heine، الذي كان يعرفه من قبل.

ولم تكن تبدو على ملامحه سمات البربرية، ولا يبدو عليه انه السفاح الذي قتل اقرب الناس اليه، وهو الرجل الذي قلنا عنه انه رجل قاس لا تتزعزع قسوته. وكان رجلاً متوسط القامة من غير تكلف، ولربما اعطيته الأربعين فقط هذا اذا ما لم اكن قد عرفت قبلًا انه في الخمسين من العمر. ولحيته سوداء في سواد الكهرمان الاسود، ولكن يبدو انه يعالجها بالصبغات لتبدو في هذا اللون. ويبدو ان اعضاء ديوانه اكبر منه سنًا، رغم انهم يغطون بدورهم ذلك الشيب الذي يُزين الشيخوخة. اما صديقنا "درويش آغا"، الذي جاء يبحث عن ملاذ له بيننا، كان احد مستشاريه، وبدأ انه مرتاح لعودة الهدوء. وكان الجميع يتذمرون الصمت، لانه من اصول اللياقة الا يشتركون في الحديث الا للراحة على اي سؤال يوجه اليهم، وكان الكلام قليلاً وعرفت في الحال ان اللقاء كان مُحدداً بتقديم بعض التهاني.

وخرجنا بنفس الطريقة وبنفس النظام الذي جئنا به، وامتنينا الخيول، وتوجهنا نحو الوزير بتقديم التهاني اليه بتعيينه في المنصب. وقد استقبلنا تقريرًا بنفس اصول الرسميات، رغم انها لم تكن متساوية، اذ قدم لنا عدا القهوة، الغليون والعطور ومختلف الحلويات.

وفي الغد قمنا بزيارة كبار موظفي البasha آخذين في الحسبان زيارة من ابعادنا. وخلال شمانية ايام قدموني الى ثلاثة من كبار قادة الجيش وعدد غفير من وزراء الدولة وكبار الموظفين. واستقبلنا جميع هؤلاء الكبار، القدماء منهم او الجدد، في وقار صامت، ولم يظهروا حيرة في التمسك بالمناصب التي تقليدوها توا، ولم يشيروا مطلقاً الى الاحداث التي جرت مؤخرًا. ولربما كان ذلك لعدم الاهتمام بأهميتها بقدر ما يبالون بالتجربة لابداء رأي حول مناصبهم غير المضمونة التي تقليدوها منذ

قليل. ولكنني لاستطيع ان امنع نفسي من التفكير بان ذلك على الاكثر هو من دواعي جمود الحس والخمول المميزين لهم.

اما "سيد علاوي"^{*}، رئيس الانكشارية، هو الذي تحدث بهذا الشأن مع السيد "ريج"، وقد ذكر اثناء الحديث وبكل بساطة بأنه الذي اطاح برأس البasha السابق. وكان الاغا رجلاً حيوياً، جريئاً كثير الكلام الى جانب انه الروح لذلك الجانب الذي يخلص له. وفي مناسبة اخرى قدم لنا بعض التفاصيل التي نجهلها نسبياً عن الجيش الذي يترأس قيادته. وفي فترة عداؤته و ايام منفاه، يبدو انه كان يدين بالكثير للسيد "ريج"، واراه يتحدث معه دون تحفظ. وقال لنا ان هزيمة الجيش الذي تقدم وكان يرأسه كانت هزيمة تامة. وانه كان مُعسكراً مع ثمانمائة جندي على مرمى مدافع القلعة، وفجأة هجم عليه الف وخمسمائة من عرب المنتفك، وكانت المفاجأة كبيرة لدرجة ان جميع جنوده هربوا وتشتتوا²⁷. وقد نزع الهاربون وهم يتراجعون الهلع في باقي افراد الجيش وبالغوا في تقدير اعداد المهاجمين واصبح الهروب شاملاً. حتى ان "داود افندي" بقى وحده في المعسكر، وادا كان العرب قد استغلوا ذلك النجاح الاول، لكانوا قبضوا عليه او اردوه قتيلاً.

وعندما استقر الوضع للباشا الجديد، فمن طبيعة الاشياء ان يحاسب من تقلدوا مناصب رئيسية سابقاً حسابةً عسيراً. وفي ظل حكومة مستبدة، فان السلطة كما الاسفنجية تمتلى وتنتفخ بعصابات الترف الزائل حتى تأتي يد اقوى تسيطر عليها وتستولي عليها وتعتصرها اعتصاراً. ان الاعتدال الذي بدأ به "داود افندي" عهده، لم يخدع احداً من عرفوه جيداً وعرفوا جوهر اخلاقه. فقد توقع الكثيرون مقتل سعيد باشا، رغم صلات القربى التي تربطه بالباشا الجديد ورغم ضرورة وجود بعض

* كان "السيد علي آغا" رئيساً للانكشارية أيام حكم داود باشا. [مؤسسة زين]

²⁷ انه الانتصار الذي حدثنا عنه عرب قبائل المنتفك ونحن في الصحراء، وعندما اجبروا داود افندي ان يرفع الحصار مؤقتاً عن المدينة.

الحياة ولو قليلاً من ضعف وتواضع سعيد. وقد اسرفوا في الوعود والاحتتجاجات من اجل ان يسود الاستقرار العام والثقة في الوضع القائم، ولمنع الضحايا المحتملين من الاختباء من ضرباته المتوقعة. ولكن ما ان وصل الجيش، حتى انذروا جميع من كان يؤيد العهد السابق بضرورة تجهيز نصيبيهم من المبالغ الكبيرة الضرورية ل حاجات الدولة، واحتياجات الجيش الى جانب الهدية الكبيرة الخاصة التي تقدم للباشا. وتم القاء القبض في الحال على الشخص المفضل لدى سعيد سى الحظ وعلى العديدين كذلك. ومن بينهم زوج ارملة سليمان الصغير، شقيقة سعيد، وهي امرأة ذات مقام رفيع وكانت تتمتع بنفوذ كبير كونها زوجة وابنه واخت لثلاثة باشوات مختلفين، وقد رفضت الزواج من قبل من "داود افندي". واصبح التعذيب كما اصبحت التهديدات واللام حُبزاً يومياً. في حين التزم السجناء ذوى الحظ السئ الصمت لأنهم يعرفون انه حال اعترافهم بمكان ثرواتهم ستذهب حياتهم هباء، وهكذا انكشفت مشاريع الطمع وسقطت ولكن ثالث رجل في الدولة ظل حراً مع ذلك، وقد كان معتمداً على ثروته الصغيرة وصفاته التي لا توحى بالقلق منه. وتم استدعاؤه ليتمثل في الحال امام سيده الجديد، ولم يساوره القلق من اي خطر يتهدده. وصادف في طريقه بعض الاصدقاء الذين حدثهم بالتشريف الذي سوف يحظى به. وتم استقباله على باب القصر بابتسمة الحفاوة والترحيب. وما ان تخطى عتبة الباب حتى تدحرجت رأسه²⁸ ويعد ذلك المثل على القسوة الصارخة لم يجرؤ احد على

²⁸ كانت رأسه واحدة من الرؤوس التي سوف ترسل الى القسطنطينية. واعتقد كثيرون ان سبب فقدانه هو نفس السبب الذي ساهم بشكل كبير في سقوط سعيد باشا، الى جانب العداوة التي يحملها له داود افندي، وهو من الرجال المقربين للسيد الكبير، ولأن المأساة الكبيرة لن تنجح بدون وجود دسائس. وبدون ذلك لكان سعيد يتمتع بمكانته رغم حسد

معارضة رغبات الباشا الجديد. واثارت تلك الجريمة احساس ومشاعر الناس، كون ذلك هو الرئيس الثاني الذي تدحرج بعد اغتيال سعيد باشا. اما السجناء فقد تعبوا من العذاب وتمنوا الموت واستجابوا لجميع المطالب التي طلبوها منهم. وبعد ان حصلوا على ما يريدون، تمت الاستعدادات لارسال رؤوسهم الى القدسية.

وكانت اقامتي في بغداد قصيرة، ولكنها كانت حافلة بأحداث جسام، وبواحدة من تلك الثورات المفاجئة التي تكشف صفات الحكومات المستبدة ووضع الناس الخاضعين لمثل تلك السلطة. ولكنني وقبل ان اتحدث عن سفري، توجب علي ان ادللي ببعض الحديث عن الاحوال التي تعيش فيها المدينة والماسي والتغيرات التي حدثت فيها.

ويضم محيط بغداد ارضاً مساحتها سبعة اميال تقريباً، وقد تحققنا من ذلك فقد درنا حول اسوارها على ظهور خيولنا مرات عديدة. وتغطي المباني جزءاً من تلك الارض بينما تغطي الاطلال الجزءباقي.

الباب العالى. وقدموا لنا القصة هكذا لان الاسباب الصغيرة تولد الاحداث الكبيرة. وقبل عام من تلك الثورة، كان هناك رجل يهودي يعمل صرافاً لدى داود في القدسية. وارسل احد اقاربه الى بغداد ليقوم ببعض الاعمال التجارية الهامة. وكان فخوراً بنفوذه قريبه واراد ان يستغل ذلك ليقوم بالمشاركة في بعض اعمال الحكومة. واثار ذلك غضب سعيد وعلى الاكثر غضب وزرائه الذين ظنوا انهم لن يخسروا شيئاً بالقائه في السجن، وانزلوا به عقاباً صارماً لان اليهود كانوا محترقين في العادة وبعد الافراج عنه عاد الى العاصمة. وغضب ذلك الرجل المفضل كثيراً لتلك المعاملة التي قابلوا بها قريبيه الذي يوجد تحت حمايته المباشرة. وقد اقسم على اسقاط سعيد باشا. ومكداً كان عقاب يهودي وقع اسقاط سعيد باشا. وعندما كان داود افendi منفياً في القدسية ظل يدبر المؤامرات لكي يصبح باشا بغداد. ووجد له صديقاً مقرياً يساعدته في مشاريعه. وانتهز الفرصة لكي يشفى غليله. وحصل داود افendi على فرمان بتعيين داود في منصبه بدلاً من سعيد باشا وطلب الاطاحة برؤوس جميع من كانوا في صف اعدائه.

وكان تشييد المنازل بالقرميد وكلها ذات طابقين. ولا تطل شبابيكها على الشوارع، الا انها كانت ضيقة وصغيرة بل ونظيفة. ولا توجد في بغداد منشآت عامة لا يشير معمارها اهتمام الرحالة. وتغطي سقوف اسوارها عقود تزين قبابها موزاييك من الاجر الملون. اما ما ذكرنا فتقدمنا للمشاهد هذا منظراً جديداً محباً. وتنقسم المدينة الى عدة احياء ولا استطيع الان ان اصف حدوداً لها ولكن ابرزها هي الشیخ. ويقع القصر والقلعة على الضفة الشرقية لدجلة، في حين ان المباني القديمة على الضفة الغربية تبدو اقل مستوى من غيرها ولذلك يمكن اعتبارها ضاحية.

عندما استولى مراد على بغداد اراد تحصينها فاقام سوراً حولها من الطابوق ارتفاعه اربعون قدماً ولكنه ليس سميكاً بما فيه الكافية، وتوجد على السور تسعه حصون في الجانب الشرقي والعديد من الابراج وحفرة عميقه دون مياه. وجميع تلك المنشآت لا تكاد تستحق وصفها بالتحصينات، فلم تشييد بشكل جيد، كما ان حصونها فسيحة واسعة لكي يتمكنوا من وضع المدفعية فيها. ويمكن الوصول الى جميع زوايا السور المشيد على الحفرة وما يقابلها. كما ان القسم الاكبر من المدافع كان مجهزاً تجهيزاً سيئاً لدرجة انه يمكنها ان تكون خارج الخدمة. ورغم كل تلك العيوب صمد ذلك السور مرتين امام محاولات نادر شاه تدميره رغم انه القى عليه المئات من القنابل التي لم تأت بنتائج مجدهية. وطالما انه لا يوجد سوى عشرين مدفعاً في القلعة وحوالي ثلاثين مدفعاً على السور فان الحاجة تستدعي وجود خمسة واربعين مدفعاً للدفاع عن الحصون التسعة الرئيسية، ولا يمكن تحقيق ذلك سوى بتجريد القلعة من استحكاماتها. ومن المحتمل الا تكون مدعيتهم معدة او مجهزة افضل من ذلك، ولن تدهش اذا ما كان الاتراك قد استطاعوا بنجاح تام الدفاع عن انفسهم ودون ان يعرفوا ان اعدائهم لا يملكون مدفعية افضل.

لقد قدرنا سكان بغداد بحوالي مائتي الف نسمة في حين يقول
 بعض الرحالة مائتي الف نسمة، وبسبب علاقتهم قالوا انهم ضعف ذلك
 العدد. الا انه كان هناك رجل موثوق قد عاش عدة سنوات في بغداد واكد
 لنا ان عدد السكان لا يتعدي ذلك الرقم. وكان جزء من السكان من الشيعة
 والجزء الآخر من السنة ومع ذلك لم يتسبب ذلك الخلاف العقائدي في
 حدوث اية مشاكل بينهما ومنذ فترة بعيدة. ويوجد بينهم مسلمون
 كثيرون من الاجانب او منحدرين من اجانب ومع ذلك يعتبرونهم اجانب
 وذلك رغم تقلدهم احياناً مناصب هامة. وتوجد مائة وستون اسرة من
 المسيحيين الكاثوليك التابعين للكنيسة الغربية، كما ان هناك بعض
 الارمن والنسطوريين. ولكل مجموعة قسسيها ومحفلها. ولاينظر الباشوات
 الى تلك المشاكل التي تفصل بينهم نظرة عدائية الا انهم يطالبون
 الجانبين المتناخصين بدفع غرامات عندما تسنح لهم الفرصة.
 اما اليهود فكانوا دائماً موضوع احتقار. (انظر اللوحة الثالثة).



ويعتبرون في بغداد كما في كل مكان اخر من سلع الدولة. ولا يرتكونهم يكذبون ثرواتهم الا لكي يساهموا في زيادة ثروة البasha الخاصة. ولكن ما هو مميت لهؤلاء الاسرائيليين المساكين، هو انهم كانوا موضوعاً للسخرية والاستهزاء مهما كان مقدار ما يتحملون من عنت واضطهاد وبقدر ما يتحملون من الغيظ. فاذا ما كان هناك تركي او مسيحي يتمتع ببعض الاهتمام، وشعر بالجور من جانب احد كبار المسؤولين في الدولة، فله الحق في تقديم الشكوى ضده ولو انه على جشعه الذي يدفعه للالفاس. ولكن اذا طال الاضطهاد احد اليهود، فان ذلك يعتبر امراً بسيطاً وطبعياً ولا يتحدثون عن ذلك الا لاثارة الضحك. ولا يمكن تصور جميع انواع العنت والاضطهاد التي تطالهم، ولانهم معروفون بالطمع وحب المال فلا يمكن ان نتصور وجود يهودي لا يمتلك ثروة لا يعرف بها احد.

وبعد وفاة سعيد، كان يجب على البasha الجديد ان يرسل الهدية المعتادة للباب العالي، ولأن الطرق لم تعد آمنة لارسال النقود، طلبوا من اليهود كمبيالات تدفع في القدسية. ولم يستطع اليهود تجهيز المبلغ المطلوب. ولأن الاصول التي يمتلكها اخوانهم في العاصمة تتتجاوز مالديهم للمطلوب منهم. واعتبر المسؤولون ذلك ذريعة للتهرب من السداد. وعقد كبار الصرافين عدة اجتماعات، وبعدها صدرت لهم الاوامر بالمثلول امام احد موظفي البasha لمناقشة الامر ومعرفة ماذا يمكن فعله. واستقبلوهم بشكل حضاري ولكنهم اغلقوا عليهم الغرفة دون شراب او طعام. واخيراً، يئسوا في اليوم الثالث وسحبوا جميع الكمبيالات المطلوبة وذلك باعلان انها لا تساوي الورق الذي كتبت عليه. وفي الواقع اعتتقد انها لن تصرف، ومع ذلك تم صرفها وسدادها جميعاً لأنهم استخدمو نفس الطرق لاجبارهم على السداد، وهم وحدهم الذي يجب عليهم صرفها

كما استطاعوا. وحكومة بغداد، صورة مصغرة لحكومة عاصمة الامبراطورية التركية. ويتمتع الرئيس في كلتيهما بسلطة لا حدود لها على رعاياه المباشرين. وبasha بغداد ليس مسؤولاً عن ممارسة تلك السلطة الا امام رئيسه الذي عينه. ويساعده في الحكم وزير يحمل صفة "كهية Kiaia"، وي العمل تحت امرته اغا، ورئيس الانكشارية والذي يجب ان يعينه كذلك الباب العالي ولكنه هو الذي يختاره. واحيراً يأتي الديوان الذي يتكون من امين الصندوق ووزراء الدولة، القاضي، المفتى، ثم الحكام القدماء للبصرة، الحلة، وماردين.

وتحب مناقشة جميع الشؤون في الديوان اولاً، حيث البعض من يتمتعون بسلطة مباشرة من الباب العالي، بعيداً عن ارادة البasha. ولكن، بما انه هو الذي يعينهم في الواقع، او يعمل على تعيينهم، تتم استشارة الديوان ولو شكلياً، كما يتم اتخاذ القرارات مسبقاً، استناداً الى نفوذ بعض المقربين وحتى الى نساء الاسرة. اما موظفو منزله واسرتة فلا علاقة لهم بهذا الكيان السياسي ولكنهم يتمتعون احياناً بنفوذ اكبر. ومن بين اهمهم المسؤول عن الحرملك اي مدير القصر، ومدير الاحتفالات، والمسؤول عن الاسطبلات ورئيس المنفذين للاعمال الكبيرة وهي صفة شرفية، ومن ثم رئيس الرسل، والمسؤول عن الثياب، ورئيس الخدم... الخ.

اما القوة العسكرية، فهي تحت امرة البعض من هؤلاء الضباط وغيرهم من الرؤساء الذين يحملون مختلف اللقب والرتب. ومن الصعب الحديث عنها بشكل اكيد. وذلك لانه اذا ما اردنا معرفة من يحمل لقب الانكشارية فيجب ان نحسب ضمنهم نصف النحاسين، والخياطين، والاسكافيين وغيرهم من الحرفيين الذين كانوا يتشرفون باختلاف اسمائهم تحت ادارة تلك الفرقه، ولكنهم لا يؤدون اية خدمة عسكرية. وعند سقوط سعيد، كان الى جانبه خمسة الاف جندي نظامي بمن فيهم

حرسه الخاص، بالإضافة إلى سبعة آلاف مقاتل عربي، كما يوجد تقريراً عشرة آلاف من جنود الانكشارية الفعلين الذين يكونون عسكراً المدينة. وتحوي السجلات أسماء اثنى عشر أو خمسة عشر ألفاً، ولكنهم لم يمارسوا مطلقاً الخدمة العسكرية. ولكن عندما تتوافق رغبة البasha مع رغبة السيد الكبير، وإذا مادعت الحاجة يمكن إنزال جيش في بغداد والمناطق التابعة لها جيش قوامه أربعين ألف جندي. ولكن إذا ما كان هناك زيادة على ذلك من اثنى عشر إلى خمسة عشر يستحقون لقب جندي فانهم يُلمون قليلاً بالمعارف العسكرية. أما الباقي فمن الكسالي والمشردين الذين يجبونهم على حمل السلاح، والذين غالباً ما يكون وجودهم مضرًا أكثر منه نافعاً.

وأجمالاً يمكننا أن نقول إن تلك المدينة قد فقدت الكثير من تألقها وروائها. ولا يجب بعد أن نحاول البحث في عاصمة كبيرة والتغلغل في حياة الناس المهمين المرموقين وعاداتهم لاكتشاف بقايا ذلك التراث الحضاري الذي يتبقى بعد زوال الامم. هارون الرشيد، وجمال بلاطه، جعفر والبرامكة، التجار الآثرياء كما الامراء، كل شيء قد اندرس وزال. وعلى أي حال، فإن اسواقها الجميلة التي نراها، والشوارع المليئة بالمارّة دائماً، تكون مفارقة لوحده وسكون للصغارى المحيطة بها، كما أنها يمكن أن تثير اعجاب الرحالة فهي تذكره بالعجبات التي تبنياناها في سذاجة كبيرة.

هذا هو الواقع الذي لتلك العاصمة الكبيرة، التي تقدم مشهدًا جديداً يسر من يراه، وخاصة بالذكرىات التي يشيرها. واسواقها اجمل بكثير من تلك التي نراها في كل مكان آخر حتى اجمل من الاسواق القائمة في عاصمة الامبراطورية العثمانية نفسها. وفاكهتها لا يوجد ما يماثلها في اية ضاحية اخرى في الشرق، كما ان سكانها اكثر حضارية واكثر امانة وشرفًا من كل

اولئك الذين يعيشون في اي بلد اسلامي^{٢٩}. ومناخها مريح وجميل، وموقعها مناسب، وتجارتها تسير سيراً حسناً، ومع ذلك، اذا ما لم تكن بغداد تحيطها العجائب والاساطير، ماكنا لنصفها ابداً بمثل ذلك المديح. وهي تقدم الواناً من المباحث للسائح الاجنبي، لكن ميزاتها تفوق ميزات غيرها من المدن الاسلامية. فالشرطه قوية، وتنشط في محياطها وفي داخلها، وحيث لا يخشى الاجنبي في جميع تحركاته واعماله ان يواجه اية متابع. وفي خضم الاضطرابات التي تحدثت عنها تواً، فيماعدا اثناء فترة الثورة كنا نخرج دائماً، ونذهب للحمامات وللصيد. وغالباً ماكنا نضل الطريق، وبعيداً عن اية اهانة كانوا يعاملوننا معاملة مهذبة حضارية وغالباً ماكانوا يساعدوننا على الوصول الى منازلنا.

²⁹ تساعد بعض الحوادث الصغيرة على كشف الرأي العام. وتكشف الحادثة التي سأذكرها الان، كيف ينظرون اليتنا وماهو رأيهم فيينا في هذا الشرق. ذات يوم كنت سائراً امام سرای الباشا عندما اعترضني احد الاتراك في ادب، واقترح علي ان اشاهد مشهدًا مثيراً. وتناول مجموعة من المفاتيح وفتح باباً صغيراً يؤدي الى ممر ضيق بين جدارين. وفي مكان كهذا لم تكن المغامرة مريحة بالمرة. ومع ذلك، ولان سيفي بيدي فقد مررت اولاً بعد الحاج دليلي، وذلك نظراً لانه لا يستطيع ان يدخل اثنان في وقت واحد في المقدمة. وقطعنا عشرين خطوة في الظلام وفجأة كان هناك منعطف فجائي للامر وساعدني الضوء المسلط من اعلى ان ارى انني كنت وحيداً في مقصورة فيها اسدان ضخما الجثة يلتهمان حيواناً القى اليهما في التو. انه مشهد غريب ذهبت اليه بكامل ارادتي. ولم اضيع وقتى وتراجعت بسرعة شاكراً حظي انها كانت مشغولين آنذاك. اغلق الباب ثم فتحه وطلب مني مكافأة وهو يبدو راضياً تماماً عن نفسه. مكافأة؟ وبعد ان قلت له هذا بدا وكأنه فهم ما اريد قوله. وقلت له ويجب ان تكون راضياً انتي لا اعقبك على عدم حرصك هذا. ماذا كنت ستقول للسيد ربع وللباشا اذا ما التهمني هذان الحيوانان؟ واستطاع ان يجيبني بلا مبالغة وقال لي ببساطة: "سيدي، كنت اعتقد حقيقة ان الانجليزي لايهاب شيئاً في الدنيا". ولم تكن لدى طريقة لاقومنه، واعطيته مايرضيه وانا اؤكد له ان ذلك اغضبني كثيراً، ولانه لم يطلب مني ان اسحب سيفي واكون مستعداً لقتلهما ان هاجمانى.

الفصل الحادي عشر

الرحيل من بغداد، رحلة في جبال كُردستان، قوة وسطوة السوط، اخطار الطريق، المخاوف من الروس، نزاع مع قبيلة كُردية، مقابر تثير الاهتمام، كويسنجر، تفاصيل حول الكُرد، الوصول الى اربيل، الموصل

عقدت صفقة مع "علي آغا"- شولنجي^{٣٠}، ليصحبني الى القسطنطينية مقابل ستمائة قرش، وهدية صغيرة كان علي ان اقدمها للخادم الذي سيقوم على خدماتي اثناء الطريق. وكان ذلك الشخص (لوحة

^{٣٠} تشولنجي Chulingi، لقب اضافه باشا مصر الى اسمه الحقيقي "علي آغا"، اي جالب الشؤم، بمعنى (حامل الاحماض)، لانه احضر اليه رؤوس الفرسانين اثناء عملية الغزو، ووفقاً لقيمة الصرف، تساوي الستمائة قرش حوالي عشرين جنيهاً استرلينياً). وقد صرفت عشر جنيهات اخرى اثناء الرحلة وكانت استطيع توفيرها الا انني اعطيتها للخدم وللسيّاس لاغرائهم وتقديمهم لي افضل الخدمات. وتبلغ المسافة بين بغداد والقسطنطينية الف وثمانمائة ميل ولكنها اصبحت اكثر من الفي ميل بسبب الطريق الذي سلكناه. وفي مقابل ستمائة قرش قدموا لي الخيل والمسكن وكل ما هو ضروري لي اثناء الرحلة، وليس بالطبع بالشكل المترف تماماً، ولكنهم قدموا افضل ما يتاح تقديمها. ولو صرفت ستة الاف جنيه فلن احظى بخدمة افضل، بل سيقدمون نفس الخدمة. اجمالاً، سيحصل ذلك التيري على اربعة الاف قرش مقابل هذه الرحلة، وإذا مالم احصل على تلك الفرصة لكن صرفت وحدي الفين من الجنيهات. ويحصل التير الذين يعملون في الشركة على الف ومائتي جنيه للقيام بتلك الرحلة صيفاً في خمسة وعشرين يوماً وفي الشتاء في ثلاثين يوماً. كما يحصلون على مائتي قرش مكافأة يومية، وذلك عن المدة التي يقضونها في الطريق. لذلك نرى ان من مصلحتهم الا يسرعوا او يجهدوا في الاسراع بتسليم الرسائل. وهناك امثلة على السرعة فمن المعتاد تماماً ان هذه الرحلة تستغرق عشرين يوماً وهناك من يقطعها في ١٧ يوماً. وسمعت ان هناك شخصاً قطع مسافة الالف وثمانمائة ميل في ثلاثة عشر يوماً.

رقم ٤) مسؤولاً من قبل البasha الجديد ينقل الرؤوس المطلوبة الى القسطنطينية. وستكون هذه الرحلة مفيدة لهم، فقد دفع له البasha، ودفعت له الشركة ثم انا كذلك. ومع ذلك لاشئ يمنعهم من التخلص من عادة تكريس البضائع وكان كل مسافر يشعر بالضيق من تلك الحال، ولكنهم يرون في ذلك الكثير من المنافع ويتوقفوا عن التذمر، ورغم المضايقات التي تلحق بمن يصطحبونهم، فهم يهتمون باختيار افضل الخيول لحمل امتعتهم، ويزداد مخاطر الطريق فالقافلة تمثل املاً متاحاً لغارات اللصوص.



وفي الاول من مارس، وفي الساعة الثانية بعد الظهر، جاءني خادم تترى الى المقر، جالباً الحصان الذي سوف امتنع عليه، وكان حصاناً عربياً اصيلاً، من اكبر ما هو موجود في تلك الفصيلة. وهنأت نفسي على ذلك الاختيار. واستأذنت من مضيفي ومن اسرته وتوجهت معه، وتوقفنا بعد مسيرة ساعتين في شارع ضيق لتأخذ بعض الرسائل والطرود، وهي دون شك ذات اهمية كبيرة اكبر بكثير من شخصي الصغير. كما ان سلوك رفيقي المحترم "سليمان آغا"، كان قد هيأني لتقبل مضائقات كهذه، ولكنني لم اكن مستعداً ان امارس مثل تلك المضائقات او تحملها، وخرجت تحت انظار اصدقائي.

وعند خروجنا من المدينة توقفنا مرة اخرى لانتظار رئيسنا، واكتشفت ان قافلتنا تتكون من تسعة رجال اشداء، مسلحين جيداً، وهناك ستة بغال لحمل الامتعة، وثلاثة من الخيول احتياطاً، الى جانب خمسة ادلة مشاة لكل قافلة. وقطعنا الصحراء التي تحيط بالمدينة دون ان نبتعد كثيراً عن شواطئ النهر. وبعد ست ساعات من المسير توقفنا امام خان لنزول القوافل بالقرب من قرية الدخيلة، ولم نكن قد قطعنا الا عشرين ميلاً، لاننا تأخرنا عدة مرات لضرورة ترتيب وحزن الامتعة.

ورحلنا في الثاني من الشهر في الرابعة صباحاً وسرنا عبر سهل حيث رأينا اطلال قرى ثلاثة، وفي العاشرة توقفنا امام مدينة صغيرة هجرها اهلها جميعاً تقريباً. وكان من الصعب الحصول فيها على بعض المؤن ولكن رفقائي لم يكونوا رجالاً يقنعون بالاعذار التي يقدمها انصاف الجوعى الذين رأوه هناك. ودخلنا بغالنا في ساحة اول منزل فارغ وجذناه امامنا. ولما لم تجد توصلاتنا نفعاً لتقديم بعض المؤن لنا تم استخدام القمچى او السوط. وتأخر الطلب الذي اراده واحد من الاتراك. فاحاط حبل السوط برقبة احدهم واستل سيفه ليطهّي براسه، ولكن وصل خادمي التترى لحسن الحظ

واستخدم نفوذه بناء على رجائي لإنقاذ ذلك المسكين فحياته كانت لا شيء بالنسبة له. وذهبنا إلى منزل آخر واستطعنا الحصول على المؤن التي حصل عليها السكان من القوات التي اجتاحت البلد قبيل فترة من الزمن، استطعنا بالسوء والقروش الحصول عليها. ولم نقطع في ذلك اليوم إلا مسافة ثمانية عشر ميلاً وثلاثة أرباع الميل، وكان ذلك ما يكفي لأناس لم يكادوا يذوقوا طعم الراحة أو الغذاء.

وفي الثالث قطعنا مسافة واحد وعشرين ميلاً في بلاد مستوية بها الكثير من الوديان وحيث لحق بنا عشرة رجال من الكُرد المسلمين وجیورجي واحد، اعتتقدت انه كان مملوكاً يخدم في بلاط الباشا الجديد. وهنأت نفسي على هذه الزيادة. ولكنني لم اكن اتوقع ذلك القهر والمضائقات التي يمكن ان يتسبب فيها ظرف ما، شئ كدت اعتبره يبعث على الرضى. لقد جعلونا نعرف ان ذلك الجیورجي كان عبداً يثق فيه البasha الجديد. وتذكرته، عندما كنا في حضرة البasha كان يقف مع العبيد في اخر الصفوف. والآن تبادلنا المواقع، لانه ومنذ اللحظة التي انضم فيها ذلك الشخص انصبت جميع الاهتمامات والرعاية على شخصه من قبل خادمي التترى الذي احتضنه بأفضل مكان يقيم فيه، والاكثر تشريفاً له في حين وجد الانجليزى نفسه محترقاً ومُهاناً ومُهملًا ولا يساوي من الارقام الصفر حتى. واذا لم يجد الجیورجي شيئاً يقوم به، يأتي الي ويعصرني بالاسئلة يُلقيها في تعالٍ وكيراء، وهي اسئلة وددت ارادياً ان اجيبه عليها وانا حامل سيفي اذا ما واتتني الفرصة و اووجه وجهها لوجهه.

وفي الخامس، توقفنا ثلاثة ساعات في كفري، وعند اقترابنا من تلك المدينة استولينا على خروف وقسمناه بسيوفنا. وذبحناه وقمنا بشيه على النار وفي وقت قليل جداً لايمكن تصديقه. ولم يحاول الكُرد سلخ ربع الخروف الذي اعطيناه ايامه. ولكن عندما وضعنا الخروف فوق الفحم

اكتفوا بشيء شواء خفيفاً. ثم رحلنا في الثالثة مساء متوجهين قليلاً نحو الشمال الشرقي للوصول الى جبال كُردستان ومنذ ان رحلنا من بغداد، تابعنا الطريق المألوف، وخرجنا تماماً من المدينة ودخلنا ذلك البلد المجهول الى الشمال الشرقي من كفري، والذي يظل ابيض فارغاً على جميع الخرائط، بسبب نقص المعلومات الحقيقية عنه. واسفت جداً لأنني لم تكون لدي الامكانيات الضرورية لكي استطع ان اقدم عنها معلومات دقيقة كافية. ولكن واستناداً على العادة والخبرة التي اكتسبتها بتقدير المسافات، فيمكن للمعلومات التي سوف اوردها ان تكون دقيقة بما فيه الكفاية.

ان البلد الذي دخلناه كان جبلياً والارض غير منبسطة، ولم يكن فيها اي اثر للزراعة او مايدل على وجود قرى. وعلى بعد احد عشر ميلاً من كفري، وفي اللحظة حيث بدأ الليل ينشر ظلمته في الافق وجدنا مخيماً كُردياً. وكان الهواء بارداً جداً نظراً لارتفاع الارض حيث نوجد الان. ومع ذلك ولأن مضيقينا رفضوا استضافتنا داخل خيامهم، اضطررنا للتخييم في الهواء الطلق وسطهم مع حرصنا على وجود حُراس دائميين مخافة وقوع هجوم مفاجئ.

اما الشعب الذي وجدنا انفسنا بينه كان مختلف تماماً الاختلاف من حيث الاصل بعاداته وطبياعه عن تلك القبائل المختلفة الرُّحل ولكنهم كرماء ومضيافون وقد تجولت كثيراً بينهم. والقبيلة التي كانت تحيط بنا لم تكن بالتأكيد كبيرة لأن عدد الرجال القادرين على حمل السلاح لم يكونوا اكثراً عدداً منا. ومع ذلك قلقنا اكثراً من مرة لأن احد هؤلاء اللصوص كان يتسلل بالقرب من مُخيمنا في هدوء بالقرب من حدود مخيمنا واضطررنا ان نقول بأن سيوفنا ستطال اول من يتخبط الحدود التي وضعناها. وكانت ملابسهم بسيطة وتناسب تماماً تلك الحياة التي يمارسونها، وتناسب كذلك الحياة الهمجية للمناطق التي يعيشون فيها.

ويرتدي الرجال والنساء معاطف صوفية طويلة بُنية اللون طويلة، مع بنطال واسع يربط بحزام من الجلد على الخصر، وفوقها قطعة قماش مربعة تغطي الاكتاف ويتم تثبيت طرفاها على الصدر. اما الاختلاف الرئيسي الذي يمكن ملاحظته بين ملابس الرجال والنساء، هو ان الرجال يعتمرون قلنسوة من الصوف تنتهي بطرف مدبب، اما النساء فيضعن قطعة من القماش حول رؤوسهن على شكل شريط.

وفي السادس، تجولنا في جبال كُردستان الجرداء منذ السادسة صباحاً وحتى الحادية عشرة. وبعد ان قطعنا عشرين ميلان عبرنا مجرى ماء ربما صغيراً. وتوقفنا في قرية ابراهيم، وهي قرية كُردية صغيرة، وبها منزل لاستقبال المسافرين.

وفي السابع، سرنا مسافة تستغرق سبع ساعات ونصف دون ان نجد قرية واحدة، رغم اننا نقف على المرتفعات يميناً ويساراً. وعدد كبير من هذه المرتفعات تغطيها المقابر، وتذكرنا بتقلب الحياة، وفي تلك اللحظة، فان ادلاعنا الذين يسيرون في المقدمة مع متاعنا، اوقفهم ثلاثة من الکُرد بدأوا دون انذار بفحص حمولة بغالنا. وجرى ذلك المشهد على قمة جبل، وفي احد تلك المنعطفات والتي كانت دائماً شاهدة على هجمات اللصوص. وفي الحال هرب الادلاء الذين يسوسون البغال، وتوجهوا نحونا وهم يرددون الصيحات العالية. اما انا فكنت على بعد مائة خطوة تقريباً. وصاحوا بي ان اتوقف. وتجمعنا كلنا وانتظرنا كلمة واحدة تؤكد لنا ذلك الذعر الذي انتاب ادلاعنا والذي جعلنا نتصور الامر. ورحلنا في الحال، وبعد ان قطعنا ربع الميل تقريباً. رأينا قطاع الطرق الذين انتهوا من فحص الامتعة، ويعيدونها على ظهور البغال بُغية سحبها. وهجم التتار في الحال وسيوفهم مُشرعة وهم يطلقون صيحات مخيفة. ولكن الکُرد وقد رأوا عدتنا لم يقرروا بالطبع ان ينتظروتنا بل وهردوا مسرعين تاركين الغنيمة وراءهم، واصبحنا اسياد ميدان القتال.

وبعد ان قطعنا مسافة سبعة وعشرين ميلاً توقفنا في قرية (كچان Kitchan)، وهي قرية صغيرة بائسة تقع على منحدر تل، ومنازلها منحوتة في الصخور ومغطاة بالطين والقصب. ولم نستطيع ان نجد حتى كوخاً واحداً يأويتنا من البرد القارص وحيث السماء تنذر بالمطر. وعند مجئ التتار فقط الذين داعبوا الجميع بالسوط رجالاً ونساءً واطفالاً، قدموا لنا آنذاك خيمة وبعض الاعانات.

والسوط هو كل شئ للتربي. وكنت دائمًا معجبًا بسطوته. اذا ما كان حسانه جيداً، فيكون ادنى صوت ليضاعف حُطاه. و اذا كان كسولاً فهم بواسطة السوط يعيدون له نشاطه. اذا ما سقط من فرط التعب يعيد له السوط قواه. اذا ما احتاج التربي بعض المؤن فانه يتطلبها اولاً، ويشكوا عند رفضهم اعطاؤها اياه، ولكن في نهاية الامر يلجأ للسوط ويوزع افضاله على الجميع دون استثناء هنا وهناك حتى يقدمون له ما يحتاجه. وفي القرى البائسة، حيث من الصعب اخذ دجاجة حتى، رأيت ان السوط يعمل على وجود اثنتي عشرة وفي مناطق اخرى. وحيث لانى ان العشب لا يكفي لاطعام خروف، كانوا يسمحون لنا بالاختيار لأخذ ما نريد من بين القطعان كلها. وباختصار، فان السوط هو السلاح الطبيعي للتربي ووسيلته الوحيدة التي لا تخطئ في اية فرصة كانت، اذا كان هناك شئ ما يدهشنى، فهو ان ارى ان هؤلاء البوسae وهم يعرفون بالخبرة اية معاملة ينتظرون، لا يريدون ابداً تقريراً تلبية مطالبينا قبل ان يُجبر على فعل ذلك بتأثير السوط. فلماذا اذن نرى تلك الشعوب التي تحمل كراهية شديدة ضد الظالم، لا يقاومونه ابداً ولا يستلون سيفهم ضده ويرمون بجرابه في مهب الريح. انه الخمول لدى الفرد الذي يعاني على الصعيد الشخصي من انواع العذاب، ولكن لا تحركه شرارة الجوع.

ولننظر الى المستقبل، وسنرى الافاً من القبائل المقاتلة تستجيب للنداء يرسله اول محرر يتوجه نحوها، ويرفعون آنذاك السلاح في وجه المستبد. ويمكن ان نتken بسقوط تلك القوة الجباره المتسلطة التي عانت وعاشت دموعاً ودماءً من جانبي العالم شرقاً وغرباً، والتي تسير بخطى سريعة نحو ضياعها، ويجب عليها بعد قليل ان تفسح الطريق لاسيا جدد، او ان تفرق في الفوضى. والامبراطورية العثمانية الان وهي امام احتمالات انهيارها غرباً في احضان اليونان العريق نراها بنفسها الضعف في جانبها المقابل الاسيوى شرقاً، الا اذا رأيناها تتركز قواها الذي لن يقدم لها انتعاشاً جديداً، بل من المحتمل ان نراها تنحصر في حدود ضيقة تفرضها جبال طوروس والصحراء وجسر البوسفور. ويمكننا ان نتساءل اذن آنذاك، اية سلطة يمكن ان تخلفها؟ ولكن جدل امر كهذا يصبح غريباً على رحلتي.

واستأنفنا طريقنا في الثامن في الساعة السادسة صباحاً حيث كان فوق مستوى الوديان. والصعود أصبح اسرع، كما تقدم لك البلاد مشهد افضل. واذ مررنا بالقرب من تجمع للكرد خيموا اسفل الجبل، اغار التتر عليهم وسلبوا جميع الخيول التي استطاعوا التوصل اليها. وطاردنا رؤساؤهم، ولكن عدتنا كان اكبر بكثير فلم يحاولوا مهاجمتنا. وكان رفاقي يلعنون تلك المناطق التي نجتازها، كما لو ان سكانها هم فقط من اللصوص وقطاع الطرق والاشرار. ولكنني اود ان اثبت هنا اننا نحن كبار اللصوص والسلابة في كل مكان نتوارد فيه ونجد انفسنا نحن الاقوى.

وبدلنا اسوأ خيولنا بتلك الخيول القوية التي سرقناها وبدأنا نصد جبلاً هائلاً كان يتطلب بالطبع خيولاً قوية. وميزنا تماماً تلك الثلوج الخالدة التي تغطي القمة وكأنها سحابة بعيدة. وكنت آنذاك في المؤخرة مع احد التتر، واطلقوا علينا النار من وراء احد الصخور. وانبني الجميع كثيراً

على ابتعادي عن القافلة نظراً لأنهم رأوا في الجوار فرقة تبدو مريبة.
والحقيقة هي اننا اذا صادفنا رجلاً ما نعتبره عدواً ورغبة مني في تأمل
ومشاهدة ذلك المنظر الجميل من جميع جوانبه، ولأنني احسست بتعب
حصاني، سرت بهدوء، ولكنهم استخدمو نفس الطريقة المشهورة واذا به
يقفز بطريقة اخافت من لم يعتد عليها.

ومازالتنا نصعد منذ اليوم الرابع، ومازال علينا الصعود اكثر. وقد
قطعنا لتونا صحراء لم نجد فيها سوى قرية صغيرة وبها مجرى ماء
وشجرة. ولكن امتداد اراضيهم بعيداً يشير الى ان عدد السكان كبير. وقد
بدأت الاشجار تقدم لنا تباشير الشتاء واصبحت الثلوج اكثراً عمقاً.
واخيراً وصلنا الى القمة التي تطل علينا جبال اكثراً ارتفاعاً بالطبع. ثم
بدأنا بعد ذلك في النزول من منحدر سريع لدرجة ان موكبنا اصبح
مكسوفاً. ونادرًا مانرى التتار يدرسون الارض لمعرفة ما اذا كان من
الضروري زيادة السرعة او تقليلها. وكنا نقفز بخيولنا كما لو كنا نركض
فوق سهل مستو. وكنت اتوقع في كل لحظة ان اقع انا وجوابي في هاوية
ما، على طرف الجبل. ولكنني وللحفاظ على كرامتي، تظاهرت بعدم
القلق. ولكن اصدقائي كانوا يسألونني في سخرية اذا ما كنت احب ان
اسافر على الطريقة التتارية. وعندما وصلنا اسفل ذلك الجبل، بدأ
الطريق ينحدر الى الاسفل ولكن الميل كان اخف بكثير. وكان علينا ان
نعبر معبراً مائياً يخرج من الجبال. ولم تجد خيولنا موطئ اقدامها وغرق
احدها وجرفه التيار.

ثم توقفنا مساء في (دولان-دولان) وهي قرية جميلة تقع في
وادٍ تحيطه جبال شاهقة قليلاً. ويرويها ثلاثة نهيرات صافية المياه. وقد
نزلت في احداها لازيل تعبي. وكانت هناك نساء يسبحن بدورهن بعيداً،
واؤمن الى دون تحفظ، وطلبن الاقتراب، وكانت اعرف خطورة الاستجابة ولكن

بنكهى زين

لكي اقول الحق، فقد كن امهات كبيرات السن، ومن بينهن واحدة ليست حلوة بالمرة، ولم يكن من ذلك النوع الذي يحاول اغراء مسافر متعب. اكملت حمامي وتوجهت للمنزل الذي نقطنه. ووجدت رفقائي يستمعون ل احد منشدي الجبل، يرافقه طبل كبير ويقوم بحركات عنيفة. وبعد ان جمع بعض المال، انسحبنا. ولكي اتفادى القمل والدخان قررت النوم في الهواء الطلق. وفي هذا اليوم قطعنا واحداً وعشرين ميلاً. اما الممر الذي مررتنا به عبر الجبال فكان يُسمى (Saogirmah).

وفي التاسع، وبعد ان قطعنا واحداً وعشرين ميلاً عبر الجبال والوديان، ولكن بشكل عام ونحن ننزل، دخلنا الى سهل خصب تبلغ مساحته من حوالي عشرة الى اثنى عشر ميلاً عرضاً وخمسة وثلاثين طولاً. ويرويه نهير يمكن عبوره ويمر في السليمانية، عاصمة كُردستان حيث وصلنا ظهراً. ان ما يجب ان نراهحقيقة في تلك المدينة هو ان محيطها ميلان ويمكنها ان تمتد اكثر اذا اردنا ان تحتوي المباني المستقلة والقرى القريبة منها. والمنازل مبنية من الطين والطابوق النئ وهي من دور واحد. اما السقف فسميك ومستوى. وهي بشكل عام قبيحة الشكل وغير مريةة. والسكان الذين لايزيد عددهم عن اثنى عشر الفاً او الخمسة عشر الفاً هم في الغالب اكراد فيما عدا بعض الاسر اليهودية والارمنية الذين يهتمون وحدهم بالاعمال التجارية.

ولأن لدينا رسائل يجب تسليمها الى السلطات من قبل رؤسائهم، ولأن باشا كُردستان كان آنذاك في مخيم داود باشا، فقد استقبلونا استقبلاً مُشرفاً. واقمنا في القصر، وقدمو لنا غذاء رائعاً شبيهاً بما يقدمونه في فارس او في تركيا. ولن اتحدث عن ذلك، فهناك الكثيرون من الرحالة الذين وصفوا تلك المأدب. ومع ذلك يجب ان اقول شيئاً عن طبق قدموه لي على وجه الخصوص كونه كما يقولون الطبق المفضل في كُردستان. وطبق اللحم هذا

هو يخنة الارنب البري والتي تدلل رائحته على انهم حفظوه حتى تفسخ تماماً وهو يطبخ بالدم والدهن والثوم وجميع انواع التوابيل المعروفة. ورغم اتنى كنت معتاداً على اليختة المتبلة، فلم استطع ان اتحمل الطعم ولا الرائحة. ووجدتني مُجبراً على ابعاد طبقي واعادته مع ما صاحب ذلك من مرح غامر لدى الجميع فهم لا يتصورون ما هو افضل من ذلك الطبق، بل وتعجبوا لانني غير قادر على تذوق الطعام.

ولكن عندما انكشف سري، وعرف الضيوف اتنى اوربي، رجل انجليزي غير معتاد على تلك الاطعمة الجيدة، تصورت انهم سوف يمزقونني ارياً، فقد ظهر فضولهم الشديد لرؤيه ولمس من يسمونه الفرنجي. وامطرني الجميع بالاسئلة في وقت واحد، واراد كل منهم ان يرى سيفي، ساعتي ومسدساتي وابدوا اعجابهم بدقة ومهارة الصناعة، وخشيت ان تضيع الاشياء بين ايديهم ولكن ولحسن الحظ كانوا جالسين في وقت الراحة والاسترخاء. وطلبوها مني ان اطلق رصاصة على احد الاعمدة في الساحة وكانت سعيداً جداً بذلك لكي ارسل تلك الطلقة. وتعجبوا من السرعة التي جهزت فيها المسدس واقتنعوا بأن الاوربيين هم بالتأكيد اكثر شعب يثير الدهشة في العالم.

واخذوا يقصّون عليّ كيف ان الاسكندر، ذلك المحارب الاوربي الكبير قد غزا بلادهم. واخذوا يسردون الوان البطولات والقصص السخيفة التي لم افهمها تماماً. وقالوا انهم علموا بأن الروس وحدم القادرين على غزو بلادهم وانهم اخبروهم بذلك الغزو. وسألوني، اذا ما كان الانجليز يعيشون في سلام، فهم لا يعرفون من الشعوب سوى الروس والانجليز والفرنسيين، وعرفوا الانجليز لأن البعض منهم كان في بغداد، اما بالنسبة للفرنسيين فعرفوهم لأنهم قاموا بغزو مصر.

انها لحقيقة جديرة بالاهتمام، فالخوف من قيام الروس بغزو البلاد ينتشر في طول البلاد وعرضها والتي قمت بزيارتها. وكان ذلك الموضوع محور الاحاديث الدائرة بين الجميع. ويسألونني في كل مكان، اي موقف سيتخذه الانجليز آنذاك، او "بونابرت". اجبتهم بأن "بونابرت" سجين لدينا وفي حراسة جيدة. لم يصدقوا ذلك بل كانوا يأملون العكس، فهم يعرفون انه عدو للروس الذين يكرهونهم بشكل عام، ويعتقدون ان الروس لا يُقهرون.

وفي العاشرة، عربنا الوادي بطوله، وقطعنا حوالي خمسة وثلاثين ميلاً، ومررنا بأربع قرى ووصلنا الى حافة حوض كبير دائري يقع اسفل تل، وحيث تصب فيه دزينة من الروافد الصغيرة ذات الماء الرقراق تنزل من أعلى وتكون ونحن نخرج من الوادي نهرًا واحداً كبيراً. وهذا النهر قائم بذاته يرقد فوق ارض فسيحة وكبيرة وطويلة، ويتعذر غيره تقريباً ب المياه تتتدفق من الاعالي: وهي نقطة تشابه واضحة مع منابع النيل كما وصفها "بروس" Bruce.

وتوقفنا في قرية صغيرة اسمها (سوسه)، رأينا فيها حوضاً مشابهاً لذلك الذي وصفته آنفاً ولكن تعيش فيه كمية هائلة من الاسماك، وهي تظهر على سطح الماء مع اي صوت وتنتظر الارز وفتات الخبز الذي يُلقونه اليها.^{٣١}

^{٣١} كانت تلك الواقعة لتدھشنى اکثر لو لم اكن قد رأيت شبيهاً لها وفي ظروف اکثر اثاره. في ضواحي "ماننتودي" في مالابار وبالقرب من احد المعابد على شاطئ احد الانهار، نجد عدداً لا يحصى من الاسماك المستأنسة والتي لا تبتعد ابداً عن ذلك الحي. كما يبدو انهم في امان به. وقد ذهبت صوب ذلك المعبد مع بعض الاصدقاء للترفيه. ويداننا تجربتنا بالقاء بعض فتات الخبز والارز وبعض النباتات، ورغم الضجة التي تسببت فيها في تكاسل على الشاطئ وجاءت تلك الاسماك حتى الشاطئ وبعداد كبيرة جداً غطت صفة النهر. وكان هناك في الماء شئ من المامبو يمكن الارتكاز عليه. واتت الاسماك عبره لتناول من ايدينا. ثم تغطس لتعود لتناول قطعة ما

ومنذ ان ترجلنا، بدأنا في تفريغ حمولات جيادنا، وكنا قد استولينا على سقية رغم اراده اهلها، الذين طلبوا منا الخروج ولم ن فعل ورفضوا ان يقدموا لنا اي شيء. ولم نر سوى شيوخاً ونساءً واطفالاً. واستخدم التتار لغتهم الطبيعية وسحبوا سياطهم ووزعوا بحرية فضائلهم. وفي الحال، رأينا ثلاثة من الفرسان على خيول جيدة، اندفعوا نحونا بعد ان سمعوا اصوات المضروبين بالسياط. لقد عرفت مرات عديدة سطوة السوط، ولكنني واصلت تفريغ حمولة حصاني ولكنني لم اشعر بالخطر الا عندما سمعت التتار يطلقون صيحات الحرب، وحولت انتظاري نحوهم ورأيتهم جميعاً وسيوفهم مُشرعة. وفي الحال، هجم الاعداء علينا، في حين كان سكان القرية يرجموننا من الخلف بالحجارة. وكان الاعداء يفوقوننا عدداً ولكن تسليحهم لم يكن بمستوى تسليحنا، كما انهم لم يكونوا معتادين على القتال مثل رجالنا الذين ابدوا شجاعة فائقة. و"علي اغا"، كان مُربزاً بينهم. ونجحنا في اجبارهم على الهرب. واصيب احد رجالنا بجرح في كفه وآخر بجرح خطير في كتفه. ولم تكن جيادنا في حالة جيدة لكي تتبعهم، حيث انهم قد انسحبوا الى شارع ضيق كان من الخطر مهاجمتهم فيه.

وكان رئيسنا رجلاً حريصاً جداً ليخاطر بشئ معاكس. ولما كان قد قنع بهذا النجاح، طلب منا ان نحضر ولا نفترق. وجميع المنازل هجرها اهلها او ظلت مغلقة، وتوجب علينا ان نتخلى عن المأوى وعن المؤن.

ثانية. ويبلغ طول العديد من الاسماك من اربعة الى خمسة اقدام، رغم ان هذا النهر ليس كبيراً واكدوا لي انه من الخطورة النزول للاستحمام فيه. ويعتقد السكان الاصليون ان تلك الاسماك الهايئة تعيش في حماية المعبد وآلهته، ومن يمسك بها او يذبحها فانما يجرح مشاعرهم الدينية. ولا اعتقاد ان اي اوربي استطاع معرفة نوع تلك الاسماك. ويفؤكد الاهالي ان من يتناولها يموت نظراً لأن لحمها مقدس. ويمكن لهم ان يتفهموا ما سيكون ذلك بالنسبة للانسان مثقف حساس معتمد بنفسه يتجرأ على تحدي الخوف الذي يوحون به اليه.

وانتظرنا مجئ الليل لكي نرحل، ولكن ادلاءنا الکُرد قد عقدوا شکلاً من اشكال الهدنة مع السكان الذين اقتنعوا باننا مستعدون للدفاع عن انفسنا واننا لن نخسر الا القليل. ووافقوا على ايقاف جميع اشكال المناوشات العدائية، الا انهم رفضوا بعناد تقديم اي شكل من اشكال المؤمن.

وفي فجر الغد رحلنا، فلم نكن نستطيع الاعتماد على صدق نوايا اعدائنا كما كنا نريد ان نتتجنب وقوع هجوم جديد، وكانت البلدة تكسوها الجبال. ووصلنا مع الظهر الى قرية تقع على ضفاف النهر، ويسمىها رفاقنا "الرُّور"، وعبرنا على شباك وضعت عليه على قرب من جلد الخراف مليئة بالهواء. وكان مجرى الماء سريعاً جداً وعرضه مائتان واربعون قدماً. ولم اره على اي خريطة وحددت له حدود دقيقة. وهي تسير في اتجاه الجبال. ثم تستدير بعيداً نحو الشرق، وتقطع الطريق الذي كنا نظن ان "هرقل" قد قطعه عند عودته من (Guzuca). كما أنها تحدد الاراضي التابعة للسليمانية. وقد توقفنا ساعة ونصف الساعة نتأملها. ومن ثم استأنفنا السير حتى وصلنا الى قرية تسمى (کهليخان Kouli Khan)، بعد ان قطعنا سبعة اميال على الاقل.

ونحن اذ نتحدث عن انسحاب "هرقل" بعد حملته الثالثة، فيجب علينا ان ننقبل انه ورغم كل ما يقال عن العقيد "كينير Kinneir" ، سوف نحمل انفسنا الكثير اذا ما قلنا انه يمكننا ان نجد بعض الآثار. ومع ذلك تجدر الاشارة الى ان ذلك العدد الكبير من المقابر التي شاهدناها اليوم تدعوا للاعتقاد بان معركة قديمة كبيرة فظيعة قد وقعت على هذه الارض. لاننا لانرى اي اثر لالية مدينة، او قرية او اطلال يمكنها ان تحكي انه كانت ثمة مدينة ما كبيرة هنا.. لاشئ. وبالاضافة الى ذلك، بهذه المقابر لا تتصف في النظام المعروف الذي نراه في مقابر المناطق المأهولة. فهي ليست مجتمعة في مكان خاص مجهز لاستقبال الموتى ولكنها منتشرة في جميع الجهات،

مكونة دائرة يرتفع في وسطها قبر اعلى منها قليلاً ومحاطاً بالاحجار وذلك للإشارة ربما الى رئيس ما وحوله جنوده. واخيراً، فان الموقف النسبي لتلك المقابر انها تشكل فيما بينها خطأً مُنبعجاً انباعاً كبيراً من الوسط اكثر منه في الاطراف، ويبعدو انها شيدت بعد معركة عنيفة دامية.

ويصنع الکرد في كلي خان، بسطاً من اجمل الالوان. وقد سمحوا لنا بالبقاء في احد الاكواح البائسة، ولكنهم قدمو لنا طعاماً جيداً من الارز والمسمش المكبوس المحفوظ. وقد رأى بعض الکرد من تلك القرية مُسدسين لدى احد التتار، حيث الماسورة يصل طولها ١٨ بوصة، واصر على الشراء. ولما لم يكن التتري راغباً في البيع، طلب منه عشرين دولاراً. قدمها له في الحال، في حين انهما لايساویان اربعين سنتاً. وقال لي التتري وهو يضحك من جهلهم انه قد جمع ثروة صغيرة منذ اسبوعين في مخيم داود افendi حيث كان الموكب على بعد ثلاثة ايام من بغداد. وقد اشتروا منه كل ماجلب من القسطنطينية. وتدلل طريقة الشراء القسري تلك على معرفة طبائع تلك القبائل. فهم لصوص بقدر ما يبدون من كرم وسخاء. لقد اخذوه، وابقوه في المخيم العائد لـ "داود افendi" ، حيث كان الموكب على بعد ثلاثة ايام من بغداد. وقد قاموا بعدة محاولات لاجباره على فتح امتعته دون جدوی. وفي الليل فتحوها عنوة، وطلبوها منه في الصباح ان يحدد سعر كل بضاعة ودفعوا لها ثمنها في الحال، وهذا لأنهم عاملوه كصديق. اما اذا كان عدواً، كان يمكن ان يفقد حياته بعد ان يفقد بضاعته، هذا اذا ما حاول مقاومتهم

وفي الثاني عشر، وبعد ان قطعنا سبعة عشر ميلاً ونصف الميل، وعبر شارع جبلي شاق، دخلنا واد حيث تقع مدينة كويسنحق. وقبل ان نصل اليها، رأينا اطلال بناء كبير، وعبرنا مجرى ماء وهو من روافد الزاب الصغير، وحيث يوجد جسر حجري كان موجوداً قديماً ولكنه انهار. وتقع

تلك المدينة على مرتفع يبعد عن النهر. وهي محصنة جزئياً، وакبر من السليمانية وابنيتها اجمل. وربما يبلغ تعداد سكانها اثنى عشر الف نسمة. وتوجد فيها مساجد عديدة جميلة تعلوها قباب. كما توجد فيها بعض الحدائق الغناء على شاطئ النهر. ويمكن تفضيلها بشكل عام على كثير من المدن الاسيوية. وهي نظيفة جداً حيث توجد البالوعات وبعض المنشآت العامة من نوع آخر. لاستطيع ان اذكر اسماءها هنا. وسوق كويسنجد كبير وملئ بالبضائع. ولا يجب ان انسى ما قالوه لي ونحن ننزل الممر المؤدي للمدينة وهم يشيرون الى جبل قنديل. ويقال ان الاسكندر قد خاض فيه معركة كبيرة. وتنتهي تلك المنطقة الجبلية المرتفعة بمدينة كويسنجد، ومركزها السليمانية مع انها ليست الاكثر ارتفاعاً. انه اكبر جزء جبلي في كُردستان، وسنعرف يوماً ان الملاحظات التالية كلها صحيحة.

١. الاتجاه العام لطريق كفري- كچان Kitchan. يرتفع دوماً ويعبر الجبال والوديان لمسافة (٥٨) ميلاً ويتجه نحو الشمال الشرقي.
٢. بين كچان ودولان، يمر المرء عبر سلسلة الجبال الكبرى التي تنزل الى كويسنجد، ويمتد من الشمال الى الجنوب والى الغرب اكثراً كما توضحه الخرائط.
٣. ينزل الطريق عامة من دولان وحتى وادي السليمانية، ويتجه نحو الشمال الى الممر المؤدي الى كويسنجد ثم يستدير نحو الغرب ليصل الى اربيل. الطريق المباشر من بغداد الى الموصل.
٤. يصعد الطريق من السليمانية وحتى قمة ممر كويسنجد قليلاً، وينفس المسافة التي ينزل بها منذ دولان.

تلك هي اذن السليمانية، التي تقع في مركز اعلى وادي في كُردستان، الوادي المحيط بجبال شاهقة مغطاة بالثلوج طيلة ايام السنة

تقريباً. وتتمتع بكل مميزات مناخاتنا الاكثر اعتدالاً. وبخصوصية ارضها الفائقة التي تضاهي خصوبية المناطق الحارة. وفي الحقيقة، فان وادي السليمانية، يعتبر واحداً من اخصب وديان العالم. والكرد، امة متنقلة من مكان لاخر ومنذ عصور سحرية. وينحدرون من الفرتين، ومازالوا يحتفظون بعاداتهم القديمة في تلك الجبال حيث يعتزون باستقلاليتهم وبنفسية ترفض القمع والسلط، ومع ذلك فمن الغريب ملاحظة ان هناك خطورة حتى في مواجهتهم، ويختلف الجبليون عن مواطنיהם القاطنين في السهول، وهم قطاع طرق متمرسون، ينشطون باستمرار، وشغلهم الشاغل البحث عن فرص ملائمة للسلب والنهب. واذا اردت صورة لهم ستتجدهم رجالاً اشداء، ذوي بنية قوية موفورة الصحة والحيوية والنشاط. وتغطي اللحي الطويلة ذقونهم واسفل حدودهم، كما ويتناقض سواد شواربهم وزرقة عيونهم العميقة، ذات النظارات النفاذه كما الصقور التي تبحث دائماً عن الفرائس وعن لذة الانتقام. وتراهم دائماً مُدججين بالسلاح ويحتفظون في منازلهم بالمسدسات والخناجر والسيوف حادة النصل. وعندما يخرجون يحمل واحدهم فاساً وبندقية وحربة وبرعاً. وتبدو عليهم بوادر الصحة والعافية التي تبعث الانتعاش في بشرة تميل الى الصفرة، وتلك اذن صورة لساكن الجبال، قاطع الطريق القوي العنيد.

وتأتي المرأة الكردية لتكمل تلك اللوحة. وفي فترة الصبا، تنضح البشرة السمراء بالحيوية وترها مرحة ويمكن ان تعتبرهن حوريات الجبل. ولكنهن مايلبثن ان يُصبحن فارسات يصبن ازواجهن في جميع رحلاتهم. ولكن سحرهن مايلبثن ان يخبو مع متابع الحياة المتنقلة.

وتنفجر جاذبيتهن بكل عنفوانها من سن الخامسة عشرة الى العشرين فقط. وتراهن دائماً راكبات. وهن يُفْقَن ازواجهن بجرأة وسرعة حركتهن. وقليل من الخيول فقط يمكن ان تُضاهي خيول كُردستان وخصوصاً في سرعة صعودها ونزولها من التلال المتشعببة جداً والاكثر انحداراً. ويعشق

الُّكُرُدُ غَزَالُ الرِّيْمِ، وَيَطَارُدُونَهُ بِنَفْسِ الْعَنْفَوَانِ وَالْحَمَاسِ رَغْمَ وَعُورَةِ الْأَرْضِ
فَخَيْلُهُمُ الْجَمِيلَةُ أَكْبَرُ حَجْمًا مِّنَ الْخَيْلِ الْأُخْرَى، إِلَى جَانِبِ اَنْ رَكُوبِهَا آمِنٌ،
وَلَا تَتَعَبُ بِسُرْعَةٍ، وَهِيَ جَمِيلَةٌ وَتَشْتَعِلُ نَشَاطًا وَحَيَوَيَةً.

وَلَا إِسْتِطِيعُ إِنْ اتَّحَدَتْ عَنِ التَّقْسِيمِ الْجَغْرَافِيِّ لِكُرْدِسْتَانَ بِدِقَّةٍ، فَدَاخَلَ
تَلْكَ الْبَلَادَ مَجْهُولٌ تَقْرِيبًاً. وَلَا يَوجَدُ رَحْلَةً اِجْنَبِيًّا إِسْتِطَاعَ اَنْ يَعْبُرَ تَلْكَ
الْجَبَالَ فِي الاتِّجَاهِ الَّذِي سَرَنَا فِيهِ؛ وَمَعَ ذَلِكَ يَبْدُو اَنْ تَلْكَ الْمَنْطَقَةَ كَانَتْ
مَعْرُوفَةً قَدِيمًاً، اِذَا اَرَدْنَا اَنْ نَعْتَمِدَ عَلَى وَفْرَةِ النَّقُودِ الْذَّهَبِيَّةِ وَالْفَضِّيَّةِ
الْيُونَانِيَّةِ وَالْرُّومَانِيَّةِ، وَالَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا الْاَهَالِي لِزِينَةِ النِّسَاءِ وَالْاَطْفَالِ.

وَيَعُودُ جَزْءٌ مِّنَ الْمَنْطَقَةِ الْيَوْمَ إِلَى تُرْكِيَا، وَالْآخَرُ إِلَى فَارَسَ،
وَمَقْسُمَةٌ إِلَى حُكُومَاتٍ صَغِيرَةٍ يَحْكُمُهَا بَاشَوَاتٍ يَنْتَظِرُونَ دُورَهُمْ.
وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا ظَاهِرِيًّا بِسُلْطَةِ رُؤُسَائِهِمْ هُنَّا أَوْ هُنَّاكَ. وَهُمْ يَتَقَاتِلُونَ فِي مَا
بَيْنَهُمْ وَيَفْصِلُونَ فِي خَلَافَاتِهِمْ وَالسَّيْفُ فِي اِيْدِيهِمْ حِيثُ تَوَارَثُوا عَدَاوَاتَ
قَبَائِلِهِمْ وَيَنْقُلُونَ رُوحَ الانتِقَامِ إِلَى مَنْ يَخْلُفُهُمْ. هَذَا إِلَى جَانِبِ اَنَ السَّلَبُ
وَالنَّهَبُ وَالاعْتِدَاءُ خَبْزُ يَوْمِي، وَكَثِيرًا مَا تَسْتَخِدُ حَالَةُ الْفَوْضِيَّ حُجَّةً
لَوْقَوْعِ الْكَثِيرِ مِنَ الْجَرَائِمِ. وَلَانَ الْكُرُدُ بِطَبِيعَتِهِمْ قَطَاعُ طَرَقَ مَهْنِيَّونَ
وَحَقُودُونَ فَانَ شَرُورُ وَفَسَادُ حُكُومَاتِهِمْ لَا تَؤَثِّرُ كَثِيرًا عَلَى حَيَاتِهِمْ
الْاعْتِيَادِيَّةِ الْيَوْمَيَّةِ.

وَمَعَ اَنَ الْجَبَالَ تُعْتَبِرُ نَهَايَةَ الْمُمْرِ الذي يَؤْدي إِلَى كُويِسِنْجَقْ، ظَلَّنَا
نَسِيرُ طِيلَةَ النَّهَارِ يُومِيَ الثَّالِثُ عَشَرُ وَالرَّابِعُ عَشَرُ حَتَّى الظَّهَرِ عَلَى تَلَالِ
صَخْرِيَّةِ وَعَرَةِ تَقْطُعَهَا وَدِيَانِ عَمِيقَةٍ وَعَبْرُ طَرِيقِ شَاقِ خَطَرٍ. وَاعْتَرَضَ
اللَّصُوصُ عَدَةَ مَرَاتٍ خَطْوَطَنَا الْإِمَامِيَّةَ لَوْقَفَ سَيرُ سِيرَتَنَا، وَلَكِنَّنَا كَانَ
اَقْوَيَاءُ بِمَا فِيهِ الْكَفَايَةُ لِرَدِعِهِمْ. هَذَا إِلَى اَنَّنَا لَمْ نَكُنْ نَحْمِلُ الْكَثِيرَ مِنْ
الْاِمْتِعَةِ الَّتِي يَمْكُنُ اَنْ تَثْبِرَ اهْتِمَامَهُمْ. وَوَاصَلَنَا سِيرَنَا وَوَصَلَنَا بِدُونِ
حَوَادِثٍ إِلَى اَرْبِيلَ، اَرْبِيلَ الْقَدِيمَةِ، وَبَعْدَ اَنْ عَرَبَنَا الْاسْوَاقَ وَالشَّوَارِعَ

القدرة، اخذوتنا الى اجمل منازل المدينة، وكان من السهل معرفته انه رغم الحفاوة التي قابلونا بها، يرى الجيورجي، انهم لم يستقبلوه كما يجب، وهو المملوك المفضل لدى باشا بغداد. ولعب دور الرجل الكبير، والتزم الصمت حفظاً لكرامته، بل انه اظهر تحفظاً متعالياً ورفض الاندفاع الودي الذي حاول الحاكم اظهاره ليطلب وده. وكانت تلكزيارة متاخرة وفقاً لقواعد اللياقة. وشعر الجيورجي بالاهانة من تصرف الحاكم، الذي لم يقدم له فروض التكريم والتحية عند وصوله، وهو تكريم اعتقاد انه سيكون اكبر من حجم مكانة الجيورجي. وقد عامله الحاكم بفتور، واصبحت لديه اسبابه للخوف من نتائج خطئه السياسي ولذلك حاول تهدئة مشاعر ذلك الشخص الهام في محاولة لدغدة غروره.

وجمع الحاكم جميع قوات الحرس ورجالات الدولة في الساحة حيث المنزل الذي نقى فيه. وبعد عدة طلقات اطلقها الفرسان في الهواء، تمت قراءة الفرمان الذي يقضي بتعيين "داود افندي باشا" على بغداد. وهنا الجميع بعضهم بعضاً، وتماسكوا جميعاً بالايدي ليؤدوا رقصة فرح هادئة تصاحبها اغنية هامة رتبية قدمها رئيس الحفل. وكان من السهل ان نرى ان مظاهر الفرح تلك لم تكن من القلب، فهم يحتفلون فقط بتبدل مستبد باخر، وهو تعبير يتم هنا في الشرق على حساب الحاكم، ولان الناس في السلطة لايتكون الغنيمة الا بعد الشعور بالتخمة. وجاء العامة على فترات للانضمام للحفل وللهتافات. وعندما لاتكون الاصوات عالية جداً، فهناك اناس، باسم الحفاظ على الامن، يلکرون اكتاف المشاهدين يميناً ويساراً حتى تعلو وتتسارع اصواتهم. وينتهي الرقص باطلاق العيارات النارية في الهواء بشكل غير منظم. ولان الاسلحة النارية محسوبة، فمن حسن الحظ ان الحوادث لم تقع.

وبعد انتهاء الاحتفالية شاء سوء حظي كوني اوربياً ان يهجم علي جميع مرضى وكسيحو المدينة معتقدين انني استطيع ان اقدم لهم الشفاء. وفوجئوا، ولم يتقبلوا قولي لهم وانا اشير الى سيفي ومسدساتي ان مهنتي هي ان اقتل وليس ان اشفى. واحد من بينهم الح ان العب دور الطبيب رغمما عنـي^{٣٢}. بعد عنـي جميع المرضى وقال لي انـي مـحق في ايجاد ذريعة للتخلص منهم وقدم نفسه على انه رجل مهم وفي مستوى الحاكم وطلب مني ابداء رأي في مرضه الذي وصفه. وانـه يعلم جيداً ان الاوربيـن خاصة الانجليـز علمـاء في الطـبـ. وقدم لي اسمـاء عـدة من موظـفيـنا على انـهم اطبـاء مـهرـة^{٣٣}. بل اشـادـ بلـحـيـةـ اـحـدـهـمـ الطـوـيلـةـ وجـديـتـهـ فيـ التـعـامـلـ. وـلمـ تـبـقـ اـمـامـيـ فـرـصـةـ لـتـخـلـصـ مـنـهـ،ـ وـخـشـيـةـ مـنـ فـقـدانـيـ هـيـبـيـتـيـ وـجـارـتـيـ كـانـجـلـيـزـيـ،ـ وـلـانـيـ لـمـ اـكـنـ اـرـغـبـ فيـ انـ العـبـ الطـبـبـ،ـ نـصـحتـهـ بـالـسـفـرـ الـىـ بـغـدـادـ لـاجـراءـ عـمـلـيـةـ كـنـتـ اـعـرـفـ انـ مـرـضـهـ يـتـطـلـبـهاـ،ـ وـلـكـيـ اـتـخـلـصـ مـنـ الـحـاـحـهـ اـعـطـيـتـهـ كـمـيـهـ مـنـ الـادـوـيـهـ الـيـ لـديـ،ـ ثـمـ طـلـبـ منـيـ عـلاـجاـ لـضـعـفـ فيـ اـحـدـ اـعـضـائـهـ الـمـعـيـنـةـ وـاعـرـفـ انـهـ لـاـيـوـجـدـ ايـ شـئـ فيـ الـعـالـمـ لـعـلاـجـ ذـلـكـ،ـ قـلـتـ لـهـ اـنـنـيـ لـاـعـرـفـ،ـ وـلـاـعـرـفـ مـطـلـقاـ دـوـاءـ يـشـفـ ذـلـكـ الـوـهـنـ،ـ وـعـنـدـمـاـ قـلـتـ لـهـ ذـلـكـ،ـ قـالـ لـيـ اـنـهـ سـوـفـ يـجـربـ تـنـاـولـ دـوـائـيـ وـلـكـنـهـ لـمـ يـعـدـ يـصـدـقـ اـنـنـيـ عـالـمـ.

وفي المسـاءـ،ـ تـمـ دـعـوتـنـاـ لـتـنـاـولـ عـشـاءـ فـاـخـرـ يـحـويـ عـلـىـ الـقـلـ اـرـبعـينـ نـوـعاـ مـخـتـلـفاـ مـنـ الـلـحـومـ.ـ وـقـدـمـواـ لـلـضـيـوفـ اـبـنـاءـ الـحاـكـمـ لـلـتـعـرـفـ عـلـيـهـمـ،ـ ثـمـ قـدـمـواـ لـنـاـ مـنـ يـسـرـدـونـ الـقصـصـ ثـمـ الـموـسـيـقـيـوـنـ وـذـلـكـ لـتـسـلـيـتـنـاـ.ـ وـاـذـ لـمـ اـسـمـعـ اـلـاـ بـصـعـوبـةـ مـاـ اـرـادـوـاـ قـوـلـهـ لـيـ بـشـكـلـ عـامـ،ـ عـلـىـ

³² اـشـارةـ اـلـىـ مـسـرـحـيـةـ مـوـلـيـرـ الـمـعـرـوـفـةـ ((طـبـيـبـ رـغـماـ عـنـهـ)).ـ [ـالـمـتـرـجـمـةـ]

³³ عـنـدـمـاـ يـقـالـ فـيـ الـعـامـيـةـ الـفـرـنـسـيـةـ بـاـنـ الـفـرـدـ ((نـدـ لـفـلـانـ)),ـ ذـلـكـ يـعـنـيـ طـبـيـبـ مـاهـرـ لـانـ "اسـكـلـيـبـيوـسـ"ـ اـنـهـ طـبـ عـنـدـ الـيـوـثـانـ وـابـنـ لـلـالـهـ اـبـولـونـ.

وجه الخصوص، افترضوا انني لا اجد اي تسلية في سمع قصص مواضيعها مجهولة لي ولا استطيع فهمها. اما بالنسبة للموسيقى فقد كانت نشازاً وبدائية لاتقبلها وبسخراً الا الاذن التركية، وهي تشبه اناشيد الشعراء الجوالين في جنوب فرنسا حيث استمعت اليها في قرية جنوبية هناك، ولكن شتان بينها وبين وما قدموه وهو اقل منها قيمة بكثير. ومع ذلك بدأ السرور والحبور على رفافي وشاركتهم الترحيب الذي قوبلت به. والاتراك كما الاسيويون، لتجذبهم روعة تناسق الالحان وتذكرت ما قيل لي في احد الاعياد العامة وفي بلاط نظام وحيث عزفت فرقة موسيقى الجيش التابعة للشركة اعذب الحان السمfonيات المعروفة، ولكنهم طالبوا باللحن الذي سبق تلك السمfonيات والذي لم يكن سوى مجرد توافق الآلات استعداداً للحفل.

ولما انفرط عقد الضيوف، تهيات للنوم على البساط والوسائل التي في القاعة، حيث تناولنا العشاء. وجاءني التترى الخبيث ليطلب مني ان اذهب الى احدى الغرف في الطابق السفلي. وتصورت قبلًا ان القاعة مخصصة لاغراض اخرى، حين علمت انهم ارادوا تهيئة اجمل شقة لرفيقنا الجيورجي. وشعرت بالغصب لاهانتي، ورغم الصيحات التي ارتفعت ضدي، اخترت المكان الاكثر راحة، واستلقيت بهدوء استعداداً للنوم. ولربما انتقد البعض تصرفاتي ونعتوني بقلة الادب واللباقة، ولكن خبرتي بطبائع الاسيويين، علمتني انه اذا وافقت الان على ذلك ستسقط هيبتي والمرتبة التي يحافظونها لي في نفوسهم. ولانه في تلك المناطق حيث يجهلون امبراطورية القانون، اذا ما اظهرت بعض اللطف والتواضع فانهم يعزون ذلك اما الى الخوف او الى الشعور بالدونية. وبما انني تشرفت بالمثول في حضرة الباشا وعندما كان ذلك العبد الجيورجي الواقع يقف في اخر القاعة ولم يدع للمثول في حضرته، كنت متأكداً ان رفافي سيظنون بفرضي انني في منزلة هامة من الصعب ان اتنازل عنها.

اربيل، اربيل القديمة، تشتهر بتلك المعركة الشهيرة التي تحمل اسمها، بالرغم من أنها وقعت على مسافة بعيدة عنها، كما اشتهرت لأن "دارا" قد لجأ إليها بعد هزيمته. أنها مدينة قبيحة، قذرة يوجد في مركزها اطلال القصر- القلعة. كما أنها تقع على أحد تلك المرتفعات الصناعية التي تتوج السهل الذي تطل عليه. وهي تبدو للناظر كتلة هائلة من الاطلال والمواد المكدرة. وسكانها خليط من المسيحيين والعرب والاتراك والكرد واليهود واليزيديين عبادة الشيطان. وتشتهر اربيل بصناعة الأغلفة السميكة الممتازة جداً لمقاومة للرطوبة.

وتركتنا اربيل في الخامس عشر من الشهر صباحاً، ورافقتنا الحاكم نفسه مع حرس الشرف لمسافة ثلاثة أميال، واستأندنا الجبورجي في احترام كبير مودعاً أيامه، ولكن دون أن يكلف نفسه توديع جماعتنا. وبعد مسيرة خمس ساعات، في سهل يقطعه بعض التلال، وصلنا الزاب الكبير حيث وجدنا قبيلة صغيرة من اليزيديين ساعدوتنا على عبور النهر بواسطة شباك تحمل قرباً مليئة بالهواء. وكانوا عراة تقريباً واظهروا مهارة كبيرة في السباحة ونقل جيادنا للشاطئ المقابل وحتى الاولاد الصغار كان كل واحد منهم وبسهولة يجر جوادين او ثلاثة حتى الشاطئ المقابل. ولم نفقد سوى حصاناً واحداً اراد الرجوع بعد ان اقتربنا من الشاطئ. وفي اللحظة التي امتنع فيها حصاني امسك رجل غريب الاطوار بجوادي طالباً مكافأة وبضع بارات، كانت لتكفي ولكن لم يكن لدي. فاعطيته قرشاً واحداً، واعاده لي باحتقار طالباً المزيد، فأخذته واعده الى جنبي. ولم يكن يتوقع ذلك التصرف من جنبي، وحاول الامساك بسلام حصاني وجره محاولاً انزاله وهو ينعتني بالكافر وباليساري الكلب، واقعته بضررية من سوطه وسط ضحكات رفاقه لذلك الانتصار. وقالوا له انه لم يكن يعرفني وانني لم اكن مسيحياً بل انجليزياً. وهي مقارنة لم افهمها وكان ذلك تصرفًا غريباً بالنسبة لي.

ويبلغ عرض الزاب الكبير ثلاثة اقدام وهو عميق وسريع الجريان في هذا الفصل من السنة. ثم عبرنا سهلاً يشبه السهل السابق حتى وصلنا قرقوش، بعد ان قطعنا حوالي اثنين واربعين ميلاً. وهي قرية كبيرة يسكنها بعض اليزديين، ومنازلها تعلوها قبة في الوسط وهو ما يميز تلك المنطقة. وسكانها شرفاء واحوالهم المعيشية طيبة. وهم في هيأتهم العامة جيدون اما نساؤهم فجميلات جداً. ومع اتنى لا اشكك ابداً في دقة معلومات السيد "ماكدونالد كيوير Macdonald Kiuneir" الا اتنى لا افهم لماذا يظن ان قرقوش، هي قرية (ميميوم Memmium)، على مسيرة اربعة ايام يقطعون فيها مسافة ثمانين ميلاً على الاقل.

وفي قرقوش، نزع التتري قناعه تماماً ليظهر امام اصدقائي مدى اعتداله وتوازنه. فقد انعزل في احدى الغرف الخاصة مع اربعة من اهم رفاقنا قاصداً تناول الشراب حتى الشمالة، وبنفس القدر من الجدية التي يؤدي بها صلواته، ولسوء الحظ، او من الافضل ان اقول لحسن الحظ، كانت الخمر تنتصهم لتحقيق مشروعهم. وبما انه لا توجد في المدينة اضطروا للذهاب للنوم قبل ان يسکروا كما كانوا يأملون فيقضاء ليلة سكر وغريبة. وامتنطينا في السادس عشر، خيولاً نشطة ممتازة، وكان تأثير ابخرة الخمر التي احتسها هؤلاء الخمسة بالامس لم تتبدد بعد، وجعلونا نرحل وبسرعة كبيرة لم نالفها في سفراتنا السابقة. وكانوا يركضون بخيولهم غاضبين، ويضربون خيولهم بالسياط حتى يُسرعوا اكثر حتى وصلنا الموصل خلال ساعة ونصف الساعة، رغم ان الخريطة تقول ان المسافة التي قطعناها تبلغ خمسة عشر ميلاً.

اطلال نينوى القديمة، قبر يوحنا، وصف مدينة الموصل، رحلة في قلب
صحراء نصبيين الصغيرة، الوصول الى ماردين، وصف تلك المدينة، بعض
التفاصيل عن اليزيديين او عبدة الشيطان

يعتقد البعض ان الموصل تقع في مواجهة الموقع الذي اقيمت فيه
مدينة نينوى القديمة. وتقع تلك المدينة على شاطئ دجلة الغربي، وتبعد
 حوالي اربعين ميل عن بغداد، ونصل اليها عبر جسر حجري يعلوه خمسة
 عشر قوساً، وقد تهدمت الاقواس الخمسة في الوسط. وعبرنا النهر على متن
 قارب خشبي. ولم اكن اعرف واؤكد على ذلك، سوى ان تلك المرتفعات في
 الارض وبعض المواد المجهولة والتي تكون جزءاً من تلك المدينة الكبيرة
 التي يفترضون انها اقيمت في ذلك الموقع. ويطلب الامر وجود معارف
 كثيرة متشعبة لتأييد ذلك الرأي، وتأكيده بالبراهين. ولكنه من المؤكد ان
 نرى على مسافة ابعد قليلاً من المدينة بعض الارتفاعات الارضية
 الاصطناعية، وهي تشبه كثيراً اطلال مدينة بابل. ويبعد الارتفاع الاول
 مسافة ميل عن الموصل، ويقع على شاطئ دجلة ويبلغ محیطه ميلاً
 تقريباً. والارتفاع الثاني اكثراً ارتفاعاً ولكنه اقل انتشاراً ويعلوه مبني عليه
 قبة، يقال انه قبر النبي "يوحنا"، حيث يأتي الحاج اليهود لزيارة
 القبر. وتحيط به قرية تحمل اسم المدينة القديمة، ويعتقد كثيرون انها
 بقاياها. وقال لي دليلي ان ارتفاعات كهذه في الوادي تمتد لعدة اميال.
 وأشار الى بعض الاكواخ مقامة على ارض مرتفعة، واما صعدنا النهر في
 اتجاه تلك المرتفعات التي يعود بعضها الى عهد نادر شاه على قوله هو.

والعلماء مشغولون على ما اعتقد بتحديد الموقع الذي كانت تلك المدينة قد شيدت فيه قدیماً وتنقسم اراؤهم حيث يرى البعض انه الموقع الذي يواجه الموصل وحيث يوجد قبر "يوحنا"، ويرى البعض الاخر انها ضواحي القرية الصغيرة حيث توجد بعض الاكواخ. ولكن اذا مدققنا النظر عند دراسة المدن التي تُشيد على شواطئ الانهار، سنراها تتبع في اتجاه الشوارع اتجاه مجري النهر، وقدموها نينوى على انها مدينة كبيرة، فلم يعد هناك احتمال ان هذين الرايين يستندان على اساس كما ان هذه المدينة الكبيرة تحتل مساحة (١٨) ميلاً ممتدة على طول النهر. ونحن اذ نصعد ذلك النهر انطلاقاً من الموصل، سنجد وبشكل رئيسي تلك الاقوام الترابية المرتفعة والتي يمكن افتراض انها اطلال قصر او بقايا جدران مباني نينوى الرئيسية، واستناداً على ذلك المنطق تشكل في الاساس حدود الجانب الجنوبي للمدينة.

وتلك المدينة في وضعها الحالي كبيرة جداً، رغم انه ربما كانت تحيطها جدران عالية جداً، عند افولها، و كانت محاطة باسوار من الحجر عاليه جداً. وقبل الحصار الذي سوف اتحدث عنه، كانت المدينة تحوي عشرين الف منزل كما يُقال. وقد تدمر ثلثها، ولم يبق منها ما هو مأهول الا نصف ماتبقى من المنازل. واما اردننا تقدير عدد السكان ، لنتفترض ان ستة او سبعة اشخاص يقطنون في كل بيت، وستكون النتيجة ان العدد يصل من اربعين الى (٤٥) الف نسمة. من بينهم اثنى عشر الف مسيحي، ولهم ثلاث عشرة كنيسة ويسكنون في الف وستمائة منزل ولكنها ليست بأفضل المنازل. وداخل المدينة يحوي الكثير من الخرائب، ولكن توجد كذلك مباني جديدة، وحمامات ممتازة ومساجد اجمل. اما الحمامات فهي من اجمل مارأيت في حياتي حيث ترى واجهاتها من الرخام وهي كذلك انيقة جداً ونظيفة. ومن بين الستة عشر خانة، يوجد عشر او اثنى عشر

خاناً كبيراً جداً وتقدم للمسافرين كل ما يرغبون، كما هي عادات وطبائع
أهل البلاد الشرقيين.

وترى السكان أقل تحفظاً من سكان المدن الأخرى، ولا تلبس النساء
الخمار ولا يفرض الحجاب قسراً إلا في بغداد. وتعكس تجارة السجاد
والادوات من الحديد والنحاس ومعدات الخيول، تعكس الواناً من الثراء
والثقة في السوق، وبشكل أكبر مما يمكنك ان تراه في غيرها من المدن الكبيرة.
وموصل، وكذلك المنطقة الصغيرة التي تحيطها تتمتع بالاستقلال في ظل
حكم باشا من الطراز الاول. لقد حاصر، نادر شاه تلك المدينة دون جدوى
في ظل حكم حسين باشا. وقد ساهم المسيحيون في الدفاع عنها في حماس
وشجاعة مما اثار احترام واعجاب الجميع، وما زالوا يتمتعون بذلك حتى
اليوم. وظل حكم حسين باشا. وظل الفرس يهاجمون المدينة لثلاثة ايام
اثناء حصارهم لها دون جدوى، فقد كانوا يرتدون كل مرة خاسرين. وما ان
يفتحوا اية ثغرة في الجدار حتى يسدونها في الحال واقسم الاتراك وهم
يقطرونهم بأسوا الشتائم واللعنة، ان يذبحوا جميع نسائهم وبناتهم،
وسيمكون ذلك افضل من تركهن اسيرات هؤلاء الهرطقة المكرهين.

وتحوي الجبال المحيطة بعض المعادن من الفضة وبعض مراقد
المرمر. وفيما عدا ذلك، لا اعرف بوجود شيء آخر يمكن ان يثير الاهتمام.
واذ قضيت امسية سيئة مساء ذلك اليوم لدى وصولنا، اخذت حمامي
صباح الغد وذهبت الى الخان وشهيتي ممتازة. ولكن التترى كان قد ذهب الى
الباشا دون ان يهتم باحتياجاته، اما الخدم فتصرفوا نفس التصرف
والتهموا كل ما هو موجود من مؤن ولم يتركوا ادنى شيء. وقد جرح ذلك
الاهمال مشاعري، الى جانب ان هؤلاء البوسائع يضحكون مني. وانا وحيد،
ومازلت امامي سفرة مؤلمة سأقوم بها برفقتهم، فلا فائدة من حدوث صدام.
وابتعدت اذن خططي الاعتيادية. وهي ان اثبت لهم انني استطيع الاستغناء

عنهم. وذهبت الى الحمام مع احد خدم الخان الذي تأكدت من صلاحيته وقدمت له هدية صغيرة على خدماته. وطلبت منه ان يصحبني الى السوق لاشتري بعض المؤن واشتريت ما احتاجه لتهيئة وجبة فاخرة. وعند عودتي وانا محمل بالمؤن وجدت رجالنا وقد تجمعوا حولي بمن فيهم حتى سائق البغال وتدافعوا حولي املاً في الحصول على حصتهم. ولكنني قلت لهم انهم قد تناولوا عشاءهم، ورغم انهم انتظروا ان انتهي من عشاءي، لأن الانجليز لايتنازلون ويجلسون على المائدة مع اناس من العامة. ورغم سُخُف تلك التصرفات التي اضطررت ان اتعامل بها حفاظاً على مكانتي، فقد وجدت فيها بعض الفائدة مع الناس الذين اتعامل معهم. وامرت ان يحملوا الى غرفتي جميع الاغذية التي اشتريتها لنفسي، ولم يعد حولي سوى خدم الخان المتواضعين الذين خدموني بحماس واخلاص املاً في تقاسم ما يتبقى. وعندما عاد التترى، احسست بتاثير تصرفاتي تلك فقد زجر رجالنا وقدم لي اعتذاراته على اهماله لي.

وفي السابع عشر رحلنا ووصلنا قرية صغيرة بعد مسيرة استغرقت ساعتين وثلاثة ارباع الساعة. وتوزعت ضربات السياط على الجميع كالعادة، ولكننا لم نستطع الحصول على اي شيء. واستأنفنا السير، وبعد مسيرة ساعتين وجدنا مخيماً عربياً في الصحراء الصغيرة الممتدة ما بين الموصل ونصيبين، وحصلنا منهم على جدي صغير، وقمنا بشيء في الحال. وبعد ان اشبعنا جوعنا استأنفنا السير. وفي الحادية عشرة والنصف التقينا بقبيلة اخرى، ولكننا لم نتوقف الا للوقت الكافي فقط لاختيار ادلاء. وسرنا طيلة الليل ولم نتوقف الا في صبيحة اليوم التالي، على شاطئ مجرى نهر صغير حتى تتمكن خيولنا من ارواء عطشها. ومع الظهر وصلنا الى تلة مرتفعة مخروطية الشكل، صعد عليه ادلوانا للتعرف على ثلاثة من الفرسان رأوه من بعيد. اما بالنسبة لي، فلم اكن ارى سوى نقطة سوداء تبدو وكان الريح

فصلتها عن الضباب الذي يغطي الافق. ولكن عيون ادلائنا القوية المتمرسة عرفا ان تلك النقطة ما تثبت ان تكبر وتنتشر. ولكن بعد ان انضم اليها بعض المسافرين من الموصل، اصبح عددها ثمانين رجلاً مسلحين جيداً. ومعروف ان السناجق يجتمعون عادة في فرق قوية، تكون الواحدة من عدة مئات، وطلب منا التترى آنذاك والذي كان قد اعفى بعضًا من كشافينا، طلب منا ان نصعد القلة.

وقال لنا اول العائدين ان نستعد للمعركة. وفي الحال، بدأ بعض رفاقنا يطلقون صيحات الحرب وهم يلوحون بسيوفهم وبمسدساتهم، وذلك لانه مع تصاعد ضجيج الصيحات يتحلون بالقوة وبالشجاعة. واعتقدت ان الظرف يسمح لي بابداء رأيي، وطلبت منهم التزام الصمت التام والقيام بترتيب امتعتنا مما يجعل منها متاريس في المناطق التي فيها ثغرة يمكن استغلالها. وكادت تفقدني تلك النصيحة شهرتي القليلة بالشجاعة والتي اكتسبتها في سوسيه، ولكن يبدو ان رفافي كانوا يظنون ان الصياغ كان افضل وسيلة ودليلًا على الشجاعة. فواصلوا اذن صياغهم وضجيجهم في الوقت الذي وجدت فيه بعضهم جالسين على الارض، يتمتعون في هدوء بتدخين الغليون. وبقينا على هذا الحال لمدة نصف ساعة. وحينئذ وجدنا باقي الكشافين في صحبة بعض الفرسان الذين انفصلوا من قوات السناجق، ولم يتوقفوا الا عندما رأوا عددهنا، وتماسكنا التام ومواعقنا. فسلموا علينا آنذاك، وانسحبوا ركضاً وانضموا لقوتهم التي مالت اذ اختفت آثارها تماماً.

وكنا سعداء اذ تخلصنا من عدو تصورنا اننا ارهبناه بشجاعتنا. واستأنفنا المسير، وبعد مسيرة ساعتين ونصف الساعة، فان رؤية جماعة اخرى من قطاع الطرق فرضت علينا ايضاً ان ننظم موقعنا بين اطلاق كثيرة كانت على يسارنا. وبدأ لي ان تلك الانقضاض كانت لخان كبير جداً،

في حين يؤكد بعض الرفاق انها انقاض فيلا كبيرة ورووا قصة من تخصصهم الفارغة التي يكررونها عندما تحين الفرصة لذلك. وتركنا تلك المنطقة في الرابعة ولو بقينا سائرين حتى منتصف الليل.

و قضينا ساعة من الراحة، ثم امتنينا جيادنا مرة اخرى، وتقىدنا في حذر شديد، حيث طلب منا التيري ان نلتزم الصمت والا نتفوه بكلمة والا ندخن مخافة ان يفضح الدخان موكبنا الصامت. وظللنا دون توقف ودون اخذ اي فرصة راحة منذ السابعة عشر، ومنذ الخامسة مساء، حيث لم نتناول خلال سفرتنا سوى قطعة خبز سمراء وبعض البصل. وفي سفرتنا صبيحة التاسع عشر، وجدت حسانى مجهاً ومتعباً جداً لدرجة انه القاني في المستنقع. وعندما توقيتنا في العاشرة والنصف امام قرية بائسة وآملت ان نلقى فيها بعض الراحة فيما تبقى من اليوم، ولكن صدرت الاوامر في الحال بالسفر وتوجب علينا ان نمتطي خيولنا.

وحتى هذه اللحظة، لم تسنح لي الا فرصة قليلة لكي اشكو من سكان البلاد التي قطعناها سفراً. واذا ما عانيت من بعض التصرفات كالاهمال والوقاحة، فكان ذلك من جانب تركي متجرف، او من قبل تيري نصف متحضر ممن هم في قافلتنا. ولكن في ذلك اليوم، لعبوا معى لعبة احدثت لي بعض الضرر: فقد تبللت جزمتي الطويلة نتيجة لذلك الحادث الذي وقع لي. وبعد ان يبست صارت ضيقة واصبح من المستحيل ان اضعها في قدمي. وتقدم نحو فلاح وهو احد ادلائنا، وعرض علي ان يبس زوجاً من الجزم مستعملاً وقديماً وعرض ان يأخذ جرمتي حتى ماردين. وكانت دائمًا على حذر من ان اقع ضحية الاحتياط، ولكن كانت تبدو عليه مظاهر الامانة التي اقنعني واعطيته بعض القروش لانه اهتم بي. وبعد قليل عرفت ان شقيقه ترك المعسكر ومعه جرمتي. فجذبته من ياقته وكنت على وشك معاقبته على هذا الاحتياط، ولكن التيري منعني وهو يعدني بأنه سيقوم باقرار العدالة.

ولكنه كان وعداً لم يتحقق مطلقاً. واحيراً، وفي العاشرة والنصف مساءً دخلنا في خان، حيث قضينا الليلة، واستأنفنا الرحلة في العشرين في السادسة والنصف صباحاً، والتقيينا في الطريق بمجموعة قوية من التتر، وتقدمنا اليهم بطلب تبادل الخيول، ولكنهم كانوا من الذكاء لثلا يقعوا في الفخ. ثم وصلنا نصبيين بعد مسيرة متواصلة لاربع ساعات ونصف الساعة. ونصبيين، هي اطلال مدينة كبيرة قديمة، وتقع على شواطئ نهر ليس عريضاً كافية، ولكنه سريع الجريان. خطها الدافاعي يعتبر من جهة الشمال، في حين يحميها مستنقع كبير من جهة الجنوب. ونحن لأنرى فيها تقريباً سوى انقاض وان دائرة البريد قذرة جداً بشكل مزعج. وبقايا قناة وبعض المؤسسات الأخرى التي تدلل مع ذلك على اهمية كانت لها قديماً. ونرى مبني يبدو انه كان قصراً او قلعة قوية به ثقوب كبيرة. كما نرى مسجداً من الحجر. تعلوها منارة وكذلك انقاض كنيسة كانت قداماً قد وهبت للقديس "چاك". وحولى خمسة اعمدة من الگرانيت المنحوتة قطعة واحدة. وارتفاعها من خمسة عشر الى ثمانية عشر قدماً.

وبعد ان قضينا فيها حوالي الساعه والربع لتناول الغداء ولاخذ قسط من الراحة، استأنفنا المسير، وبعد ان قطعنا حوالي سبعة اميال، رأينا اطلالاً هامة، وعرفنا بعد ذلك ان الاسم الحقيقي لها هو قصر جيهان. وتعرض تلك الاطلال فكرة وجود قلعة قوية تمتد على مساحة كبيرة، ومازالت جدرانها السميكة العالية قائمة. واكدوا لي على وجود بئر في الوسط ماؤه عذب رائق، ويمكن التزوّل اليه عبر سلم حجري، ومازال قائماً لليوم. وقضينا الليلة في قرية حمودة، الصغيرة والتي تقع على مسيرة اربع ساعات من نصبيين.

وفي الغد، شاهدنا الاطلال العظيمة لمدينة دارا، وهي كانت قداماً في الخط الامامي وتتمتع بأهمية عظيمة. وقدم العقيد "ماكدونالد كينير"

وصفاً دقيقاً لها. ووصلنا ماردين بعد مسيرة خمس ساعات ونصف الساعة وكانت قدماً تسمى (ماردا)، وتقع المدينة على جبل يمكن الوصول اليه، عبر طريق وعر ضيق وصعب، وفي نهايته نرى تنقيبات هامة حُفرت في الصخر.

وقد استقبلنا الحاكم استقبلاً كريماً، كما استقبلتانا عدداً من رجالات المدينة والذين قدموا لي بكرم كبير، حمراً فاخراً وخبيزاً من أفضل الانواع، وامطروني بالاسئلة حول القسم والاحوال العامة. وبعد ان خرجوا، سارع رفافي لأخذ نصيبيهم مما قدموا لي، وداعبوا القنينة بطريقة جعلتني اعتقد ان هدفهم كان التوصل الى التمتع بتلك اللذات التي يشعرون بها في هذيان السكرة. ولايمكن تحمل الاتراك في ذلك الاتجاه وهم في الظاهر يتظاهرون بالقرف من جميع المشروبات الروحية، وانهم يقنعون بشرب الماء النقى، ولكنهم اذا اتيحت لهم الفرصة المناسبة فانهم يتناولونها في شراهة تامة.

ويبلغ محيط مدينة ماردين ثلاثة اميال. وتقع في الجنوب وعلى منحدر جبل، اسفل قلعة قديمة فوق قمة الجبل. ويحيطها سور حجري اما منظرها فهو اجمل من كل المدن التي رأيتها حتى الان. وشوارعها ملساء ولكنها غير مريحة، الا انها نظيفة جداً، ويعود ذلك لانها شديدة الانحدار، كما يكتسح اقل مطر كل الطين في الطريق. والمدينة هي المقر الرئيسي لمطران المسيحيين الكاثوليك، والذي كنت قد التقى به في بغداد، وبحكمها حاكم يسمى "المُنَسِّلْ"، ويعينه الباشا. اما مكونات الشعب فهي كالاتي: مسيحيون كاثوليك، نسطوريون، ارمن، اتراك، عرب، يهود وبعض الاسر الفارسية. ويُقدر تعداد سكان المدينة بحوالي عشرين الف نسمة. ويُقال ان المسلمين يقطنون في الفي منزل، بكل مذاهبهم. (لوحة رقم ٥)



و قبل ان تترك ماردين، يجب ان نقول شيئاً حول اليزيديين من جبل سنجار والذين من النادر ان نلقاهم خارج المدينة. و هم فئة من المتطرفين الذين اجتاحتوا الصحراء الصغيرة ما بين الموصل و نصيبين. و يصفونهم بأنهم عبدة الشيطان. ولكنني اعتقاد انه من الافضل القول انهم يحاولون فقط استبعاد غضبه. و يبدو لي انهم في نفس وضع تلك المرأة كبيرة السن التي كانت تشعل شمعة على شرف جلالته الشيطانية. و يقولون: ((انه ليس شيئاً بالدرجة التي نعتقدها)), ((ومن الضروري ان يكون لك اصدقاء في كل مكان)).

ونحن نعرف القليل عن عقائدهم، وذلك لأن الاتراك لا يسمحون إلا للطوائف التي تمتلك قانوناً مدوناً، كما المسيحيين واليهود، ولذلك نرى اليزيديين يعتقدون بضرورة التعايش مع مثل ذلك الوضع، فيقولون إنهم مسلمون، مسيحيون، أو يهود، حسب الظرف القائم.

ويدعى البعض انهم يقدسون الكتابات المقدسة، كما القرآن، ويحترمون بالمثل السلطات الدينية للمسيحيين والمسلمين، وآخرون يقولون انهم ينحدرون من يزيد ومن اولئك العرب الذين قتلوا الحسين حفيد النبي وطاردوا اسرة علي بعنف وعناد. وعملية الطهور شئ مشترك بين الاتراك والمسلمين، حيث يخضع الذكر لتلك العملية. وهناك امم اسيوية تتبنى بدورها القيام بتلك العملية، ولا يعني ذلك انهم يتبعون نفس العقيدة. وبعيداً عن كراهية الخمر كما يفعل المسلمين، ترى اليزيديين يقدسونها كونها نعمة من نعم العناية الالهية. ولا يحبذون فقدان نقطة منها. وعند تناولها يمسكون الكأس بيديهم الاثنتين، وإذا ما وقعت بعض النقاط عن طريق الخطأ، يغطونها بالترباب فهم يحفظون حصة قوة عليها. الى جانب ذلك لا يجب ان يتسللوا، لأن نسيان ذلك ولو للحظة واحدة، يمكن ان يتسبب في انهيار جميع احلامهم في العيش بسلام.

ويعتمد جميع اليزيديين مبدأ عاماً يقول ان رحمة الخالق لا حدود لها كما ان حكمته لانهائية. وإذا ما تحدثوا باحترام عن المخلوق الذي يتهمنهم بعبادته، او لقبوه بالمولى او السيد، فلأنهم يعتقدون تماماً انه سيعود يوماً الى رحمة الله وطاعته، وتتعود اليه يوماً ما كرامته وهيبته التي فقدهما بعصيائه. فلماذا يتبرون غضبه على حد قولهم؟ ولماذا يتدخلون بين ملاك سقط وسيده الخالق؟ وهل ان الله في حاجة الى ان نلعن من يعاقبه؟ الا يمكن ان يحدث ان يعفو عنه؟ وكذلك، يجب ان ترتفع سيفك في وجه احد المقربين من الامير غضب عليهاليوم، الا يمكن ان تعود له في الغد جميع حقوقه وكرامته؟

وهم يقيمون على الاكثر في ضواحي سنجار، وهو واحد من سلسلة جبال تقطع سهول بلاد ما بين النهرين في جنوب شرق ماردين وحيث تنمو اشجار الكروم والتين والمشمش وبشكل عفوي فيها. اما في الشتاء فيعيشون في كهوف منحوتة اسفل تلك الجبال. اما في شهور الصيف ينتشرون في السهل حيث يهاجمون القوافل ويسلبون جميع المسافرين الذين يلاقونهم دون تمييز. وحينذاك يخيمون في الصحراء على طريقة البدو، ويحاربون بالسيف وهم على ظهور الخيل وكذلك الرماح والمسدسات والبنادق. وهم كما الفرشين، الذين يعيشون في قسم من البلاد تراهم يعرفون جيداً كيف يستخدمون النار وهم يفرون او يعودون. ويصيّبون الهدف دائمًا الا فيما ندر.

ويرتدى اليزيديون لباساً يشبه الزي التركي، وهم رجال وسيمون، اجسادهم قوية، يمتطون خيولاً جيدة. معتادون على استخدام السلاح منذ شبابهم، وقدرون على تحمل جميع اشكال التعب والحرمان، ولكنهم خونة وقساة القلوب وجبناء يقتلون اسراهم واحياناً يتركونهم عراة في الصحراء بعد ان يسلبونهم، حيث يتعرضون للموت جوعاً وبؤساً. وضربوا لنا العديد من الامثلة على المعاملة البربرية التي يعاملون بها المسافرين الذين يقعون بين ايديهم. ولكن، في مناسبة او مناسبتين فأن شجاعة وتصميم رجل واحد تكفى لهزيمتهم ولانقاد قبيلة باكملها.

ويزداد تعداد السكان على المليون، ان لم يصل الى المليونين وذلك استناداً الى بعض التقارير. وينقسم السكان الى عدة قبائل صغيرة مستقلة، لكل منها رئيس. ويُقال انهم جميعاً ينحدرون من خمس اسر ولكنهم اليوم قبائل رحل او مستقرة. وبعضاها كما البعض الآخر، يتكون من اليزيديين البيض والسود، انه لون الملابس الذي وضع لهم ذلك التوصيف. السود هم القساوسة الذين لا يهتمون فقط بالتزاماتهم، وانما يقومون بذلك بحراسة القطاعات العامة للقبيلة.

واحدة من الخرافات المثيرة التي يتهمنهم بها وعن حق احتمالاً وهو انهم يجتمعون مرة في السنة على حافة مغارة كبيرة اسفل جبل عبدالعزيز ويقدمون للشيطان جزءاً من ثرواتهم ومجوهراتهم الثمينة ويلقون بها في تلك الهوة. ويمثل ذلك القربان رمزاً لاحتقارهم ثروات العالم ويصحب كل ذلك احتفالات كافرة رهيبة حيث يرقصون رقصة متوجحة على انقام الابواق والدفوف ويقومون بحركات مجنونة كما لو كانوا مأخوذين بالهام ديني.

ويشتري اليزيديون نساعهم من والديهم، لا يسمحون بالطلاق حتى بعد استهلاك الزواج الا عندما ينخرط احدهم في الاكليروس. حينذاك فقط يسمح لهم بالطلاق والزواج من جديد. وهو امتياز يمكن ان يشرح لماذا نرى عدداً كبيراً من اليزيديين السود. ولم استطع الحصول على اية تفصيلة حول الاحتفالات التي تصاحب مولد ابنائهم. ولكنني علمت انهم يقيمون احتفالات جنائزية عند دفن الميت تصاحبها بعض الملذات. ولكن اذا كان المتوفى قد مات ميتة عنيفة. ولم ينتقم له احد، تتم مراسيم الدفن في سكون. ويقوم اقرب اقرباء المتوفى بقص اللحي علامة على الحداد وفقدان الشرف.

ولا يعودون الى اطالتها الا بعد ان يتم الانتقام للميت وتهدا احزان الميت وحينذاك فقط تقام الاحتفالات الجنائزية. ومن المحتمل ان تكون الخرافة التي تحدثت عنها سابقاً قد ولدت الاسطورة الشعبية القائلة بأنهم يخبيئون كنزاً كبيراً في اعماق بئر. ليكن طمعاً للحصول على ذلك الكنز المخبئ، او لعقابهم على السرقة او القسوة. قام سليمان الكبير، على رأس جيش عرم بالهجوم عليهم قديماً ومطاردتهم حتى جبالهم، وهدم كرومهم والزرع والضرع، وقطع رأس زعيمهم. واجبرته اخبار انتفاضة في مكان اخر، ان يذهب واسلحته، ولكنه لم يترك وراءه الا ذكريات تصرفاته البربرية وكراهية عميقة للاقتراف.

الفصل الثالث عشر

الرحيل من ماردين، تزيان Tezian، وصف دياربكر، جبل طوروس،
ملاطيا، وادي سيواس، وضع الفلاحين في تركيا، آماسية، بولي، هندك،
الوصول الى سكتاري

تركنا ماردين باكراً في صبيحة الثاني والعشرين، وبالامس، عبر لي المتسلم، عن رغبته في شراء المسدسات المتدلية من حزامي. ولأنني كنت متمسكاً بمسدساتي طلبت سعراً كبيراً لعل ذلك يردعه. واتمسك بها اكثر من المال، لأنها يمكنها ان تحفظ مالي فيما تبقى لي من الرحلة، ولكن حقيبتي لن تدافع عن شخصي. ولم اكن اود كذلك ان ارد طلبه بخشونة، فقلت اذني لا استطيع ان اتخلى عنها الا مقابل مائتي قرش وليس اقل، معتقداً بان سعراً كهذا سيشفيه من نزوهه. ومع ذلك ففي اللحظة التي كنت اهم فيها برکوب حصاني احضروا لي المبلغ، واضطربت ان احفظ كلمتي وتم الامر.

وهكذا يقوم الكبار باعمال التجارة في الشرق، اما المسافر الذي يقع في نطاق سلطتهم فلن يكون له حق الاختيار، بل انهم يستولون احياناً على ما يملكون دون ادنى اعتبار ودون مقابل حتى. ولكن يحدث احياناً ان يربح الجانب الاضعف كما حدث في واقعة تجارة مسدساتي بالقسر. يعتبر الجزء الاول من الطريق بعد خروجنا من (ماردين) صحراء، ثم مناطق جبلية وكلها تزخر كما يقول رفاقي بعدد كبير من قطاع الطرق. واضطربنا ان نسير اذن في مجموعة متراصة قدر الامكان. ولان جيادنا في حال جيدة فقد وصلنا (تزيان Tezian) بعد مسيرة ست

ساعات، ودون حوادث تذكر. ولكن لا، بدون اية نذر خطر. وكانت احاديث رفاقتى تكفى لأن نتفهم ذلك. ولكن من المؤكد اننا التقينا اكثر من مرة بمجموعات من الناس المسلحين الذين يثير مظهرهم التشکك، ويبدو عليهم انهم يتبعون لايجاد فرصة تسمح لهم بالهجوم على المارة. ويظهر هؤلاء المجرمون عادة في مجموعات صغيرة، من خمسة او اربعة اشخاص، تقف على قمة احد المرتفعات التي نعبرها، وكل منهم يمسك ببندقية يرتكز طرفها على الدغل استعداداً لاطلاق النار حين تستぬج الفرصة. واطلقنا بعض الطلقات في الهواء لنذلل لهم اننا مستعدون للدفاع عن انفسنا، ورأيناهم وهم يفرون عبر الجبال الاكثر وعورة، وهم ينظرون الى الخلف مخافة ان تكون وراءهم نطاردهم. ومن المحتمل، انهم من جانبهم كانوا يخافون، لأن قافتتنا معروفة ويقودها اعلى اللصوص المعروفون ابداً في البلاد.

و(تزيان - خان Tezian Khan) قرية صغيرة تصب النهيرات التي ترويها في نهر دجلة، ويوجد في وسطها، وفوق تلة مرتفعة اهم مبنى فيها. وعندما وصلنا، اقتادونا الى قاعة كبيرة مظلمة. وبعد فترة جاء رئيس القبيلة ليزورنا مصحوباً بزمرة من عشرين حارساً مدججين بالسلاح، ينظرون اليانا في عدوانية وتبرم. واحرجونا في الحال من المناطق التي يوجد فيها واحتلواها. وقد تسبب ذلك في حدوث مشاجنة عنيفة بين التترى ورئيس القبيلة. وكان كردياً طويلاً القامة، متين البنية، متواضع المظهر. ويبدو انه كان متشككاً في حقيقة الفرمان الذي نحمله واراد لكي يقتنع، ان يرى الرؤوس التي يحملها التترى الى القدسية. وانتزع التترى من حقيبته علبة صغيرة مربعة الشكل، وفتحها ورأى راس الباشا المسكين، وهو يقول له بحزن، ((هكذا يمكن لرأسك ان تسقط. "مصطفى اغا"، اذا ما تجرأت على اهانة موظفي الدولة)). ويبدو ان ذلك المجرم لم

وفي الثالث والعشرين عبرنا بلاداً أكثر جفافاً واكثر وحشية،
ولايوجد فيها اي شكل من اشكال الزراعة. ومع ذلك، وبعد ان عبرنا
قربيتين تقريباً، لم ندخلهما ابداً. ولكن المناظر الطبيعية بدأت تتغير
واختفت التلال الجرداء لنشاهد بعد ذلك وادياً فسيحاً مزروعاً زراعة
منتظمة، وفيه الكثير من القرى حتى ان الزراعة قد وصلت فيه درجة
عالية من الكمال، والحقول مليئة ويقومون على حرثها بالمحراث الذي
تجره الابقار القوية ذات الذيل الطويل. واثناء سفرة قطعنا فيها الف
ميل، كانت تلك هي المنطقة الوحيدة المزروعة بشكل نظامي كنت قد
رأيتها اصلاً. ومع ذلك، وفي كل مكان اخر، وعندما كانت الارض مهيأة
لتخرج المحاصيل، فهم لا يطلبون منها الا ما كان ضرورياً فقط لاشباع
حاجة سكان قليلي العدد. وعند اقترابنا من دياريكر، اصبح الطريق اكثر
وعورة وكانت كثيراً ما تقطعها المستنقعات، وعادت الطريق لتضيق
لمسافة الاربعة اميال الباقية منها وتتحصر بين الجبال، وعدنا لرؤيه نهر
دجلة من جديد، الذي يجري سريعاً ليدور في منعطفات كثيرة اكثراً مما
عليه حالة جنوب الموصل. وبعد ان مرنا بثلاثة جسور، ثالثها كان
مشيداً جيداً ويحمل عشرة اقواس جميلة، وصلنا في الخامسة والنصف
الي ابواب المدينة الخارجية.

وعرفت (دياربكر)، دائمًا بأنها (العمادية القديمة)، وسمتها الاتراك (قره عمارية) او عمادية السوداء وذلك بسبب الاحجار السوداء التي شيدت بها مباني المدينة. وتوجد في الشرق اماكن قليلة يمكنها ان تقدم جديداً يثير شهية الرحالة الارببي، ويبعدوا عن دجلة يقرر فيها حدود الحياة الانسانية، وما ان عبرنا الجسر، فرض الموت نفسه امامنا حيث احاطتنا المقابر، يحيطها جدار مرمرى اسود، مُضاعفًا بذلك جرعة الافكار السوداء... وتحت البوابات الضخمة المرتفعة رأينا جموعاً من اناس خائفين يرتدون ملابس من كل الالوان وكأنهم جاءوا من عالم آخر عائدين الى مناطق كانوا قد عاشوا فيها قبلاً. وظل نفس الانطباع في داخلنا ونحن نمر في شوارع المدينة. ولا يحتاج كل ذلك لخيال حي، لأن من يمر هناك سوف يعتقد انه يوجد في مركز وادي الدموع في زمن الياس وعصوره المسحورة وكأن شهرزاد الجميلة تقدم له وصفاً رائعاً حياً.

وما ان دخلنا الخان المجاور لقصر البasha، حيث يستضيفون الرسل الشعبية، قدموا لنا عشاءً على الطريقة التركية، يعني طبقاً بعد الاخر واول طبق كان من الارز المطبوخ سينماً. ولكن مسيرة احدى عشرة ساعة جعلت منه طبقاً متبللاً لذيفاناً. وجاء الطبق الثاني، ثم الثالث ولم يكونوا افضل حالاً. ولكنني عرفت اننا سوف نرحل في الحال. ولم افكر الا في استخدام وقتني استخداماً جيداً؟ وما لبثوا مع ذلك ان قدموا لنا الارز المفلفل واليخنة اللذيذة الى جانب معجنات من مختلف الانواع. واعترف انني حينذاك قد اقترفت خطأ فظيعاً في السياسة ووعدت نفسي ان احتفظ بقواي في المستقبل حتى نهاية المعركة. ومع ذلك، ففي الغد، هملت الطبق الاول والثاني في انتظار الثالث ولكنهم لم يقدموا شيئاً، ولم اتناول العشاء: اندzar للرحالة الحساسين المثقفين ولمصلحتهم اروي الحكاية التالية:

حصلت على القليل من المعلومات عن هذه البلدة التي كان يجهلها البعض. فقد تجولت فيها مساء. وفي صبيحة الغد كذلك، برفقة احد الارمن الذي عرض نفسه ليكون دليلاً لي. ووجدت ان الابنية مشيدة تشيداً جيداً، وافضل من مباني اية مدينة اسلامية اخرى دون ان استثنى حتى مدينة القدس. وكانت الشوارع مرصوفة ونظيفة، كما انها عريضة جداً، بل اعرض مما هي عليه في المدن الاخرى. واسواقها كبيرة وملائمة بالتجهيزات. والحمامات من الرخام الاسود ومرية جداً وانique. والمساجد التي كانت في اكثراها كنائس مسيحية قديمة، كانت كثيرة العدد ومشيدة جيداً. وتحمي المدينة من الشمال بقلعة تحيطها جدران عالية جداً، وبنفس قوة سور المدينة. وتحيط القلعة عدة ابراج مستديرة ومربعة والمزينة بالمدافع خارج نطاق الخدمة ولا يمكن استخدامها، وتغطي النقوش تلك الابراج التي يبدو انها شيدت في عدة عصور، وكذلك على الابواب. وبعض هذه النقوش محفورة على الحجر او على الطابوق. ولكن لم يكن لدى مايكفي من الوقت، او معلومات عن لغة النقوش حتى استطاع ان افهم ماتعنيه تلك النقوش. اما دليلي، الذي بدأ لي رجلاً ذكياً، قال لي انهم يفترضون انها كما النقوش الموجودة على الجسر، فانها تدل على تاريخ اقامة ذلك البناء، واسم السلطان او الباشا الذي كان يحكم آنذاك. وبعد ان قمت بدورة حول السور انطلاقاً من باب ماردين وحتى باب (Dag) اي نصف السور، استطعت ان اعرف محيطها الذي يمكن ان يصل الى خمسة الاف ميل وثلاثة ارباع الميل. ومن هنا يمكنني ان اتصور تعداد سكانها. فبافتراض ان ثلث المساحة المحصورة بين الاسوار فيها شوارع، يمكن للمساحة الباقيه ان تحوي احد عشر الف منزل، كل منها مساحته سبعة عشر قدماً تبلغ مساحة كل منها سبعة عشر قدماً مربعاً، ويكون كل

منزل من طابقين بشكل عام. وبافتراض ان يعيش في كل منزل خمسة افراد، فسيكون عدد السكان خمسة وخمسين الف نسمة. وتساوي هذه النتيجة عدد سكان المدن الشرقية التي نعرف تعداد سكانها.

ورحلنا في الرابع والعشرين في الواحدة بعد الظهر. وظلت السماء تمطر معظم الليل وطيلة الصباح، حتى غطت السيول الشوارع بالكثير من البرك، لدرجة ان السووط لم يعد يستطيع دفع الخيول الى التحرك حيث يغطي الطين سيقانها. وفاضت مياه النهر سيلًا لا يمكن عبوره الا سباحة. واصبحت الخيول متعبة ومنهارة مع مجى الليل، ولدرجة ان التتر وحدهم ظنوا انهم قادرون على دفعها للسير. وبما اتنى كنت مع التتر، استأنفتا المسير، رغم ان حرسنا الذين رافقونا منذ دياربكر، رفضوا ان يتبعونا ابعد من ذلك، وتركونا لقدرنا. واثناء الاربع او الخمس ساعات التالية رحلنا وكانت الظلمة حالكة، وصحبنا مطر لا يتوقف، بحيث ظننت اننا لن نقطع اكثر من اربعة او خمسة اميال. وكانت خيولنا تسقط مع كل خطوة ولكن جرعة السووط المضاعفة تعيدها للوقوف. واخيراً، كاد اثنان من اهم رفاقنا، وهم يحاولون عبور النهر، كادا ان يغرقا بعد ان جرفهما التيار، وظننا انهما سيموتان غرقاً مع خيلهما، مما دفعنا الى الاصرار عن التوقف عن متابعة السير. و تعرضنا لهطول مطر مدرار استمر احدى عشرة ساعة، ووجدنا انفسنا وقد ضللنا الطريق تماماً، فلم نكن نعرف هل نتقدم ام نحن نتقهقر. وكم كانت سعادتنا اذ لاح من بعيد ضوء يلمع، فتقدمنا نحوه ونحن نغوص في الاوحال بين النبات والانقاض. وظهر انه كوخ مشيد اسفل الجبل. وكان الجو رديئاً لدرجة ان الاصدقاء والاعداء وجدوا فيه المأوى. فقد التقينا فيه بتجار مسيحيين وبمسافرين وبعدد من قطاع الطرق الذين يعتاشون من السلب والنهب. ولم يكن الكوخ كبيراً بما فيه الكفاية ليأويانا مع من كانوا فيه قبلنا. ولكن

اللتى، لم يردعهم شئ، وطردوا من كانوا فيه لتدخل نحن، ويجب ان أقول الحق لصالحهم حيث انهم ظهروا في هذه المناسبة لايميزون احداً على احد، او مؤمناً على كافر.

و قضينا بقية الليل في ذلك الكوخ، مبللين حتى العظام وملطخين بالوحى حتى الركب، تتضور جوعاً ونكافد نختنق من دخان النار التي اشعلناها. اما الحقيقة التي تحوى الرؤوس التي نحملها الى القسطنطينية فقد اصبحت وسادة لرأسي حيث اتكأت عليها ويمكن لاي كان ان يتصور حالنا، فقد كنا سعداء ان وجدنا ذلك المأوى. ومع ذلك لم يكن ذلك اخر مصائبنا. منذ استمر هطول المطر صباح الغد، وصاحب ضباب كثيف. ولم يكن لدينا ادلة، فوجدنا انفسنا وقد ضللنا طريقنا للمرة الثانية. و قضينا يوماً كاملاً للوصول الى مدينة (ارگونا Arguna)، التي تقع اسفل جبل طوروس، في الوقت الذي لا يستغرق سوى ثلاثة عشرة ساعة، لكي نقطعه ونصل للمدينة. وطيلة ذلك الوقت كله وجدنا انفسنا بدون زاد من اي نوع كان. وكنت قد رأيت عندما كنت في الهند فيضاناً فجائياً لنهر ينحدر من اعلى الجبل، ولكنني لم ار مطلقاً مايشبه تلك السيول التي رأيتها الان. و وجدنا نهراً استطعنا مع بعض التعب تمييز مجراه، وكان البحر المتوسط قد حطم سدوله وحواجزه ليُفرق ذلك السهل. وان اولئك الذين يمرون في ذلك المكان من بعدها، سوف يصل الماء الى الخصر في الوقت الذي لم تكن تتبلل حوافر جيادهم عندما يمرون من قبل في ذلك المكان.

وتقع (ارگون)، كما (ماردين) على قمة جبل عال جداً. وحالات كثافة الضباب، وتواصل هطول الامطار، الى جانب عدم اخذني قسطاً وافراً من الراحة، حال كل ذلك دون رؤيتي لها. وتشتهر تلك المدينة بكرومها والتي تنمو في ضواحيها وبخمورها. مثلها في ذلك مثل كروم و خمور جبل طوروس، وسهول كاربوب من جهة اخرى. ويقال ان الكروم

تقدّم أنواعاً من العنب مختلفة ومع ذلك لم استطع الحصول على قنينة من النبيذ الأحمر الحلو الذي لا يمكن ان ينكر جودته وقيمة كروم (بورجونيا^{*}). (La Bourgogne).

وفي السادس والعشرين، استأنفنا السير، ممتنعين خيولاً جديدة قوية، وذلك في الحادية عشرة صباحاً. وكان التترى حامل الرؤوس في المقدمة مع خمسة او سبعة رجال آخرين. وكان الطريق وعرأً وانا اصعد. وفي الواحة عبرنا احد فروع دجلة، وهو نهر صغير يرتفع عليه جسر ذو ثلاثة اقواس. ثم بدأنا نصعد السلسلة الرئيسية لجبال طوروس. وبعد مضي ساعة عبرنا جسراً اخر يحمل قوسين، عاليين. ووصلنا (معدن Maden)، وهي قرية كبيرة تقع على احد جبال طوروس. وشهير بمناجم النحاس كما انها مقر ناظر المناجم. وفي الخامسة عبرنا جسراً آخر فوقه قوس واحد، ثم تويقنا امام احد المنازل والذي يستخدم كمعصرة على جبل طوروس، وذلك بعد ان سرتنا خلال سبع ساعات بالسرعة التي تسمح لنا خيولنا بها.

ومنذ ماردين، كنا نسير باستمرار ونحن نخوض في الثلوج، ولأن الطريق لم يكن مرسوماً او ممهداً فقد كنا على حافة وهاد الجبل المخيفة. وكانوا يظنون ببساطة انني لا افكر كثيراً فيمن يشكلون الخط الامامي لنا، ولا الحظ حتى غيابهم. ولكن حين وجدتني اجلس امام النار في ركن دافئ واحتسى النبيذ الفاخر الذي قدمه لي مضيفي، بدأت ادهش لعدم رؤيتهم واحتفائهم هكذا، حتى التترى وخادمي التترى اختفوا جميعاً وتركوني وحيداً مع الامتعة ومع رجلين متوجهين ذوي قسمات غير مريةحة بل مخيفة ولا اكاد اعرفهم. ولم يكن ذلك بالشيء الذي افهمه. وسألت عن التترى وقيل لي انه قد واصل طريقه الى القسطنطينية، حيث مازلنا على مبعدة ثمانمائة

* منطقة في فرنسا تنتج اجود انواع الكروم. [المترجمة]

مبل. وتصورت انها مزحة ربما لخافتى ولكن مالبثت ان عرفت الحقيقة. فقد حدث ان بعض المسافرين كانوا قادرين ان يذهبوا الى السلطان قبلهم ليخبروه بنجاح "داود افندى". فضاعفوا من سرعتهم حتى يسبقونهم وبدون مقدمات تركوا لي امتعتهم وطلبوها ان اتبعهم فيما بعد مع الامتعة. واذ تركوني وحيداً مع الغرباء وفي بلد مجهول، ودون عون اذا ما احتاجته في ظرف ما، وعلى قمة جبل طوروس، يمكن تصور انني اجد نفسي في موقف يدعو للغضب والقلق، ولكن ذلك لم يحدث. وكانت الامتعة التي تركوها وراءهم ثمينة جداً بالنسبة لهم، ليخاطروا بفقدانها. فلم يكن اذن اي داع للتخوف من مخاطر تهددى بشكل خاص. وفي المساء، وجدتني في موقع جيد متكامل والنبيذ كان فاخراً. ورأيت ان الرجلين كانوا مستعدين للضحك مني، وعلى حسابي، بدلاً من ان يقدموا لي اية منفعة. ورأيتمهما يريدان استغلال السلطة العليا على الوضع وعلى الحيوانات التي عليهم قيادتها، ظنوا انهم يستطيعون التصرف على طريقة اسيادهم الذين هم اكثر تحضراً منهم بالطبع، فارادوا اختيار افضل الخيول، واتخاذ افضل مكان بجوار المدفأة، وافضل بساط ليناماً عليه. ولكن، وكما شعرت بنوایاهم الخبيثة ولم اتنازل كما يحلولي، قررت ان اضعهم مرة واحدة وللابد في مكانهم الصحيح، او ان اصل معهم لمقاطعة مكشوفة واسافر وحيداً، ونجحت بسهولة وانا ادفع لمضيفي كل ما اخذناه منهم واتخذت مظهراً متعالياً يوحى بالأهمية مما فرض على الاثنين ضرورة الاحتراز. وفي السابع والعشرين صباحاً، بدأنا نهبط الجبل ولا يمكن مقارنة المصاعد التي لاقيناها في الصعود بتلك التي لاقيناها في الهبوط، ويعلم الكثيرون ان ارتفاع جبل طوروس يصل الى عشرة الاف قدم. وبما ان الارتفاع لا يهتمون بجعل الطريق اقل سرعة واقل خطورة ويتحركون يمنة ويساراً، فالطريق مستقيم وعر، يمر عبر المناطق الاكثر

صعبية، والاكثر خطورة والتي لا يمكن تصورها، ويبلغ سmk الثلوج من ستة الى ثمانية اقدام، فيماعدا **المنطقة المطروحة** التي داستها الاقدام، ولان ذلك الطريق عرضه ثماني عشرة بوصة فقط، واحياناً اقل، فان اية خطوة توضع خطأً على الارض يمكن ان تدفن في الثلوج. او تنكسر اعناقنا في الهاوية. ويمكن استيعاب تلك الاخطار بشكل اقل عند الصعود، ولكننا نحس بها تماماً ونحن نهبط. ولم استطع مع ذلك من الاعجاب بذلك الحزم الذي ابداه الرجالن وهم على متن الجياد بل وكيف ساعدا من تبقى من رجالنا على قيادة الخيول التي تحمل الامتعة. وبالنسبة لي، كنت اتعرق لو اضع قدماً على الارض، ولكن الخجل كان يمنعني وجاحدت قدر المستطاع على تتبع التترى وادلائنا. ومع ذلك، كان من الصعب الا ابقي في المؤخرة. اذ ربما لكت ضلل الطريق، اذا ما لم يعطني احد التترین درساً في ركوب الخيل لم اكن افكر ابداً في تطبيقه. وفي انجلترا، عندما يهبط احدهم الجبل، فإنه يكبّ جماح جواهه ويسير الهويناً بمنتهى الحذر. ولكن التترى قام بالعكس تماماً، ورقى باللجام على رقبة حصانه، وجعله يحس في كل خطوة بالسوء وبالمهماز، ويفقد بذلك الحصان تردداته الطبيعيه ويضرب الارض بقدميه الامايميتين في قوة بحيث تصبح خطواته مضمونة تماماً. وفتق ببعض المحاولات، الى جانب ضرورة الموقف، مما ملاني ثقة ووصلنا في الخامسة اسفل الجبل، بدون اية حوادث تذكر، سوى فقدان جواه واحد وقع في الهاوية وكان بها سيل قد جرفته المياه بزبدها في التو واللحظة. واثناء الاربع ساعات التالية عربنا سهلين يفصلهما جبال عالية: وفي الثانية بعد الظهر، وصلنا الى (خريپوت karpout) او (شاريپوت) القديمة. وهي مدينة كبيرة تقع في وادى الصوفان، وتحميها قلعة قوية، وتحكمها والمناطق المجاورة باشا مدينة (معدن).

لم نتوقف سوى ساعتين ونصف الساعة لانعاش الخيول.
وبحسبان ذلك اليوم اسرعنا في المسير بحيث انه لم تسمح لنا سرعتنا
الفائقة ان نشاهد اي شئ. وكان رحيلنا في الساعة الرابعة والنصف مساءً
وسرنا دون توقف حتى اوكسولي حيث وصلنا في الثامنة والعشرين
الساعة الخامسة صباحاً. وهي مدينة صغيرة تقع على الضفة الشرقية
لنهر الفرات. ويقطنها فلاحون كرد، واعتقد انهم يطلقون عليها كذلك اسم
چيس اوغلي، ثم لحق بنا خادم تترى كان يترأس القافلة. والذي تركه
التترى ليترأس قافلتنا. ثم لحق بنا "حمدود بك افendi"، (اللوحة ٦) وهو
شخصية تركية متميزة وزوج اخت "سليمان الصغير". وكان قد فرّ من
بغداد هرباً من قسوة "داود افendi" وطلب ان ينضم اليانا مع تسعه او
عشرة اشخاص من اتباعه.



وتركتنا المدينة في الحادية عشرة، وبعد مسيرة استغرقت ست ساعات، وصلنا (مالاتيا)، او (ماليتينا) القديمة، وكان جوادي في حالة جيدة جداً، وحاولت ان ارى ان كان من الممكن ان ارحل وحدي، فتقدمت على اقراني وسرت باقصى سرعة حتى وصلت متايل خانه قبل ساعة من مجئهم، وحيث رأيت انني بمالى يستقبلونني جيداً حتى ولو كان في اثرى دزينة من التتر وكانت (مالاطيا) قد اصبحت اسيا الصغرى، ورغم انه يبدو انها سقطت تماماً، الا انها مع ذلك ظلت تحافظ ببعض الالق.

وتركتناها في الخامسة مساءً، وبعد ان سارعنا في سيرنا بكل قوانا طيلة خمس ساعات، وصلنا في منتصف الليل الى قرية تسمى حسن بادريك، ولم تكن النساء مشهورات بحسن السمعة كما ان الرجال ذوي ميول مرذولة. وقال لي رفافي ان السكان ليسوا مسيحيين ولا مسلمين، وانهم فقط كفار زناديق، وللتر في سفرهم طريقة خاصة بهم وهي متعبة جداً. اما عندما يستبدلون جيادهم، يسيرون بخطوات بطيئة، ويشعرون الغليون ويدخون، وعندما يخفت الدخان يصبح السير خبيباً، ثم يسرعون وهو يحركون السنتم ويسدرون صيحات تشبه صوت الخيل وهو يتبع تلك الخطى البطيئة. ثم يركضون باقصى سرعة وتتصبح صيحاتهم مخيفة ومتواصلة وهم يضربون جيادهم وجياد غيرهم بالسياط حتى تقاد تلك الحيوانات ان تسقط اجهاداً وتعباً وارهاقاً. وحينذاك يعودون الى الخطوة البطيئة، ثم الخبب ويشعرون الغليون ثم يقفزون ويركضون ثم العدو، ويتذكر كل ذلك حتى يصلوا الى نقطة التوقف. وفي التاسع والعشرين كنا نعبر ولسبعين ساعات بذلك متخلاً جليلاً. وتويقنا بعد ذلك امام قرية (حكيم خان) حيث قضينا الليلة في كوخ بايس. ولم افهم ذلك السبب ولربما من باب الكيد لوجود "حمدود بيك افدي" وقد احس بالاهانة وجراحت المشاعر والكرامة، ليقيم بعد ذلك في منزل عام بدلاً

من القرى الصغيرة التي لا يعرفه فيها احد وكان يمكن ان يجعلونا في مجموعات ولأن صحبته كانت تسبب لي المتاعب قررت ان انفصل عنهم في اقرب فرصة، فقد كان رجاله يستولون على افضل الخيول وعلى كل ما يجدونه الافضل.

وفي الغد سرنا احدى عشرة ساعة وقضينا الليلة في قلعة صغيرة تسمى (حلوچه خان). واشلت الدنیا مرة اخري اثناء الليل حيث اختفت معالم الطريق واصبح من الصعب التقدم في السير. وكانت اقدام خيولنا تنغرس في الثلوج حتى الركبة، حتى ان احدها قد انجرف وسقط في الهاوية مع حمولته. وكان جرحه غالباً لدرجة اننا قررنا اهماله. ووصلنا (دارغليناخ Darghiltach) او (غليتاش؟)، بعد مسيرة سبع ساعات ونصف ودخلنا كوخاً بائساً، في حين اقتأدوا "حمود بك" الى اجمل منزل. واعتقدت انه من حقي ان اشاركه ذلك النعيم، كما شاركتني من قبل كل مخصوص لي، وتبعته دون مقدمات، كما كان يفعل معي من قبل ليشاركتني. وحاول اتباعه ايقافي، ولكنني رفعت رأسي عالياً، وتعمدت ان اريهم مسدساتي، وسحبت سيفي الطويل وجرجرته على الارض، وسرت دون ان يجرؤ احد ان يمنعني، وقمت بذلك وقد فعلت حسناً عندما قمنا بذلك. فقد حصلت على عشاء فاخر، ومكان فاخر اقيم فيه، ولانني لو حفظت له اعتباره، لتصرف معي تصرف غير لائق، ولم اهتم اذا تصرفت بادب وهي صفة لا يعرفها الاتراك، ولكنني تعرضت للمضايقات وربما حتى للاهانة.

بنکھی زین

وفي الاول من ابريل نيسان، رحلنا في الواحدة صباحاً، وبعد مسيرة تسع ساعات على طريق مُعبدة عربنا (السلة؟ Sullah)، ودخلنا (سيواس Siwas)، وهي مدينة كبيرة قدرة نوعاً ومبانيها لم تُشيد جيداً، وتقع شمال وادٍ خصب حيث يقومون بتربية الخيول الجميلة. وقد سُنحت لي

فرصة رؤيتها، ويبلغ حجمها على العموم حوالي خمسة عشر شبراً، قوية مع جسد متناسق يشتعل نشاطاً، وتبدو ملائمة لاعمال الفروسية. واشترينا خبزاً كافياً ليومنا كخطوة احترازية لباقي اليوم. وبعد ان عربنا جبالاً برkania. وصلنا بعد سبع ساعات ونصف الى قرية صغيرة بها خان حيث قضينا ليتنا.

واستأنفنا طريقنا صبيحة الغد في الخامسة والنصف، وتناولنا غذاءنا في مزرعة صغيرة، يتكون من خبز اسمر فاخر، وقشدة وعسل طبيعي، وغيرها من الاغذية الريفية المعروفة من نفس النوع. وكان صاحب المزرعة كبير السن، وزوجته اولاده استقبلونا جيداً وقاموا على خدمتنا. وشاهدنا بعض الشباب يسترق النظر اليانا من وراء الستار.

واعتقد ان كثيرين لم يتفهموا جيداً موقف الفلاحين في البلاد الاسلامية. ومن مساوى الاستبداد ان الانسان يشعر بنفوذ الحاكم مباشرة اذا لم يكن ظالماً. فبعيداً عن تلك الاشعة التي تضئ له، تكون لذة النوم هي تلك الاشعة التي تستهلكه. واذا ما كان ذلك الوضع لا يليق بالطبيعة الانسانية، فعلى الاقل نراه مطابقاً للسلام والسعادة المنزليه. فالفلاح التركي الذي يعيش في تلك الوديان ان لم يكن في كل بقاع الامبراطورية، يلبس جيداً، ويأكل جيداً، ويعيش في شقة فسيحة تحيط بها الاراضي الخصبة حيث انواع المزروعات، ويمتلك قطعاً جيدة عديدة، ومناخ بلاده من اجمل مناخات العالم. ليس سعيداً اذن؟ يجب المنظرون التجريديون سلباً على ذلك السؤال، لانه عبد. ولكن الخبرة والنظرة الثاقبة تقول العكس، لانه لم يكن يعرف سوى ذلك الوضع من قبل. وما هو، بل ما هو اذن وضع الفلاحين في اكثر مناطق العالم حرية ونعرفها كلنا؟ يقول الدكتور "جونسون" على ما اعتقد ان الفلاح يمتلك الاختيار: اما ان يعمل او يموت. تلك في الحقيقة هي مساحة الحرية التي

يتمتعون بها: صيام، او عمل، بالإضافة الى انه لا يستطيع دائمًا ان يعمل ما يحلو له، ولكن، طالما ان المصير واحد في ظل مناخات كل الدنيا نستطيع القول بان العمل يخلق السعادة اذا ما وفر لل فلاح طيب العيش الرغيد. و اذا ما كان مهتماً باعالة عائلته، فليس لديه وقت ل الانسياق وراء مقولات نظرية مجردة. انه يشعر دائمًا ان لاجة للفكر. وطالما انه بعيد تماماً في الفعل المباشر لعملاء الاستبداد، وحيث لا يشعر بالظلم يُشَقِّ كاهله كما يفعل مع ساكن المدينة، يُعتبر تقاعده عن العمل شكل من اشكال الحرية. ولأن الظالم يبحث في المدن فقط عن ضحاياه، ويجدهم، نرى انه في المدن حيث يسود حكم طاغ قوي تنتفض العقول الحرة دفاعاً وانتقاماً للحقوق السلبية للطبيعة الإنسانية. وسعید ذلك الذي يلتهب حماساً دفاعاً عن تلك القضية الرائعة الا ينسى ان الحرية هي حق القيام بكل ما تملئه وتسمح به القوانين كما يقول مونتسكيو.

وبعد ان تركنا وراءنا اجمل المناطق المسالمة في انحاء الامبراطورية المتراحمية الاطراف والتي الهمتني بالmallاحظات السابقة، سرنا في طريق معبدة خمس ساعات وربع الساعة لنصل الى مدينة (توقات Tokat) والمعروفة قديماً بمدينة (بيريزا Berisa) التي تقع في واد يرويه نهر (قزل ايرماق)، المعروف قديماً بـ(ايريس Iris). وهي اكبر مدينة في آسيا الصغرى وبلغ تعدادها ستين الف نسمة. ولم نتوقف فيها الا من اجل استبدال خيولنا وانطلقنا لنقطع مسيرة ثمانية ساعات اخريات لنصل بعدها الى مدينة (چورکات Gourkat)، والمعروفة قديماً بـ(سيباستوبوليس).

واستولى "حمدود بك" على خادمى التترى الذي كان يصطحبنى، كما كان يدير تحركاتنا على هواه، واصر على تفادي المدن الكبرى وجعلنا نقيم في اكثر القرى بؤساً. وقلت له بوضوح في الثالث من الشهر،

بانني ارجوه ان ننفصل ويسافر كل على حدة وانه يمكنه ان يختار اي تترى يريد ولكن ان يترك لي خادمي الذي عرضت عليه مكافأة ان اراد ان يتركه. ولكن لذلك لم يكن في خطط حمود بيك، الذي رغم التعالي الذي يبديه لم يكن في حقيقة الامر الا انساناً هارباً. كما انه لم يكن لدينا سوى فرمان واحد يخص قافتلنا ولكنه كانت لديه افكاره التي استطعت ان اتفهم ما ترمي اليه. كان في شبابه عبداً مملوكاً لدى سليمان الكبير بعد ان اشتراه. وتلقى تربية خاصة يستطيع بها ان يرقى لاعلى المناصب حتى تم تعيينه حاكماً على البصرة وتزوج شقيقة سليمان الصغير. وبعد وفاة سليمان الكبير، جابته بعض المتابعين لاستبعاد ذلك الرئيس الطيب لصالح سعيد ليكون باشا بغداد. واصبح مغضوباً عليه وفي قائمة المطاردين المطلوبين. وفي غمرة ذلك الصراع، هرب من بغداد مع تسعه او عشرة من اتباعه الذين صمموا على اتباعه. ويعتبر محظوظاً جداً انه قد احتفظ برأسه فوق كتفيه. واخبرني انه ذاهب الى القسطنطينية ليدافع عن نفسه امام السلطان ولكي يعهدوا له بوظيفة في مستوى "كابيدچي باشي"، مثلاً. وكان يظن ان سفيرينا لدى الباب العالي سوف يؤازر طلبه.

واما ماتم تعيينك في ذلك المنصب الرفيع، فما هي الرأس الذي سوف تطهير بها وتهديها للسلطان. "انها رأس داود باشا دون منازع"، اجابني: وانه لو استطاع لكان يرسل رأسه. وهو وحده السبب في عدم تعييني باشا بغداد فاسمي كان اول الامر في الفرمان. ولكن ما ان اصل الى اسطنبول، ستقدمني الى السفير الانجليزي لأنني ارى في تصرفاتك رجلاً من مستوى راقي، رغم انك تساخر وحدك كما يفعل الاوربيون عادة الذين يريدون البحث عن معلومات. ومكانتك مكانة السفير سيعملان على تعزيز وانجاح مخططاتي، عندها سيخذ داود حذره. والى ان يأتي ذلك الوقت، ليساعدنا

الله. (فلا تراك يذكرون الله دائمًا إذا أرادوا أن يقتربوا فظاعة أو قسوة).
وسوف أعمل على قطع رأسه واستولى على مكانه.
وكانت تلك الطموحات متواضعة من لدن شخص كانت رأسه تقف
على شعرة قبل أيام. وقلت له، وكان كلامي معقولاً، بانني لا اتمسك
بالانفصال في الرحلة، وشرحت له بعد ذلك متابعي ومخاوي، ولك ما
استطعت الحصول عليه هو انه لن يتسبب في ازعاجي وانني يمكنني ان
اختار الحصان الذي اريد واحتفظ بخدمي التترى كذلك، وانه سيحتفل
مستقبلاً مع توقفنا كل يوم.

ونتيجة لتلك الترتيبات استطعت الحصول على جواد ممتاز ونحن
نترك توركات. وللاحتفاظ بذلك مسيرة ثلاثة ساعات في عبور بلد جبلي
جميل، دخلت الى كوخ حطاب في احدى الغابات وحصلت على فنجان من
القهوة. ولكنني ركب حصاني حال وصولهم. وبعد مسيرة ست ساعات
تقدمت عليهم كذلك في مدينة (امايسية Amasie).

وتقع تلك المدينة في وادي ضيق بين جبال عالية، وتحتل مع حدائقها
شطآن نهر (قزل ايرماق)، وتشتهر المدينة بـ"سترايون" من مواليدها، وهو
الذي سمي بذلك النهر (ايريسن) وقدم لها بعد ذلك وصفاً رائعـاً. وتضم
المدينة كذلك رفات ملوك "بونت Pont" حيث كانت جزءاً من مملكتهم
قديماً. وسرنا ست ساعات، وقضينا الليلة في مدينة (marsowan)،
وهي مدينة كبيرة كذلك ولكنها لم تعرف مطلقاً كمدينة نظيفة.

وفي الرابع من الشهر، وبعد مسيرة اربع عشرة ساعة وصلنا الى
مدينة (عثمان چيك) وهي مدينة يسكنها جنس مختلف فظ، وتقع على
نهر يصب في (قزل ايرماق)، وتشتهر بقلعتها الجميلة القديمة وبجسر
جميل يقال انه قد شيد بأمر من "السلطان بايزيد Bayazet". وسرنا بعد
ذلك مدة تسع ساعات في السهرة وجاء من الليل، وبعد ان مررنا بممر

ضيق محفور في الجبل وصلنا قلعة (حاجى حمزة)، وهي قلعة صغيرة تسمى (اندرا比ة القديمة Au drape).

وفي الخامس، وبعد ان قطعنا ثلايين ميلاً في منطقة فخمة، التقينا في (طوسيا Tossia)، بشخصية ايرانية كبيرة وكان عاداً الى بلاده، وكذلك التقينا مالطاياً يتحدث قليلاً بالفرنسية واصطبغبني في الاسواق.

وفي ذلك اليوم، التقى بعدها مثل اخر لانعدام الضمير، كما الموظفين الاتراك والتر لكي يحصلوا على كل ما يريدون بالقوة المفرطة. وكنت اتقدم جماعتي ببضعة اميال، عندما تقدم التتر بسرعة لكي يُعد الجياد. ولكنه عاد بسرعة ليسألني عن باقي افراد القافلة. وبعد ان تحدث قليلاً، فحص مسدساتي، وفحص مسدساته وطلب مني ان اتبعه، وكنت اعتقد ان هناك من سوف يهاجمنا ولكن العكس هو الصحيح. ففي اول انعطافه للطريق، التقينا ثلاثة رجال، مسلحين جيداً يقطرون خمسة عشر جواداً من افضل الجياد. وهجم عليهم ومسدسه في يده، وقبل ان يجدوا الوقت الكافي للدفاع عن انفسهم، اقتدنا سبعة او ثمانية من افضل الخيول الذين اختنناها ونحن نقسم اننا سوف نذبح من يعترضنا ويقاوم. واستغرقت القضية لحظة واحدة حيث تمت العملية بسرعة حتى قبل ان افكر في نتائجها. وكنت اعتقد ان اقل ماسوف احصل عليه لقاء خدماتي ان اختار الحصان الذي اريد، لأن حصاني كان منهكاً تمام الانهاك. ولكن التتر الخبيث قال لي وهو يضحك هائلاً. انها مخصصة لحمود بيتك واتباعه. واذ رأيت ان ذلك امر غير عادل، بنى ضد اي مبدأ من مبادئ التعامل الشريف بين افراد الطبقة الواحدة، لم اهتم بما يمكن ان يُقال من قبل حمود بيتك، او اتباعه، اخترت جواداً وضعط عليه لجام جوادي وامتناعته في الحال وبدلًا من ان يغضب التتر اخذ يضحك وهو يقول: ساعدني الاوربي على اخذ الجياد ورغم انه من العدل ان نأخذ من الاجانب

كل مانحتاجه الا اننا جنود ومسافرون، وسيكون من الجنون ان يتشارحن الرفاق فيما بينهم، تلك كانت مبادئه ولم يمنعه ذلك من المواجهة مع تترى اخر لم يجرحه بسيفه فقد اخذ الثاني موقف الدفاع عن النفس، ولم نستطع تفريقهما الا بعد ان هجمنا عليهما وفي ايدينا سيفينا.

وفي السادس، وبعد ان مررنا بمدينة (قراجوان Karajouan)، وهي مدينة صغيرة تقع في سهل خصب. قضينا بعض الوقت للراحة في "قراجوان" بعد مسيرة عشرين ساعة دون توقف. ورحلنا في السابع من الشهر، وكان الجو بارداً جداً استمر ليومين او ثلاثة كما كانت الثلوج تهطل بغزارة وباستمرار. وقابلنا بعض المسافرين الذين نصحونا بعدم التقدم في السير نظراً لأنهم قد لاقوا مخاطر كثيرة في الطريق. وكانت الثلوج قد غطت معالم الطريق. ولكن التترى قرر مع ذلك مواصلة الرحلة سواء كان ذلك عناداً ام احتقاراً بالمخاطر والمتاعب. وقد كان جوادي وجoad حمود ممتازين. فقد تقدمنا على الجماعة وحاولنا اللحاق بالتترى وبالدليل وكانا قد رحلا قبلنا بنصف ساعة. ورأيناهم على مسافة قريبة رغم ان استمرار هبوط الثلوج قد منعنا تماماً من رؤيتهم بل حتى انه غطى اثار جيادهما. وعبرنا وحدنا سلسلة جبال الاوليمب وظللنا تتجلو طيلة الليل مخاطرين في كل لحظة بان تطويينا الثلوج او نقع في هاوية ما اذا ابتعدنا عن الطريق الضيق الذي يجب ان نتبعه، والذي لم نعد نستطيع التعرف عليه، لولا غريزة جيادتنا. واخيراً وبعد ان قطعنا ست عشرة ساعة لمسافة يمكن ان يستغرق قطعها تسعة او عشر ساعات فقط. ووصلنا (حماملي Hamamly)، مع هبوط الليل، ولم يلحق بنا رفاقتنا الا صبيحة اليوم التالي حيث جابهوا نفس الصعاب التي تحملناها، الى جانب انهم فقدوا حصاناً، وكان الثلوج يهطل دوماً ولكن بشكل اخف. وبعد عشر ساعات من السير وصلنا الى مدينة (گريدا Geirida)، وهي

مدينة صغيرة لا تثير الاهتمام ومنازلها خشبية، ولم نستطع ان نحصل فيها على اية جياد، ولكننا قضينا ليتنا فيها.

وفي التاسع، توجهنا الى (بولي Boli)، وكانت جيادنا متعبة حتى اننا لم نصلها الا بعد ثلاثة عشرة ساعة وبالسياط التي تنسع بها اجساد جيادنا. وكانت الطريق معبدة الا اننا لم نر خلال الساعات السبع الاولى لا قرية ولا اي شئ يدل على الحياة..ولكن تلك المدينة نقطة توقف ممتازة ورأينا فيها منزلاً عاماً وسوقاً عربية كبيرة وحمامات صغيرة الا انها نظيفة ومحظوظة بها. اما السهل الذي يحيط بها فهو مزروع جيداً ولدي بالقرى التي تقع عادة على حواف الانهار الصغيرة التي يمكن عبورها والتي تصب في البحر الاسود.

وفي العاشر، اصبحت جيادنا مرهقة تماماً. وكما حدث بالأمس، فان اسوأ حصان كان من نصبي. ولكن الحصان السئ لم يكن حجة بالنسبة للناري لكي لا يعود اذا ما قربوا ذلك. وكانت الطرق سيئة وسيقان حصاني يغطيها الوحل حتى الركب، بل احياناً تنفرز ارجل الخيول بين جذوع الاشجار كأنها انغرست في فتحة باب. ووقع الحصان الذي كنت اركبه من كثرة الارهاق وكان من المستحيل اجباره على الوقوف ووجدنا انفسنا مجبرين على تركه. واعطوني اخر، كان افضل حالاً قليلاً. والطريق كث معبدة. ورحلنا ونحن نضرب بالسياط جيادنا ونصبح كما المجانين حتى ندفع خيولنا للركض. ووقع حصاني مرتبين تحتي دون ان اترك لجامه ولكن وبعد ميل واحد وقع في مستنقع من فوقي وظللت مضطرباً من شدة الضربة. واصررت على حصان اخر، ولكنهم استخدموا ما تبقى في حوادث متشابهة ووجدت نفسي مضطرباً للاقتناع بحصاني.

تلك كانت طريقة السفر مع الناري وكان حظي جيداً ان بنينتي قوية، ولكن تلك الحوادث الصغيرة يمكن ان تكون درساً وتدلل على ضرورة

حسبان القوى جميعاً قبل الشروع، في سفرة كتلك. ومع القليل من المال الذي استطعت ايجاده، ولكن اذا كنت قادراً على الحصول على تتي وعلى خادم، مع التجهيزات الجيدة، وبعض المسافرين يلحقون بنا من آن لآخر وكانت رحلتي هذه اكثر راحة. ولكن لأنني لم استطع ان اهنى لنفسي تلك الميزات وجدتني محظوظاً ان ظفرت بتلك الفرصة التي ستحت لي ورغم ان حضوري لم يكن بالطبع مزعجاً لرفاق السفر، بل كانت قوة مضافة لقوتهم، الا انهم كانوا قليلاً الاهتمام باحتياجاتي، بل كان من المحتمل ان يتركوني وحيداً ويخلوا عنني لولا انني كنت مثلهم اتحمل التعب والحرمان.

اما (دوستشه Dustacha)، حيث قضينا ليلة العاشر من الشهر، لم يكن فيها سوى بعض المحلات المخصصة لراحة المسافرين. وتركتنا في الحادي عشر حيث سرنا مسافة اثننتي عشرة ساعة بين الغابات والطرق الوعرة حتى وصلنا (هندك Hendek)، ولم نجد سوى مزارع تحيطها الكروم وبذلت الآمال تتنعش. والشئ الوحيد المثير للاهتمام اثناء ذلك النهار ثلاثة مطاحن خشبية او اثنين وآلية استخدامها - رغم بساطتها - تعلن عن تقدم فني وحضاري لايمكن توقعها في بلد ريفي متخلف.

وتقع هندك، على بعد مائة وعشرين ميلاً من القدسية، وسافر رفافي وهم مصممون علىمواصلة الرحلة دونما توقف. ولم يكشفوا لي عن اسرارهم ولكنني تبعتهم دون ان اكون مستعداً لمثل تلك السفرة الطويلة، وعبرنا جبل سنجار فوق جسر خشبي مشيد على مجراه ماء سريع الجريان لا يوحى بالامان. وعبرنا مجراه اخر وهو فرع للنهر السابق. وفوق بقایا جسر فاخر. ويبد ان المياه قد نسيت مجرها القديم. فما كدنا نرى في مجرى النهر سوى خيط مائي رفيع، ولا يوجد ما يوحي ان الوضع كان افضل منذ سنوات.

وفي الساعة الثانية عشرة، ولم نك نصل هنك، وجدنا (سابانجية) الواقعة على بحيرة جميلة يجاورها الطريق بعض المسافة. وهي مدينة صغيرة، استبدلنا فيها خيولنا ثم رحلنا. وسرنا في طرق قديمة معبدة تمتد فوق مستنقع، وقدنا بعد عشر ساعات الى (ازميد Ismid) (نيقوميديا القديمة)، التي تقع في شبه جزيرة تمتد في بحر مرمرة.

وكان الليل قد هبط عندما دخلنا تلك المدينة. ولم نقم الا باستبدال الخيول فيها وتابعنا سيرنا. وقطعنا السنتين ميلاً الاخيرة دون توقف. سوى لاستبدال الخيول ودون التزود باية مؤن الا ما استطعنا تناوله ونحن ما زلنا نمسك بلجام خيولنا. وفي الثالث عشر من ابريل وفي الساعة الواحدة بعد الظهر، وصلنا الى (سكتاري Scutari) حيث نهاية رحلتنا.

النهاية

